أنطون بارا

الحسين
في الفكر المسيحي

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 014873606

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

APR 28 2004

الحُسَيْن

في الفكر المسيحيّ

(Arab) BP193 .13 .B37 1980
(NBC) BP193 .13 .B37 1984

جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف

ص . ب ٢٦٠٩٥ – الصفاة

كويــت

الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م – كويت
الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م – كويت

طبعة مزيدة ومنقَّحة

* * * * *

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR
32101 014873606

الفصل الأول

اســم الكتــاب : الحسين فى الفكر المسيحى
المــؤلــف : انطون بـارا
عـد د الصفحات: ۳۶۸ صفحه
النــاشــر : انتشارات الهاشمى
المطبعـه : نمـونه
تاريـخ النشـر : ۱۹۸۴م/ ۱۴۰۴هـ محرم

حـق الطبع محفوظ ايران قم
خيابان ارم پاساژ قدس

مقدّمة الكتاب

ضمير الأديان إلى أبد الدهور..

للدكتور أسعد علي

- ١ -

إنَّ « للألَم » سراً يتّصِلُ بينبوع السُّرور . بل يتدفَّقُ منه كما يَنبثِقُ « الأملُ » من حروفِ « **الألَمِ** » بقليلٍ من حركيةِ التركيبِ والتواصُلِ بين الحروف « **ألم = أمل** » . .

هذا على مستوى التركيبِ اللغويِّ الواضح . .

أما مستوى الرُّوح الواسعِ كالرِّيح ، فظاهِرُ المظاهِرِ خفيُّ السَّرائر . يكتشفُه أهلُ الذَّوقِ في سِيَرِ الأنبياء والشهداء والصَّالحين . .

- ٢ -

في الإنجيلِ ؛ والإنجيل يَعني : البشارة . . صلىّ السيِّدُ المسيحُ (ع) ، عشيَّةَ تسليمه ، وناجَى الله قائلاً :

« إنْ كان يُستطاعُ فلَتعبُرْ عني هذه الكأس . . لكن ليس كمشيئتي بل كمشيئتك . . . أما الرُّوحُ فمستعدٌّ وأما الجسدُ فضعيفٌ . . . ولكن كيف تتمُّ الكتبُ

فإنَّه هكذا ينبغي أن يكون[١] » . .

ضعفُ الجسدِ : مصدرُ الألم . . واستعدادُ الرُّوح لتنفيذ المشيئةِ العليا : يَصِلُها بينبوعِ السُّرور الخالد . . فلا موت . .

والنَّصرُ الحقيقيُّ لا يكونُ إلاَّ انسجاماً مع التوجُّه الينبوعيِّ الطاهر . . وهل ينتصر مَن يخسَرُ نفسَه ولو ربحَ العالم[٢] . . ؟

بهذا المقياسِ الانتصاريِّ . .

ماذا يقولُ العالَمُ بثورة الحسين بن علي ، إبن أبي طالب . . (ع) . . ؟

هل انسجَمَ الحسينُ مع التوجُّه الينبوعيِّ الطَّاهِرِ ، فكانَ مُنتصِراً في شهادته وشهادة آل بيته ؟ . .

فَطِنَ المؤرِّخونَ والباحثون لرمزيَّةِ الثورة الحسينيَّة ؛ واستعذبوا تكرار السِّيرة الحسينيَّة : إستلهاماً لها . . واستقواءً بروح صاحِبِها[٣] . .

– ٣ –

يقول الباحث الشابُّ ، السيد أنطون بارا ، في بحثِه الجديد ، « الحسين في الفكر المسيحيِّ » ، ما خلاصته :

« لم يُسجِّل التاريخُ شَبيها لاستشهاد الحسين في كربلاء »

فاستشهاد الحسين وسيرته : عنوانٌ صريحٌ لقيمةِ الثباتِ على المبدأ . . . ولعظمةِ المثاليةِ في أخذ العقيدة وتمثُّلِها . .

---

١ – متى : ٢٦/ ٤٠ – ٥٥

٢ – نفسه : ١٦/ ٢٦ : فإنَّه ماذا ينفعُ الإنسانَ لو ربح العالَمَ كلَّه وخسِرَ نفسَه ؟

٣ – يلاحظ ماكتبه : عباس محمود العقَّاد . . والشيخ عبد الله العلايلي . . والشيخ محمَّد مهدي شمس الدين . . وكثيرون غيرهم .

لذلك ، غدا حبُّ الحسين الثائر : واجباً علينا كبشر . . وغدا حبُّ الحسين الشهيد جزءاً من نفثاتِ ضمائرنا . .

فقد جاءت صيحةُ الحسين : نبْراساً لبني الإنسان في كلِّ عصر ومِصر ، وتحت أيَّةِ عقيدةٍ انضوى . . إذ أنَّ أهداف الأديان هي المحبَّة والتمسُّك بالفضائل ؛ لتنظيم علاقة الفرد بربِّه أوَّلاً . . وبأخيه ثانياً »[1] .

إنَّ بحث السيد أنطون بارا ، بمجمل فصوله[2] ، **يؤكِّد حقيقةً** تجلَّت له ، وجسَّدها بقوله :

« فقد كانَ الحسين (ع) شمعةَ الإسلام . . أضاءَتْ ممثِّلة ضميرَ الأديان إلى أبدِ الدهور[3] » . .

إنَّ هذه النتيجة مثيرةٌ للغاية ؛ لأنَّها تحكمُ الماضي والمستقبل . . ومقياسُ الحكم فيها ثورة الحسين الواقعيَّة . . ثمَّ مثالية الرَّمزِ في شخصيته . . فكيفَ يُخرِّجُ هذا الحكمُ الذي يبدو وكأنَّه انخطاف بالتأثُّرِ حتى الغلوِّ . . ؟ هل مثَّلَ الحسين ضميرَ الأديانِ ، في الماضي ؟ . . وهل يُمثِّله في المستقبل ؟ .

— ٤ —

ضميرُ الأديان ، بمقياس المسيحية ، وصيتان :

---

١ – الحسين : ص٦٦

٢ – لاحظ عناوين الفصول : لمن ثورةُ الحسين ؟ . ثورة الوحي الإلّهي . . فداء الحسين في الفكر المسيحي . . معجزات الشهادة : في ضمير الإسلام . . في المجتمع . . في الزمن . . . حكمة اختلاف الشهادتين . .
أسباب ثورة الحسين : قريبة وبعيدة . . في عهد يزيد . . الخروج . . آخر أقوال سيد الشهداء ومواقفه . . مقتله . . الجريرة التي أسقطت أميَّة . . المسيح هل تنبَّأ بالحسين ؟ كربلاء الأرض المقدسة . . ضمير الأديان أفضال وألقاب . . سمو الشهادة في علم الجمال . .

٣ – الحسين : ٦٥

« أحببِ الربَّ إلٰهك ، بكل قلبك ، وكلِّ نفسك ، وكلِّ ذهنك . هذه هي الوصية العظمَى والأولى » . .

« أحببْ قريبك كنفسك . . هذه هي الوصية الثانية التي تشبه الأولَى » . .

بهاتين الوصيَّتين : يتعلَّقُ الناموسُ ، كلُّهُ ، والأنبياء . . [1]

إنَّ ضمير الأديان : محبَّةٌ لِلّهِ . . وتحابٌّ بين العباد . . كما يُفهَمُ من عبارة السيِّد المسيح . .

فكيف يُفهَمُ ضميرُ الأديانِ من عبارة القرآن ؟

— ٥ —

آياتُ المحبَّة ، في القرآنِ الكريم ، تؤكِّدُ ضمير الأديان ، هذا ؛ فضميرُ الأديان : محبَّةٌ وتحابٌّ . . ومِن صيغ التعبير عن هذه الحقيقة :

« ياأيُّها الذين آمنوا . .
مَن يرتدَّ منكم عن دينه . . فسوف يأتي اللهُ بقومٍ : يُحبُّهم ويُحبُّونه . . . أذلَّةٍ على المؤمنين . . أعزَّةٍ على الكافرين . . يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ؛ ذلك فضلُ اللهِ يُؤتيه من يشاء ؛ والله واسعٌ عليم[2] » . .

قومُ الله : يُحبُّونه . . وهو لذلك يُحبُّهم . . فدينه : المحبَّة . . ولا يَقبلُ قوماً يرتدُّون عن هذا الدين . . أو يتقاعسون في تنفيذ أخلاقه التي أشارت إليها الآية : رحمةً . . وشدَّةً . . وجهاداً . . وشجاعةً[3] . .

هذا ضميرُ الأديان في الصِّيغةِ الإسلامية . . وفي الصِّيغة المسيحيَّة السَّابقة . .

---

١ – متى : ٢٢ : ٣٨ – ٤١

٢ – المائدة : ٥٤

٣ – تلاحظ رسالة : عبد الله خلف . . حول : حقيقة الحبِّ في القرآن .

إنه : المحبَّةُ والتحابُّ . . فكيف مثَّله الحسينُ بن عليٍّ بالثورة ؟

خيرُ الأمم : أمَّةٌ هُدِيَتْ إلى الحقِّ فهَدتْ به . . والتزمته بالعدل[1] . . وما الحقُّ الذي يجعلُ الأمَّةَ خيرَ الأمم ؟.

إنَّه الإخلاصُ للهِ . . والتعايُشُ بالمعروف المُطهِّرِ من المنكر[2] . .

النُّصوصُ القرآنيَّة تؤكِّدُ مقاييس خير الأمم : بصيغةٍ جديدةٍ لدينِ الحبِّ والتحابِّ . . فهل كانت ثورة الحسين تمثيلاً عملياً لضمير الأديان هذا ؟.

– ٧ –

يقول الحسين (ع) :

« إنَّما خرجتُ لطَلَبِ الإصلاحِ في أمَّةِ جدِّي . . أريدُ أن : آمُرَ بالمعروفِ . . وأنهى عن المنكر . .

« فمن قَبِلَني بقبولِ الحقِّ . . **فاللهُ أَولى بالحقِّ** ؛ ومَن ردَّ عليَّ هذا . . **أصبرُ حتىَّ يَقضيَ اللهُ بيني وبين القوم بالحقِّ** ؛ وهو خيرُ الحاكمين » . .

حلَّلتُ هذا النصَّ ، مرَّة ، أمامَ أصدقاءَ من الشَّعبِ والعُلماء . . في بيروت ١٩٧٥ . . . وناقشنا مبادئ الأديان المركَّزة فيه . . إنَّما جاءَ تركيزُها ميدانياً . . فالحسينُ : يُقرِّرُ واقعةَ خروجهِ للثورة ، ويُعلن غايةَ ثورته : طلباً للإصلاح في أمَّةِ

---

١ – لاحظ نصوص الآيات الواضحة :

« وممَّن خلقنا : أمَّةٌ يهدون بالحقِّ . . وبه يعدلون » (أعراف : ١٨١)

٢ – « كنتم خيرَ أمَّةٍ ، أُخرجَتْ للناسِ : تأمرون بالمعروف . . وتنهونَ عن المنكر . . وتؤمنون باللهِ . . ولَو آمن أهلُ الكتاب لكان خيراً لهم » (آل عمران : ١١٠) . . . « ورحمتي وسعت كلَّ شيْ . . فأكتبها : للذين يتقون . . . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل . . يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . » أعراف : ١٥٦ – ١٥٧)

جَدِّه ، الذي بُعِثَ للنَّاس جميعاً . . كما يُعلِن أصول ثورته الإصلاحية ؛ فهيَ : أمرٌ بالمعروفِ . . ونهيٌ عن المنكر . . حتى يكونَ انسجامُ الإنسانِ مع الحقِّ . . فما هي دروسُ الثورة المعروفةُ في ضمير الأديان . . [1] والتي أوضحَها الحسينُ بحبرٍ جديدٍ من دمِ الشهادةِ المحرِّرة المنقِذة ؟ .

— ٨ —

من دروسِ المعروف الخالدة في الثورة الحسينيَّة : الحرية . . الإيثار . . التطوُّر . . الإبداع . .

ألا تمثِّلُ هذه الدروس ضمير الأديان إلى أبد الدهور ؟ ولكن كيف نفهمها ، في عصرنا ، كما أرادها الحسينُ بن علي في ثورته ؟

أمثِّلُ لذلك بمقاطِعَ من « جامعة الحسين » :

« **أوَّلُ دروس المعروفِ : الحرية . .**
ويُقابلُها من مظاهر المنكر : العبودية . .

فكلُّ المظاهر التحكمية ، أو التسلطية ، أو الاستغلالية ، إنما هيَ مظاهِرُ للعبودية وزبانيةٌ لها . .

وثورة الحسين كانت وثبةً شجاعةً من أعماق سجون التسلُّط في عصره ؛ ليخترق جدران العبودية ، مُطلِقاً هواء الحرية بالفداء في فضاء الزمان ؛ ليصل الهواء النقي ببعضه ، من ماضٍ وحاضرٍ وآتٍ . . فالهواء حرٌّ ؛ من طبعه الحرّية . . ولا يستطيعُ الحياةَ بين جدرانٍ . . الهواء الحرُّ : يُحيي . . والهواء الحبيسُ : يقتل . .

---

(١) تأمّل التفاصيل في : « جامعة الحسين بن علي » ص ٢٣ – ٣٠ وقارن بالآيات المشار إليها : (أعراف ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٨١) . وآل عمران ١١٠ . .

حرَّرَ الحسينُ ، بوثبتِه الفدائيَّة ، هواءً تتنفَّسُه النفوسُ الحرَّةُ الشريفة ؛ لأنَّه أكَّد عذوبة الموتِ : طلباً للإصلاح الإنسانيِّ . .

وإن كانَ الموتُ بهذا المستوى من العذوبة . . فلماذا يستعبدُ الخوفُ الإنسانَ ؟ . . لماذا لا يندفعُ كالسَّهم الملتهبِ ؛ فيحترق ويخترق ؟.

إنَّ الاحتراقَ الخارقَ : حرِّيةٌ ، فائقةُ المذاق . . إنَّه : الشهادةُ ، التي تُثمرُ الشهداء . . « أشهَدُ أن لا إله إلاَّ الله » : عنوان جامِعةِ الشهادة ، أي الحرِّية ؛ لأنَّ هذه العبارة تَعني : عدمَ الخضوع لغير الله ؛

والخضوعُ لله : حرِّية ، لأنَّ من يخضَعُ لِلَّـهِ . . يتقوَّى بقوَّته . . ويتحوَّل بحوله . .

والشهداء : خرِّيجو هذه الجامعة التي تصنعُ الأحرار . . وتدعو عشاقَ الحريَّة في كلِّ سبيل[1] » . .

« أما الدرسُ الثاني من دروس المعروف ، فهو : الإيثار . . ويُقابلُ الإيثار من مظاهر المنكر : الأنانيَّة . .

فكلُّ الأعمالِ ، التي تجعَلُ الآخرين وأشياءهم وقفاً لأنا الفرد المتسلِّط ، تُعتبر من أشواكِ الأنانية ، أو من ثمارها الشائكة.

وثورةُ الحسين ؛ إنَّما هِيَ خروجٌ مُحِبٌّ من أجلِ الجماعة . . ولو كان هذا الخروجُ الثوريُّ مُودياً بحياته وحياةِ أبنائهِ وبناته . . إن الحسين يطلُبُ الإصلاح في أمة جدِّه ، « **خيرِ أمَّةٍ أُخرجت للناسِ بثلاثة مواقِفها : الإيمان . . والأمر . .**

---

١ - جامعة الحسين ؛ بيروت : ١٩٧٥ ؛ ص٢٦ - ٢٧

والنهي[1] » . . تلك المواقف المكتوبة في التوراة والإنجيل[2] . .

لقد آثر الحسين صلاحَ أمّةِ جدِّه – الإنسانية الهادية بالحقِّ ، العادلة به[3] – على حياته ، فانطلَق إلى كربلاء ، ليكون عاشوراء ، وليَبقى الفِداءُ ضمير الأديان المطوِّر والمبدع[4] . .

كذلك يُفهم درس التطوُّر في ثورة الحسين . . وكذلك يُفهَمُ درسُ الإبداع فيها . . وبمثل هذا الفهم يكونُ التحرر من مظاهرِ المنكر : جموداً وتخلُّفاً . . وتقليداً أعمى . .

– ٩ –

أليس ضميرُ الأديانِ : إيقاظاً مستمرّاً وتذكيراً دائماً بهذه المبادئ التي فَداها الحسين في عاشوراء ؟.

أليستِ الحرّيةُ والإيثار ، كما فهمنا هما من ثورة الحسين ، جوهر وَصيتي الإنجيل العُظْمَيَينِ ؟.

– ١٠ –

لقد أثار السيد أنطون بارا ، في كتابه : « الحسين في الفكر المسيحيِّ » **إثارات تدعو الإنسانية المعاصرة إلى مزيد من التأمل لمعرفة الحقِّ الذي يُحرِّر كما يقول السيد المسيح . . فهل يتأمل المعاصرون[5] ؟.**

---

١ – لاحظ نص الآية (١١٠) من سورة آل عمران

٢ – لاحظ نص الآية (١٥٧) من سورة الأعراف .

٣ – لاحظ الآية (١٨١) من سورة الأعراف

٤ – جامعة الحسين : ٢٧ – ٢٨

٥ – لاحظ مثلاً كيف تنبأ المسيح بالحسين ص ٢٩٥ وما بعدها إن هذا يُثير ما يُقال في نبوءة سليمان . . ومن قبله نوح . . فما معنى إجماع الأنبياء على هذا . . ؟

دمشق ١٩٧٩/٥/٢١

٢٤ ج ٢ سنة ١٣٩٩ هـ

د . أسعد علي

*

مقدمة الطبعة الثانية

لسماحة الكاتب الإسلامي
السيِّد محمد بحر العلوم

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحِيم

أمرٌ رائع جداً أن يلتقيَ الفكران الإسلامي والمسيحي في قضية من أهم القضايا العقائدية ، وينتهي بهما المطاف إلى نتيجة واحدة هي : الحق والعقيدة ، والاستجابة لنداء الرسالة ، والنضال في سبيلها بإيمان وشموخ . .

فالمصدر لهذين الخطَّينِ واحد ، ومسارهما التاريخي لن يختلف ، فمن الله تلك الرسالة السماوية قد بُعثت لمكارم الأخلاق ، تُهدي الأمة ، وتنقذها من الجهالة والظلم .

فكانت رسالة المسيح (ع) ، وكانت رسالة محمد « ص » ، رسالتين هزَّتا ضمير العالم ، وأجَّجتا فيه كل مشاعل الأمل ، وأثْرتا فيه العطاء . .

ولابد أن تكونا كذلك . . . لأنهما رسالة السماء لإنقاذ البشرية ، فقد كان المجتمع في حينه ولا يزال بحاجة إلى هذا النبع الصافي لتُزهر التربة بكل أنواع الخير : خُلقاً ، فضيلة ، كرامة ، وعيشاً رغيداً من أجل رفعة الإنسان وإبراز طاقاته الخلاقة في بناء مجتمع صالح . .

ولم يكن الإمام الحسين عليه السَّلام ، إلا ذلك الامتداد الثَّرُّ لرسالة جدِّه رسول الإنسانية محمد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، ومن أجل تقويم تلك الرسالة نهض بموقفه المضحِّي لتصحيح مسار الأمة الذي انحرف نتيجة تحرك الفئة الضَّالة لاجتثاث تلك القيم الإنسانية التي جاء بها محمد رسول الله (ص) .

وكان تماماً ذلك الموقف الذي برز بقيادة المسيح (ع) من قبل لأجل تدعيم كلمة الحق في مجتمع تغلغل فيه الجهل ، وانتشر فيه الظلام ، فكان ما كان من تعنتٍ وتطاولٍ على كرامة الرسالة السماوية . . فكادوا أن يغتالوا الشمس والحق ، ولكن الله رفعه إلى سمائه حماية لإنسانه الخالد . .

هذا هو المسيح . .

والحسين عليه السَّلام بمسيرته الفدائية قد صافح السَّيفَ ، وعانق الرِّماح ، وأعطى القرابين تلو القرابين من أجل عقيدته ، وبذلك يكون قد نال القسط الأوفرَ من الفداء والتضحية ، من يوم إسماعيل ، حتى عهد المسيح .

لذلك « **لم تحظ ملحمة إنسانية في التاريخين القديم والحديث بمثل ما حظيت به ملحمة الاستشهاد في كربلاء من إعجاب ودرس وتعاطف** » ، هكذا يقول الكاتب الفاضل « **أنطون بارا** » في كتابه « **الحسين في الفكر المسيحي** » ، ويصفها بأنها « **الأولى والرائدة والوحيدة والخالدة في تاريخ الإنسانية مذ وجدت وحتى تنقضي الدُّهور ، إذ هي خالدة خلود الإنسان الذي قامت من أجله** » .

إن العقيدة تصهر الإنسان لدرجة تجعله وحدة متلاحمة مع معاني الكمال والسمو ، بحيث لا يمكن الفصل بينهما ولو بحدود شعره .

وليس كبيراً على الحسين بن علي « ع » رائد الإنسانية ومثلُها الأعلى ، أن يكون صاحب ثورة أولى ورائدة ووحيدة وخالدة ، بعد محمد وعلي عليهما الصَّلاة

والسَّلام .

والحسين من محمد ، كالرُّوح من الجسد ، والحسين من علي ولده الذي حمل كل خصائصه ومقوماته الرائعة منذ أول يوم لامست عيناه نور الوجود ، فالعقيدة مصبٌ زاخر يبدأ من محمد لعلي ثم الحسين ، فإذا كان في هذا الامتداد ، فهو من الرسالة الإسلامية . . ذلك اللبُّ الأصيل ، وإذا كان ذلك اللُّب الرسالي الإسلامي الأصيل ، فهو لا يختلف عن اللُبِّ الرسالي المسيحي ، المسيح .

إنها حلقة واحدة وإن تطاولت العصور ، فهي من الله دعوة لهداية البشر . .

ويمرُّ زمان ، ويأتي من تهمُّه هذه الحقيقة ، ليشبك الروافد الرسالية في مصبٍّ واحد .

فإذا كان الأُستاذ جورج جرداق قد كتب بالأمس عن النبعة الصافية – الإمام علي – لعقيدة السَّماء ، ليؤكد على هذا الارتباط بين المسيحية والإسلام ، جاء اليوم الكاتب الأديب « **أنطون بارا** » يمدُّ الشراع ويسيرَ نحو هذا المصب ، ويكتب في ثورة الحسين من خلال مِظلَّة الفكر المسيحي ، فشكراً وألف شكر لمن يقوم بتوثيق الأواصر ، وتدعيم المحبة والإلفة بين أنصار السَّماء .

والكتابُ حاز على إعجابي من خلال قراءتي له ، وإن كنت أقف منه في بعض النقاط موقف الملاحظ ، ولكن لا أرى المجال لذكرها نظراً لعدم تأثيرها على شعوري بقيمة الكتاب ، أسلوباً ومضمونا .

وأخيراً ، أرجو للكاتب كلَّ الخير والموفَّقيَّة في محاولته المبدعة ، مبتهلاً إلى الله أن يدفع لنا بالنِتاج تِلو النتاج في هذا المضمار .

وهو ولي التوفيق .

*** محمد بحر العلوم – الكويت**

في : ٢٣/ شوال – ١٣٩٩هـ – ١٤/ ٩/ ١٩٧٩م

مقدّمة المؤلّف

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الثورةُ التي فجَّرها الحسينُ بنُ علي ، عليه وعلى أبيه أفضل السَّلام ، في أعماق الصدور المؤمنة والضمائر الحرَّة ، هي حكاية الحرية الموءودة بسكين الظلم في كلِّ زمان ومكان وُجد بهما حاكم ظالم غشوم ، لا يقيم وزناً لحرية إنسان ، ولا يصون عهداً لقضية بشرية ، وهي قضية الأحرار تحت أيِّ لواء انضووا ، وخلف أيَّة عقيدة ساروا .

هذه الثورة التي استلهمتُها عنواناً لمؤلَّفي هذا في طبعته الأولى ، كان حرياً بها أن تظل هكذا عنواناً للطبعات التالية ، مادام الحديث عنها (كثورة) يعنى الحديث عن شخصيَّة مفجِّرها « ع » ، إذ أنها تمثّل خُلاصات ونتائج أفكار وأفعال وتحركات رافع لوائها .

وبمعنى أدق ، هي مرآة لشخصيته ، وترجمة لمبادئه ومُثُله ، وأيُّ تطرُّقٍ لها كثورة ، هو تطرُّقٌ لشخصية الحسين « ع » ، وفي المقابل فأيُّ تطرُّقٍ لشخصية الحسين ، هو تطرُّقٌ لثورته . فتكون بذلك هذه الثورة ، هي الوجهُ الآخرُ لشخصية

صاحبها ، وتكون شخصية صاحبها ، هي الوجهُ الآخر لها كثورة .

وقد رأى بعضُ المتنوِّرين فكرياً ، بأن سطور الكتاب تحدثت بإسهابٍ عن شخصية الحسين « ع » ، وحلَّلت أفكاره ومبادئه وخططه وأهدافه ، المرحلية الآنية منها ، والمستقبلية . . فكانت الشخصية هي المبرَّزة بما تُمثِّله من مُحصِّلة المبادئ ، إذ منها انطلقت الأفكار والمثل ، وفيها اختمرت المبادئ ، وفي أعماقها ربضت كل المُوحيات التي أَبرزت إلى النُّور ما ظهر ، سواءٌ ما كان منه قولاً ، أو فعلاً ، أو مبدأ ، أو - ثورة - كفكرة ، وكفعل ، وكمعاناة ، وكهدف آني ومستقبلي،وبالتالي كخطوة لها طابَعٌ مادي بطولي ، يتَّصل بجانبه الماديِّ هذا ، بما تعارف عليه البشر من **أفعال** ماديَّةٍ بشرية صرفة . وفي هذا تعلَّة الثورة التي جمعت كل « **الـمُمكنات** » في ثناياها ، الممكنات : **الروحية** ، **والزمنية** ، **والإجتماعية** ، **والمادية البطولية** .

لذا فمن منطلق هذه الرؤية الفكرية لمجمل شخصية الحسين « ع » تكون ثورته جزءًا من تكوُّنِ هذه الشخصية ، ومن ثَمَّ فهي مرحلة من مراحل سيرِ مكوِّناتها وتأثيراتها ، بما تحمله من أفكارٍ ومبادئ ، حيث بدأت وانتهت في إحدى مراحلها ، واستمرت في سيرها خالدةً إلى أبدِ الدهور في مراحلها الأخرى .

فكان حريًّا وقد تناولنا شخصية الحسين بما احتوته من أفكار ومبادئ وأعمال - **والثورة جزء منها** - أن تكون هذه الشخصية هي محور البحث ، وعنوان السيرة والثَّوره معاً ، واعتبار الثَّورة جزءًا من الشخصية الشاملة ككل ، مما يجدر معها أن تكون الشخصية هي الواجهةُ ، لا الثورة التي هي جزءٌ من مقوِّمات ومحصِّلات الشخصية . وبالتالي يكون الحسين « ع » كممثِّل لهذه الشخصية ذات الخصائص والميزات القُدْسيَّة والبشرية الفريدة في بابها . . عنوان ثورته ، لا ثورته الخالدة هي عنوان شخصيته العظيمة ، مما يجعل من عبارة « **الحسين في الفكر**

المسيحي » التسمية الأكثر جدارة في هذا المعنى .

وإذا كُنيتِ التسمية بشخصية الحسين دون ثورته في الشق الأول من عنوان الكتاب ، فالأحرى (**كما طالب البعض**) أن تَحُلَّ في الشق الثاني منه كلمة « **إنساني** » بدل « **مسيحي** » فيصبح العنوانُ معها « **الحسينُ في الفكر الإنساني** » .

وهي فكرةٌ صائبة ، وتسميةٌ في محلِّها ، على اعتبار أن ثورة « **سيد الشُّهداء** » كانت ثورةً إنسانية في مُفرد ميزاتها وفي مُجملها ، وأخذِها من وجهة نظر مسيحيَّة بما يخدم البحث المقارِن الذي هو موضوع الكتاب ، يصلح تقديمه كمثال على إنسانيَّة هذه الثَّورة ، أكثر مما يصلح قصره على هذه الوجهة ، وبأخذنا لها من زاوية الفكر المسيحي ، نكون وكأننا ننظر إليها من زاوية الفكر الإنساني ككل ، لأن الفكر المسيحي ماهو إلا جزء من الفكر الإنساني ، ولأن المسيحية ماهي إلا مرحلة من مراحل المدرسة الإلهية التي تكوِّنُ الدينَ الواحد ، هذا الدين الذي جاء للبشرية عبر مراحل متعددة ، فكان أدواء لعلَلِها الإجتماعية والزمنية ، إتخذ عبر مراحل التاريخ ، منحىً متدرجاً ، فكان الطابعُ الغالب على الرسالة « **الموسويَّة** » طابع **الآلهة** القومي ، حيث نشأت فكرة شعب الله المختار . وعلى الرسالة « **العيسويَّة** » طابع **الآلهة** العالمي غير المتحرر من المادة وهذا ما تشير إليه مسألة الأبوَّة والبنوَّة والتَّثليث . بينما وصل الخط البياني للتوحيد في الرسالة المحمديَّة إلى الذروة « **قُل هو الله أحد ، الله الصَّمد ، لم يَلد ولم يُولد ولم يكن له كفؤاً أحد** [1] » .

وهكذا كان الإسلام خاتم الديانات ، والرسالة المحمديَّة خاتمة النبوَّات « **اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ، [2] » لذا

---

(١) الآيات « ١ - ٢ - ٣ - ٤ » . من سورة الاخلاص

(٢) الآيات « ٣ » من سورة المائدة .

فمنطق الإيمان الكلي بالدين الواحد ، يقضي بألاَّ يصحُّ إسلامُ المسلم ، حتى يَتنصْرنَ ، ولا تصحُّ نُصرانيَّةُ المسيحي ، حتى يَتأسْلمَ ، فدين الله واحد ، وهدفه صناعة الإنسان .

من هذا المنطلق تكون رؤيا الفكر المسيحي لشخصية الحسين وثورته ، هي ذات رؤيا الفكر الإنساني لها ، وما تحديد التسمية في عنوان الكتاب ، إلا نوعٌ من إغناء البحث ، وذلك بحصره ضمن حدودٍ يمكن الإستشهاد بها ، ومقارنتها ، والانطلاق منها بشكل مستوف .

لذا فإن في بحث رؤيا الفكر المسيحي لثورة الحسين ، دِلالة كافية على إنسانية هذه الثورة ، مما لايجعل بقاء الشق الثاني من العنوان كما هو ، أمراً يدعو إلى الدهشة ، فالفكر المسيحي هو قاسمٌ مشترك للفكر الإنساني ، وجزء لايتجزأ منه ، يشترك معه في سُداه ولُحمتِه ، وفي تطلُّعنا إلى ثورة سيد الشهداء من كوَّةِ هذا الفكر ، نكون كمن نتطلَع إليها من كُوى الفكر الإنساني كلِّه ، لأن هذه الثورة إنسانيةٌ أولاً وآخراً ، ولأن الإنسانية جمعاء تشترك في دين واحد يرتكز على ثوابت إلهيةٍ واحدة ، لا تتبدَّلُ بتبدُّلِ الديانات ، وبأساليب الإيمان بها ، هذه الأساليب التي تدخل في المجال الحيوي للعقل البشري . . « **شرَّع لكم من الدين ما وصَّى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصَّينا به ابراهيم وموسى وعيسى إن أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا فيه** [1] » .

وإذا كان الشيُ بالشيُ يذكر ، فإن أول مايتبادر إلى ذهن القارئ ، سواء أكان مسيحياً أم غير مسيحي ، لدى قراءته للكتاب ، هو كيف أمكن الربط بين ثورة الإمام الحسين ، وبين فكر أهل الكتاب . . . ؟ إذ لم يسبق هذا الربط أي اهتمام

---

(١) الآية « ١٣ » من سورة الشورى .

فكري مسيحي بعَلَمٍ من أعلام الإسلام ، كي يأتي هذا الكتاب لِيُكمِلَ اهتمامات سابقة بهذا الصدد .

وكان مكمن الغرابة في كون مؤلِّفِ الكتاب الفقير لله « **مسيحياً عربيا** » فكانت هذه الصفة مكمناً إضافياً لجِدَّة البحث ، ودافعاً للاطلاع عليه حتى آخر سطرٍ منه ، بهدف الوقوف التام على ما يمكن أن يضيفه هذا الفكر على ملحمة استشهاد الحسين من أبعاد جديدة .

و « **الأبعادُ الجديدة** » في رأي البعض ، هي في النظر لملحمة كربلاء من وجهة نظر مسيحية لكاتب مسيحي عربي ، لاهو بمسلم كي يُقال بأنه متأثر عاطفياً بالفاجعة التي وقعت فوق ثرى الطَّفْ ، ولاهو بمستشرق صاحب فكرٍ غربي ينظر إلى التاريخ الإسلامي نظرته إلى أيّة مرحلةٍ تاريخية أخرى ، لا تُخْشِعُهُ خلالها أية قُدْسية من قُدْسيات آل البيت « ع » ، فلا يرى من خلال عدم الخَشْية هذا . . إلا الجانب التاريخي السَّردي ، مُهمِلاً عن عمد أو جهل ، الكثير من المقوِّمات الروحية والإلهية للحركة ، من جانبها العُلوي القُدْسي ، مُجرِّداً إياها من أهم ماتملك ، ومن أكبر أهدافها التي هدفتْ .

فالفكر المسيحي العربي يقدِّس آل البيت « ع » كما المسلم ، وفي أخذه لأية حادثة تاريخية تختص بالعالم الإسلامي الذي يعيش فيه ، يهدف إلى الحِيدةِ ، مُبتغياً الواقع ، باحثاً عن المنطق والرؤى العقلانية السليمة، وهي صعوبة تتكاثف على قلم غير المسلم ، الذي تحكم حِيدته إعتبارات كثيرة ، ولا يحتمل الزلل لأقل هفوة ، ولا يُقبل منه الشطط أو التطرُّف ،ولا تَسمح له الأدبيات الفكرية بإبداء ما يخالف الحقيقة ، ومما ينفر منه العقل الآخر الذي يخاطبه .

وفي هذا حُجَّة ، وللحُجَّةِ سبب ، بل جملة أسباب ، منها أن الفكر المسيحي العربي يستمد تراثه الفكري من تراث عربي إسلامي ، ويتعرض لنفس التيارات

الفكرية والروحية التي يتعرض لها ، ويعي كل حادثة تاريخية نتيجة تشربه لها في المدرسة ، أو زيارته لأماكنها ، أو لاتصال ظواهرها به ، إن في الانسان ، أو الجماد ، أو التراث ، بينما لا يملك الفكر المسيحي الغربي الخشية والإحساس الورِعَ بقيمة الشخصية القُدْسيَّة التي يتناولها ، فإذا ذَكر النبي محمد « **ص** » لا يهمه كثيرا وضع ُكلمة « **صلَّى الله عليه وسلَّم** » وإذا ذَكر أحداً من آل البيت ، لا يؤثمه عدم وضع كلمة « **عليه السَّلام** » .

هذا الفارق بين التمثُّل القُدسي ، وعدمه . . فارقٌ له أهميته في أخذ الحادثة التاريخية للعالم الإسلامي ، وهو فارقٌ كبيرٌ في صِغره المتناهي في ميزان النتيجة ، وصغيرٌ في انعكاساته الفكرية في ميزان الكيفية .

وشتّانٌ بين كِبرَ خطر النتيجة ، وبين تفاهة صِغر الكيفية خلال مسارِ الأمور .

هذه الغُرابة ، وهذا التوقُّع والترقُّب لما هو مُحتمل في جدَّته . . عوامل نفسية وفكرية من الممكن أن تعتمل في ذهن أي قارئ حيال أَثر ما يربط بين الفكر الإسلامي ، وبين فكر أهل الكتاب .

وبالمقابل فإن ما يشبهها بشكل أو بآخر ، يعتمل أيضاً في ذهن المفكر المسيحي الذي يتناول فكرياً عَلماً من أعلام الإسلام ، ويدفعه للتساؤل عن مسبِّبات هذه الغفلة التي يرتع فيها الفكرُ الإسلامي ، مما يدمغه بصفة التقصير عن دراسة شخصية مثل شخصية الحسين ، دراسة وافية منصفة ، وتقديمها للعالم المسيحي ، الغربي والعربي ، كواحدة من أنصع الصفحات بياضاً في تاريخ الإسلام .

فشخصية الحسين محيطٌ واسع من المُثُلِ الأدبية والأخلاق النبوية ، وثورته فضاءٌ واسع من المعطيات الأخلاقية والعقائدية . ولعلّنا نتمثلُ أهمَّ سِمَةٍ من سمات العظمة في هذه الشَّخصية ، من قول جدِّه الرسول « ص » : « **حسين مني وأنا من**

حسين » فارتقت إنسانية السبط إلى حيث نبوّة الجد « **أنا من حسين** »[1] ، وهبطت نبوّةُ الجَّدِ إلى حيث إنسانية السبط « **حسين مني** » ، وفي هذا المعنى يقول السيد الطباطبائي :

غـرس سـقـاه رسول الله من يـده
وطاب من بعد طيب الأصل فارعُهُ

وإذا كان العالم المسيحيُّ الغربيُّ له مآخذ على الإسلام ، فإنما ينظر إلى هذه المآخذ من كُوَى مثالب عهود بني أميَّة ، والتشويهات التي استهدفت أُمة الإسلام فيما بعدها ، حيث نظر الحكام إلى الدنيا والمُلْك بالشكل الذي صوَّره « **معاوية** » بعد احتلاله الكوفة ، إذ قال : « **إنِّي لم أُقاتلكم لكي تُصلُّوا أو تَصوموا . بل قاتلتُكُم لكي أتأمَّرَ عليكم** »

هذه النظرة المغلوطة من زاوية الماديات الصرفة إلى امور الدنيا وقضايا الحكم . . كان أبو « **سفيان بن حرب** » قد نظر من خلالها يوم فتح مكة إذ قال **للعباس عمَّ الرسول** « **ص** » جملته الممثلةِ خير تمثيل للمبدأ النفعي الذي كان مسيطراً على العقول

آنذاك : « **لقد أصبح ملك إبن أخيك عظيما** » فكان في قولته لا يرى من جهاد الرسول الكريم ، سوى ذلك المغزى الدنيوي « **الغَلَبَة والعَظَمَة** » ، أما تعبيدُ الخلق للخالق . . وتنفيذ إرادة الله في خلقه ، فلم تَبُنْ لناظره ، ومثلُه لا يفهمها « **فما يعقلها إلاَّ العالمون** » .

هذا هو المظهر الخارجي لجوهر الصراع الذي استشرى بعد ذلك بين أهل بيت رسول الله « **ص** » وبين ذريَّة أبي سفيان . أهل البيت يرون أن الخلافة مركب يقود

---

(١) أنظر الإمام الحسين للشيخ عبدالله العلايلي ٢٩٠

إلى الآخرة وفق أحكام الله ، وبنو أميَّة يتطلعون إليها باعتبارها مركباً يقود للجاه والسُّلطان وانقياد الدنيا وفق أهواء النَّفس ومطالبها . وبين أحكام الله ، وبين أهواء النفس ، حدث الإنقسام المريع في جسد أمة الإسلام ، والتفَّ الأبناء حول الرَّمز الأقرب لما تهيأت له أنفسهم « **منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة** [1] » .

وهكذا ، فالفكرُ المسيحيُّ الغربي لا يعي هذا التناقض الصارخ بين الحق المقهور ، وبين الباطِل المنتصر ، ومتى فُقِد هذا الوعي تجرَّدت الحوادث التاريخية من أهم عناصرها .

لذا فقد رأى المستشرقون في حادثة الطَّفِّ – إنطلاقاً من هذا التجريد – موقعة عسكرية تغلَّبت خلالها الكَثرةُ على القِلَّة ، والتنظيمُ على الارتجال ، غير ملتفتين إلى اختيارات العناية الإلٰهية وسرها وتدخلها في هذا الحدث الجذري في المسيرة الروحية والتاريخيَّة لأمَّة الإسلام ، ولدين الله الكلِّيِّ الوحدانية .

من هنا يبرز دور الفكر المسيحي العربي في تمثيل الحيادية الصرفة ، مُحِلاً الرؤية الموضوعية ، محلَّ تلك العاطفية منها ، والمتجنِّية على السواء .

لكن هذا الدور تحكمه حساسية فائقة حيال آلاف الشروحات والتفسيرات للحادثة ، وكثرة الأسانيد واختلاف الروايات ، وهنا مكمن الصعوبة ، حيث يتجلَّى دور البصيرة النافذة للقيام بعملية غربلة حذرة لمئات من هذه الروايات ، واختيار للأسانيد الموثوقة ، ثم القيام بعملية تكريسيَّة نهائية لا تقلُّ صعوبةً عن عمليتي الغربلة والانتقاء ، يلعب فيها الحَدْس والخلفية الثقافية والرؤية العقلانية المحايدة للكاتب ، أدوارها ، قبل أن يُقرِّب قلمه ويؤشِّر على إحدى الروايات الأقرب إلى العقل ،

---

(١) نص الآية « ١٥٣ » من سورة آل عمران

والمنسجمة مع الحدث العام ، والمتناغمة مع إيقاع الأحداث ، لذا فإن معادلة « **كل ما يقبله العقل مقبول** » تظل رافعة أشرعتها خلال البحث ترقب تحركات القلم ، وترصد حياديته ، بل وترغمه في أحايين كثيرة على نزع حالات شطط وتطرف لإبراز موضوعية الأحداث ، والحفاظ على حيادية العمل .

وإذا كانت الحساسية التي تواكب قلم الكاتب غير المسلم لدى تناوله لسيرة علم من أعلام الإسلام ، مضاعفة . . فإنها سوف تتضاعف أيضاً لدى القيام بعملية الربط بين المواقف المتجانسة والأهداف المشتركة بين نبيٍّ ونبي ، وشهيدٍ وشهيد . سيما إذا لم يسبق هذا الربط ربط مماثل يقرب منه أو يبعد ، يشبهه أو يكاد ، فتكون البداية في هذا الصدد ، محط اهتمام الكثيرين ، ويكون البادئ محل هذا الاهتمام أيضاً ، مضافاً إليه النقد والاستحسان أو الاستهجان .

ولعل هذا المؤلَّف لم يسلم من هذا النقد ، كما لم يُحرم من هذا الاستهجان والاستحسان ، شأنه شأن أي عمل طابعه الجدَّة . ولكن العامل المتكل على الله في عمله . لا يعدم الاحساس بالرضى عن عمله مهما قُوبل بالنقد ، إيجابياً كان أم سلبياً « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ، والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** »(١)

أسوق هذه التهيئة البسيطة في متن هذه المقدمة للكتاب ، والتي لا يصح سوق مثلها في المتن بعد تجاوز بداية المقال ، لأصل إلى مدخل الفصل الأهَمِّ من الكتاب ، والذي يمثِّل « **الحساسية** » التي عنيتها تواكبُ قلم الكاتب ، فأشير إلى أن فصل « **المسيح . . هل تنبأ بالحسين . . ؟** » قد أثار اهتمام الكثيرين ، واستأثر دون الفصول الأخرى بجُلِّ النقد والاستحسان وكذلك الاستهجان ، ودارت حوله

---

(١) الآية « ١٠٥ » من سورة التوبة

المناقشات والتساؤلات ، سيما حول خطبة عيسى في تلاميذه قبل توجُّهه للموت ، وماعنته في كلماتها القليلة من معانٍ ، عمدت إلى تفسيرها بالشكل الذي أُلهِمتَه ، وبالكيفية التي تَرمي لها هذه المعاني في حقيقتها ، مُستنداً في ذلك إلى حُجج دامغةٍ أوردتها في متن الفصل المذكور إياه ، وسأضيف لها بعض التفاسير والتحليلات الأخرى ضمن هذه المقدِّمة :

قال عيسى « ع » في إنجيل يوحنا [1] :

« إني ذاهب الأن إلى الذي أَرسلني
وما من أحد منكم يسأَلني : إلى أين تذهب . . . ؟
غير أني أقول لكم الحق
من الخير لكم أن أمضي
فإن لم أمض لا يأتِكُم المؤيِّد
أما إذا مضيتُ فأُرسله إليكم
ومتى جاء أخزى العالم على الخطيئة والبر والحكم » .

وقد تركَّزتِ المناقشات والتساؤلات حول ثلاث نقاط :

أولاها : من المقصود بالمؤيِّد . . أليس الرسول محمد « ص » هو الجديرُ بهذا القصد . . . ؟

وثانيها : الحسين شهيد وليس بنبي . . فكيف يتحدثُ عيسى عنه ، بينما لم يلمِّح إلى قدوم الرسول « ص » من بعده ، مع أنه نبي . . ؟

وثالثها : لقد فُسِّرت كلمة المؤيِّد في الإنجيل تحت معنى « **الروح القدس** » فكيف

---

(١) يوحنا : ١٦/٥-٧-٨

احتملت اللفظة هذا التأويل المغاير الذي لم يُقرأ إلا في هذا الكتاب . . ؟

وهنا يجدر بنا الوقوف لتوضيح أمرٍ لطالما تعامى عنه الغلاةُ المتطرِّفون ، ولازال يشكل عقبة كأداء أمام منوَّري القلب والفكر من العقلاء ، أمام انطلاق أفكارهم وقناعاتهم المؤمنة ، بأنه مامن نبي إلا وتنبَّأ مبشِّراً بقدوم نبي بعده ، ومامن شهيد إلا وتنبأ أيضاً بالشَّهيد الذي سيليه ، ولم يكن عيسى « ع » ليشذَّ عن هذه الحكمة الإلهية ، لاتغافلاً عن تبشير الناس بقدوم النبي محمد « ص » ولا كُرهاً لهذا التبشير أو هذا القدوم ، « **حاشا لله** » وعيسى رسول المحبة والسلام ، والمبشِّر بالحب حتى للأعداء والمبغضين ، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بنبي بعده ، ختم الله به الأنبياء ، وبرسالته الديانات ، وكان على هذا القدر العظيم من الشمائل النبوية ، والخُلق الكريم . . . ؟

وللإجابة على مُجملِ التساؤلات يستحسن إعطاء نُبذة عن نشأة الأناجيل الأربعة ، والتي سار ويسير على تعاليمها العالم المسيحي ، ولنحدد أكثر - المسيحي الكاثوليكي - التابع لسلطة البابا في روما .

فالإنجيل المقدس عُرِّبت لفظته إلى العربية من كلمة **EÚAYYEΛÌOV**[(١)] اليونانية ، وهي تعني « **البُشرى الحسنة** » ثم أُطلقت على الكتاب الذي يحتوي هذه البُشرى ، وهو مجموع الأسفار الإلهية التي كُتِبتْ بإلهام الروح القدس خلال الحِقبةِ الزمنية الممتدة من القرن السادس عشر قبل المسيح ، حتى آخر القرن الأول بعده ، وإن كانت لفظة « **إنجيل** » هي كتاب القرن الأول قبل المسيح . فإن كتاب القرون التي سبقت

---

(١) تمهيد أ وما بعدها العهد الجديد ، المطبعة البولسية .

السنة الميلادية، دُعيَ بـ «**الكتاب المقدس**» وهو ينقسم إلى عهدين: «**القديم. والجديد**[1]» الأول يحتوي على الأسفار التي أُنزلت قبل السيِّد المسيح وعددها **٤٦** سفراً، وتنطوي على تاريخ وشعر وحكمة ونبوَّة، والآخر يتضمن الأسفار التي أُنزلت بعد ظهور المسيح، وفيها خُلاصة حياته المقدَّسة، وتعاليمه السَّامية، وعددها **٢٧** سفراً. فكان الكتاب القديم تمهيداً، والجديدُ تحقيقا.

والإنجيل وضعه رسولان، هما متىَّ ويوحنا، وكلاهما عاينا وسمعا وعاشا ولمسا حياة المسيح عن قرب، وتلميذان، هما مرقُس ولوقا، وكلاهما رفيق حميم، الأول لبطرس، والآخر لبولس، وهما اللَّذان تلقَّيا الخبرَ عن رفيقيهما.

وعلَّـةُ الاختلاف الظاهر في أسلوب تدوين الروايات بين الأناجيل الأربعة، ترجع إلى ظروفِ المكان والزمان الذي كُتبتْ فيه من قِبَلِ التلاميذ. فمتَّى كتب إنجيله لليهود باللغة الاراميَّة، وقد فُقدت هذه النسخة بعد أنْ تُرجمت إلى اليونانية، وقد غَلَبَ على رواية متَّى اللغة الثقافية لأنه كتبها للمثقَّفين، والبرهان على ذلك أنه كتب الكلمة الوضعية على الصَّليب، بثلاث لغات، وهي: **العبرية، واليونانية، والرومانية**. والتي تقول: «**يسوع ملك اليهود**». وقد أظهر الكاتب لليهود أن المعلِّم الإلّهي هو **الماسيَّا** المنتظر، إذ به تمَّت نبوءات العهد القديم وتحققت رموزه، فأكثر في إنجيله عبارة: «**كما ورد في أشعيا وأرميا والأنبياء**» أو «**وهكذا تمَّت الكلمة التي قِيلَت بيسوع**»،

كذلك لم يكن متَّى ليحرص على تسلسل الحوادث التاريخية، فكان يجمعها

---

(١) العهد الجديد أ تمهيد ط البولسية

جمعاً بدون هذا التسلسل إذ كان المُهم عنده إبراز الموقف بِغضِّ النظر عن توقيته الزمني ، ويُقال إنه ترجم إنجيله إلى اليونانية بنفسه .

أما مرقُس تلميذ بطرس ، فقد وجَّه إنجيله إلى الرومانيين باللغة اليونانية ، ولأن هذا الشعب مغرم بالقُدرة والعظمة ، فقد أوقف وصفه على ما يُظهِر وجه المسيح من هذا القبيل ، وهو ينقلُ عن بطرس ، وفي إنجيله تركيزٌ على المعجزات التي اجترحها المسيح ، مع أنه لا يأتي على ذكر بطرس شخصياً .

أما لوقا تلميذ بولس ، فكان مثقَّفاً وطبيباً ومصوِّرا وخبيراً ضليعاً باللغة اليونانية ، وقد وجَّه إنجيله خصِّيصاً لليونانيِّين والرومانيِّين المتنصِّرين حديثاً ، فأبان لهم أن رحمة المخلص – المسيح – لم تنحصر في فئةٍ من الناس دون أخرى ، وكان لا يهتمُّ بالتفاصيل التي أوردها غيره في أناجيله ، وهو الذي ألَّف أعمال الرسل ، وكان يوجِّه كلامه لـ « **تيوفيلوس** » بكل الأمور التي جاء بها المسيح . . مبتدئاً كلامه بعبارة : « **سأحكي الحقيقة وليس كما زادوا عليها** » ، وقد انفرد إنجيله بإيراد أمثال الرحمة ، كالخروف الضال ، والإبن الشَّاطر ، حتى دُعيَ بـ « **إنجيل الرحمة** » .

أما يوحنا فقد كتب إنجيله بعد مائة سنة من المسيح ، لذلك اختلف عن الأناجيل السابقة ، وقد كتبه باليونانية ليُحاجَّ دعاة الضلال المتنكرين لناسوت المسيح أو لاهوته [١] ، وحرص على التسلسل التاريخي أكثر من غيره ، وهدف به كل المسيحيين حيث حلَّق بالفلسفة كثيراً ، وهو المتأثِّر بفلسفة اليونان ، وبالكلمة . لذا فقد بدأ إنجيله بعبارة : « **في البدء كان الكلمة** » ، وفي عهده انبثقت فئة أسمت نفسها « **النقلاويُّون** » أنكرت ألوهية المسيح ، كما نشأت على عهده قصص شعبية

---

(١) الناسوت : طبيعة المسيح البشرية ، واللاهوت طبيعته الإلّهية .

وخيالية ، وأُلِّف إنجيل دُعيَ « أبو كريف » وبدأت الأناجيل تكثر منذ عهده .

والإنجيل الذي نتلوه اليوم ، منقول عن المخطوطات الكبرى على الجلد التي تعود إلى القرن الرابع ، منها المخطوطة الفاتيكانيَّة ، وقد نُسخت حوالي سنة ٣٤٨ م ، والمخطوطة السِّينائية وقد نُسخت حوالى ٣٣١ ، والمخطوطة الاسكندريَّة التي تَرقى إلى القرن الخامس ، وهناك مخطوطة رابعة معروفة بالأفرامية ، لأن نصَّ الكتاب والإنجيل قد مُحيَ وكُتب عليه مواعظ « مارْأفْرام » وقد تمكَّن العلماءُ من إبراز النَّص الأصلي وقراءته ، ويُوجد أيضاً مخطوطات أخرى نُسخت مابين القرنين الرابع والعاشر وهي نحو أربعين ، وهناك أيضا نحو ثمانية آلاف مخطوطة صغيرة .

ففي الفاتيكان والمتحف البريطاني وباريس يُوجد ثلاثة مخطوطات أصليَّة ، وقد اكتشف « شتربيتي » مجموعة تشتمل على جزء كبير من الأناجيل ، وهي ترجع إلى القرن الثالث ، وفي سنة ١٩٥٦ إكتشف « مارتان بودمير » أوراق بردي تتضمن إنجيل يوحنا كاملاً مع أجزاء من إنجيل لوقا ، وهي تعود إلى أواخر القرن الثاني ، كما اكتشف « جون رايلايد » أقدم مخطوطات البردي المحتوية على قسمٍ من الفصل الثامن عشر من إنجيل يوحنا ، وجده في صعيد مصر ، وهو يَرْقَى إلى النصف الأول من القرن الثاني .

أما أقدم المخطوطات العربية لترجمة الكتاب المقدَّس ، فموجودة الأن في « دير سيناء » ، منها مخطوطة أعمال الرُّسُل والرسائل الجامعة ، وهي من القرن الثامن م ، ومنها مخطوطة المزامير بالخطِّ الكوفي مع النصِّ اليوناني ، وهي من العام ٨٠٠ م ، وهناك عدد من مخطوطات الأناجيل الأربعة ترجع كلُّها إلى القرن التاسع ، ومخطوطةٌ للرسائل وسفرِ الأعمال وقد ذكر ناسخها تاريخ نسخها وهو عام ٨٦٧ م ، كما أن هناك بعض أسفار الأنبياء ، وأيُّوب ، ترجع إلى القرن التاسع

م ، وفي دير سيناء مخطوطة للتوراة من القرن العاشر ، كما وجُدت ترجمات قديمة إلى العربية يرجع عهدها إلى ما قبل الإسلام حيث كان المسيحيون العرب في اليمن وبصرى إسكي شام يتعبَّدون بها .

أما الأناجيل الأربعة فقد تُرجمت للعربية منذ عهد « **يوحنا الثالث** » بطريرك السريان الأنطاكي « **٦٣١ - ٦٤٨ م** » وطُبعت لأول مرة في رومية سنة **١٩٥١** وقد ظهرت ترجمات عربية عصرية كاملة منذ عام **١٨٦٥** في ثلاثة مجلدات كبيرة حققها الآباء اليسوعيون اللبنانيون .

وأخلُصُ بعد هذا العرض إلى فكرة أن الأناجيل الأربعة التي وضعها الرُسلُ المذكورون ، كانت صريحة وصادقة وأمينة ، ترجمت حياة المسيح بأكملها ، لكن ما طرأ بعد وفاة يوحنا ، زاد من عدد الأناجيل كثيراً . . إذ شوَّه البروتستانت بعض المرادفات ، وألغوا بعضاً منها ، وحوَّروا البعض الآخر بما يتَّفِقُ مع عقيدتهم ، وعلى سبيل المثال حذفهم كلَّ ما يَمَسُّ رئاسة بطرس للكنيسة الموحدة .

وفي العالم المسيحي الآن ألف طائفة للبروتستانتيَّة وحدها ، ولكلٍ منها إنجيل يختلف بشكل أو بآخر عن الآخر .

فقد جاء وقت كان ثمَّة فيه راهب يُدعى « **لوثيروس** » فتح عينيه على رجال الدين الكاثوليك يتاجرون بـ « **الغفرانية** » ويملِّكون أماكن في الجنة بموجب شهادات رسمية ، سميت وقتذاك بـ « **صكوك الغفران** » فأراد هذا الراهب أن يقوم بحركة إصلاح ، فانشق عن السدة البابوية ، ولم يُحاول البابا وقتذاك إصلاح الوضع الشاذ الذي أوجده رجال الدين من خلال بيعهم لصكوك الغفران . . وقد قيل في عصرنا هذا ، إنه لو انشق لوثيروس في عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين الذي تُوفي منذ عشر سنوات تقريباً ، لكان أَمر بإصلاح مثل هذا الخلل ، ولم يسمح بالانشقاق ، لكن المصالح الاقتصادية والأطماع المادية ، كانت تعصف برؤوس رجال الدين ، مما

جعل الإنشقاق أمراً حتميا .

وبعد لوثيروس ، جاء « **كالفِن** » ، وجاء « **المورمُون** » ، وجاء « **الباتيست** » ، و « **السَّبتيست** » ومذاهب إنشقاقية أخرى ، كلٌ منها تُحرِّف في الإنجيل بما يتفق ومعتقداتها الجديدة . فمنها ما ألغت الأسرار ، ومنها ما نفت القُدسية عن العذراء مريم « ع » ومنها ما حرَّفت الأحداث التاريخية كمسألة نوم العذراء في المغارة ، وزيارة المجوس للمسيح في المِزْود ، الخ . .

ولما استشرى الوضع وتفاقم الخلاف بين الكنائس المنشقَّة ، وكثرت الأناجيل حتى غدت بعدد الطوائف المبعثرة . . اجتمع المجمع المسكوني وقام بعملية غربلةٍ كبيرة إستبعد معها كلَّ الأناجيل التي صدرت بعد عهود التلاميذ الأربعة ، ومنها إنجيل « برنابا » الذي وصفه المجمع المذكور : « **بأنه كتب بيد مرتدٍّ عن النصرانية ، جدُّ خبير بالتوراة اللاتينية ، يصف فيه شتى نواحي الحياة الدينية والمدنية والتاريخية والجغرافية والاجتماعية ، في عهد المسيح ، على ما رأى بعينه في بيئته الإيطالية في القرن السادس عشر**[1] » .

إضافة لذلك كله أن يوحنا ذكر في نهاية إنجيله عبارة تقول : وقال المسيح خلال حياته كلاماً كثيراً لو جُمع لما احتوته أسفار » .

إذاً فنحن هنا أمام تعدُّد أناجيلَ كثيرة نُقلت من لغة إلى أخرى ، وكتبت في أزمان متفاوتة لِتخدم غايات معينة ، وحيال كلام كثير قاله المسيح ولم يُدوَّن . . فإلى أين تقود هذه التشعُّبات التي آلت إليها الأناجيل . . ؟

المسيح تفوَّه بكلام كثير . . فماذا قال ترى . . ولِمَ لمْ يُدوَّن قولُهُ كلُّه ، وهو

---

(١) العهد الجديد ج تمهيد ط البولسية

النبيُّ العظيمُ ، المنزهُ عن الخطأ والتكرار والتشابه في الأقوال والأفعال . . وما كانت ستضمُّ هذه الأسفار لو جُمعت كما ذكر يوحنا في نهاية إنجيله . . ؟ وما كانت ستضم أيضاً من صنائعه إضافة لأقواله كما جاء في يوحنا [1] إذ ذكر :

« **وصنع يسوع أيضاً أشياء كثيرة أخرى ، لو أنها كُتبت واحداً فواحداً لَمَا خلْتُ أن العالم نفسه يسعَ الصحف المكتوبة** » . . هل كانت ستضم من الأقوال والصنائع ، المتشابه والمكرَّرَ والمُعادَ من الكلام والفعل النَّبوي . . هذه الأقوال التي فاقت فصاحتُها كلَّ فصاحة ، وهذه الأفعال التي فاق إعجازها كلَّ إعجاز . . ؟.

وتلك الموجة العارمة من الأناجيل التي برزت ، والتي عُنيَ المجمعُ الكَنسيُّ بغربلتها ، ماذا أضافت للعقيدة المسيحية . . وماذا ألغت من قوانينها وأسرارها . . وما دورُها في إغناء أو إفقار التَّعاليم المسيحية من خلال انتشارها . . ؟

سؤال لطالما يردُ إلى أذهان الكثيرين في غياب أيِّ قبس مُدوَّن عن الكيفية التي تمَّت فيها عمليتا الغربلة والإقرار النهائي للأناجيل الحالية المُتداوَلة من قِبَلِ المجمع المقدَّس ، والتي لا يَرِدْ في متنها أو مقدِّماتها ما يُفسِّر ويُوضح الملابسات التي تعرضَّ لها الإنجيل حتى وصل إلى الأيدي بشكله الحالي .

ولكننا كمسيحيين مؤمنين ، لدينا غِنىً كاملٌ في قناعاتنا بأن الأناجيل الأربعة المُتداوَلةِ حالياً عن ألسِنَة التلامذة الأربعة ، هي الكتب الصَّحيحة والكاملة للمسيحية ، ولا ثقة البتَّة بأيَّة أناجيل غيرها ، وما تساؤلنا إلاَّ نوع من التعطش إلى الحقيقة والظمأ إلى المعرفة .

فإذا لم يكن في هذه الأناجيل إشارة واضحة لتنبُّؤ المسيح عن قدوم نبي من بعده

---

(١) يوحنا : ٢٠/٢٥

إسمه « محمد »، فما لا شك فيه أن هذا المعنى متضمناً إحدى آياته « ع » حيث لم تسعف القِوى التأمُّليَّة بجوهر ومعنى الدين الكلِّي الواحد ، عن عمد أو عن غير عمد ، بترجمة هذا المعنى ونحته من صُلب الآيات ، لأن رسول المحبة بشَّر وتكلَّم لا بشكل مباشر ، بل على سُنَّة الرموز والأمثال :

« **وبغير مثل لم يكن يكلِّمهم ليتم ما قيل بالنبي القائل . . « أفتحُ فمي بالأمثال ، وأذيع بالمكنونات منذ إنشاء العالم** ».[(١)]

وهكذا على هذه السُّنَّة شبَّه المسيح ملكوت السموات بالحقل المزروع بالحنطة ، وشبَّه معتقدات الفرِّيسيِّين والهيروديسيِّين ، بالخمير ، حيث نهى تلاميذه عنه بقوله : « **أنظروا ! إياكم وخمير الفريسيِّين وخمير هيرودس** » وهكذا . .

فالرسل والأنبياء والأوصياء والمصطفون والشهداء ، أعطاهم الله مَلَكة نورانيَّة تساعدهم على استجلاء الغيب واستشفاف المستقبل ، وفي الآية : « **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول** »[(٢)] دلالة على أن هذا العالم — **عالم الغيب** — تكشَّف على أوسع نطاق للأنبياء والمُرسلين ، فاستشفوا كل الأحداث التي ستليهم ، ما يتعلق منها بالأديان والمذاهب والمعتقدات ، والتاريخ والجغرافيا ، والحركات السياسية . . ولا بِدْع في هذا القول ، فمن يقرأ الكتب السماوية الثلاثة — خلا مزامير داود ونبوءات الرسل وأمثال سليمان — يجد أن أعظم الأحداث وأتفهها التي حدثت في الماضي ، ولا تزال تحدث في قرننا هذا ، والتي ستظل تحدث حتى انقضاء الدهور ، قد ورد ذكرها في هذه الكتب : **الوثنية** ، **سدوم وعمورا** ، **طوفان نوح** ، **ظهور الأديان** ، **عبور العبرانيين** ، **دمار أورشليم وتشتُّت اليهود** ، **خراب**

---

(١) متى : ١٣/ ٣٥ مز ٧٧/ ٢

(٢) سورة الجن

بابل ، مذبحة كربلاء ، فيضان النيل ، إختفاء الأتلنتيك ، ظهور إسرائيل ، براكين تركيا ، ظهور مادة النفط من باطن الأرض ، ظهور الدجَّالين بإسم الأديان ، سقوط عروش وممالك ، قيام نظم ، إختراع الطيران ، إكتشاف الذرَّة ، الصعود إلى القمر ، إكتشاف الكون ، تقدم الطب والعلوم ، الإلحاد . [1]

وإضافة لما عايشته البشرية حتى الآن من الأحداث ، فإن في طيٍّ هذه الكتب سجلاً كاملاً لأحداث ستلي خلال العقدين المتبقيين من القرن العشرين .

فإذا ما نظرنا إلى الإنجيل من هذه الزاوية ، نجده زاخراً بكل المعاني والنبوءات ، متضمِّناً كل استشفافات المستقبل حتى انقضاء الدهور . وعودة إلى الأناجيل بحثاً عن هذه النبوءات لتظهر منها الكثير في كل آية ، فالمسيح « ع » كانت له قدرة خصَّه الله بها دون سائر الرسل ، تكشف له الغيب حتى انقضاء الدهور . . فكيف بتلك الاستشفافات التي ستليه بعد خمسة قرون حيث كان مقرراً أن تنزل خلالها الرسالة السماوية الثالثة ، التي أكملت الرسالة الثانية ، والتي بشَّر « ع » بها . . وشابهتها في جلِّ تعاليمها ، وفي جوهرها السامي ، وبدعوتها إلى الحق الإلهي . . هذه التعاليم التي سحرت النفوس ، فاستهوتها ، حتى بلغ عددها منذ عهد النبي « ص » إلى وقتنا هذا ، معادلاً لعدد تلك الأنفس التي آمنت برسالة عيسى « ع » لأنها وجدت في رسالة محمد « ص » تتمَّة وخاتمة لرسالته « ع » فبلغ بها الكمال الإلٓهي حدوده العليا . . وارتقت وحدانية الله مداها من خلالها .

فكيف إذن لا يجد المسيحي المتفهمُ لروحيَّة الإنجيل ، أية إشارة متضمِّنة أو منحوتة من إشارة متضمِّنة إحدى الآيات ، لهذا الحدث العقائدي العميق الأثر

---

(١) الأسفار والمرائي والنبوءات

لملايين النفوس . . بينما نجد إشارات لأحداث بشرية ماديَّة عادية لا تبلغ مهما ارتقت مِعشارَ حَدثٍ نزول الرسالة المحمديَّة ، وانتشار عقيدة الإسلام فوق هذه الرقاع الواسعة من الأرض ، وترسُّخها في هذا العدد الهائل من النفوس البشرية . . ؟

وأنّا لواجدون في الإنجيل المقدس تلميحاً لنزول آيات الرسالة الثالثة ، إذ يقول السيد المسيح لبعض الفرِّيسيِّين : « **ما بال هذا الجيل يطلب آية ؟ الحق أقول لكم إنه لن يُعطى هذا الجيل آية** »[1] فمثل هذا القول يُشير إلى ترقُّبِ نزول الآية على الأجيال التالية التي ستُعطى هذه الآية ، وهذا الجيل لن يعايش المسيح ، بل نبياً غيره ، مع التضمين اللَّفظي بأن الآية لا يلفظها إلاَّ لسان نبي .

ويطالعُنا أيضاً في إنجيل يوحنَّا قولاً واضحٌ لا مجرد تلميح فحسب متضمِّناً مجيئ نبي بعد المسيح ، إذ تقول شهادة يوحنا المعمدان حينما أوفد اليهود إليه من أورشليم كهنة ولاويِّين ليسألوه : « **من أنت ؟ .** » فاعترف وما أنكر ، إعترف : « **إني لستُ المسيح** ». فسألوه : « **إذن ماذا . . أيليا أنت ؟** ». فقال : « **لستُ إياهُ** » فسألوه : « **ألنبيُّ أنت ؟** » أجاب : « **لا** » فسألوه وقالوا له : « **فلمَ إذن تُعمِّد إن كنت لستَ المسيح ولا إيليا ولا النبي ؟** »[2]

ففي هذا القول تسلسل سُلَّمي أثبت التاريخ صِحَّته ، من حيث ظهور الأنبياء ، فقبل المسيح « ع » جاء يوحنا يبشِّر به ، ثم جاء « ع » وبعده جاء النبي محمد « ص » .

كذلك نجد في نفس الإنجيل إشارة أخرى للنبي والمسيح ، وذلك في وصف خطبة عيسى في اليوم الأخير العظيم ، إذ قال : « **إن عطشَ أحدٌ فليأت إليَّ**

---

(١) مرقس : ٨/ ١٢ - ١٣

(٢) يوحنا : ص ١٧٧/ ٢٠ - ٢١ العهد الجديد

ويشرب ، من آمن بي فستجري من جوفه كما قال الكتاب ، أنهار ماء حي »[1].

وإذ سمع بعض الجمع هذا الكلام ، وقالوا : « **لا جَرَمَ ان هذا هو النبي !** » ، وقال آخرون : « **بل هو المسيح !** » وقال غيرهم : « **أمِنَ الجليل يأتي المسيحُ ؟** »[2].

ولنلاحظ صيغة الأسئلة التي وُجِّهت إلى يوحنا ، وصيغة أجوبته عليها ، فقد أجاب بعد أن سُئِلَ من أنتَ ؟

بقوله : « **إني لستُ المسيح** »،وأجاب بعد أن سُئِلَ عمَّا إذا كان هو إيليًّا ؟
بقوله : « **لستُ إياه** »،وأجاب بعد أن سئِلَ عمَّا إذا كان هو النبي . . ؟
بقوله : « **لا** » .

وكلمة « **النبي** » كما وردت في شهادة يوحنا كانت بصيغة معرفة « **النبي** » لا نكرة « **نبي** » كي تُفسَّر على أنها صفة قد تطلق هكذا لمجرد التساؤل حول هويَّة يوحنا ، وهل هو « **نبيٌّ ما** » أُوتي مقدرة ما ، أو بشرٌ عادي . . بل سُبقت بـ « **أل التعريف** » فانتقلت كلفظة نكرة تدل على مجهول غيرَ منتظر ، إلى معرفة تدل على معلومٍ منتظر ، بما يُشير إلى أن النبي المقصود قد أَجمعتِ النبوءات على تحديد أوصافه وإسمه ، وعلى تسلسل ظهوره في سُلَّم ظهور الأنبياء ، وعلى مكانته النبوية بينهم ، وعلى انتظار البشر لمجيئه بعد المسيح مباشرة .

وفي منظور التسلسل اللَّفظي الذي جاء في شهادة يوحنا « **المسيح . . إيليا . . النبي** » نلاحظ أن لفظة « **النبي** » كانت مسبوقة وليست متبوعة بأي إسم آخر ، وبأنها ختمت هذا التسلسل بتواجدها في نهايته . وفي هذا الاختتام إنسجام تام مع ما ورد

---

(١) يوحنا : ص١٩٣/ ٣٧ – ٣٨

(٢) نفسه : ٤٠ – ٤١

في الكتب السماوية والتواريخ الوضعيَّة المدوَّنة والتي لم تُسجِّل ظهور نبي بعد عيسى مباشرة أُطلقت عليه صفة « **النبي** » حيث لم يظهر بعده نبي ، إلا النبي محمد « **ص** » خاتم الأنبياء والمرسلين.

وحتى الإنجيل المقدس لم يُفسِّر المعنى المقصود بـ « **النبي** » كما ورد في شهادة يوحنا ، والذي يُنتظر مجيئه بعد المسيح ، كي يقال بأن أي تفسير مغاير له يُجافي الحقيقة والتاريخ .

فاذا قلتُ ذلك من قناعتي كمسيحي مؤمن فهم تعاليم عيسى وما هدفت إليه وتعمَّق في جوهر مبادئه السَّامية . . فلا يُحمَّل قولي بأكثر من حدود مارمى إليه ، ولا يُؤخذ على أنه تحميلٌ لآيات الكتاب المقدس تآويلاً لا تحتملها . . حاشا لله . . . بل كما سبق وأسلفت من أن قناعتي كاملة بوجود مايشير إلى مثل هذا الحدث - حدث نزول رسالة محمد « ص » - في صلب آيات الإنجيل ، ولكن استخلاصها من مظانِّها يحتاج إلى عقل مُلْهَم ، وضمير متبصِّر نيِّر ، وشجاعة أدبية مؤمنة لا تخاف الجُهر بقناعاتها وتحليلاتها الموضوعية العقلانية ، فلم تكُ أبداً رسالة المسيح ، رسالة تقوقع أو بغض ، ولا حتى رسالة نرجسيَّة وعشق ذات فالمسيح « ع » قال : « **لا تظنوا أني جئت لأنقص الناموس أو الأنبياء ، إني ما جئت لأنقص بل لأكمل** [1] » .

في هذه القولة مغزىً مؤدياً إلى ما يلي معنى الإكمال المتبوع بـ « **الاستمرارية** » المؤدية بدورها إلى الخاتمة .

فإذا اعترفنا بأن الأديان إنما جاءت لجميع البشر على السواء ، فنكون قد كرَّسنا حقيقة أزلية تتجلَّى في حكمة نزول الرسالات الثلاث واختتامها برسالة الإسلام .

---

(١) العهد الجديد ص ٩ /١٧

فعيسى « ع » قال لمجموع البشرية : « **ماجئتُ لأنقضَ بل لأُكمل** » . ، وكان يريد إفهام الناس بأنه يُكمل ما كان قد بُدِيء من دين الله الواحد برسالة اليهودية التي تُشكِّل أولى مراحله ، حيث أعقب هذا القول تضميناً لفظياً باستمراريَّة مسيرة الرسالات لتصل نحو نقطة النهاية -- **الخاتمة** - والقرآن الكريم خاطب مجموع البشرية بالقول : « **اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينا** » [1].

والمقصود في هذه الآية الكريمة بأن ما كان في مسالك دين الله الواحد من رسالات ، جاء الإسلام ليُكملها ويضع لها الخاتمة ، فتمت نعمة الله على البشرية بتمام هذه الرسالات .

فمعنى عبارة « **أكملتُ لكم دينكم** » يجيءُ مشيراً بشكل ضمني وواضح إلى وجود هذا الدين فيما سبق ، ومُسلِّماً ببداهة هذه الكينونة السابقة بشكل منقوص ، حيث أُكمِلت اليوم بالشكل المرسوم الذي أرادته العناية الإلهية .

أما عبارة « **ورضيتُ لكم الإسلام دينا** » فإنها جاءت بعد عبارة « **وأتممتُ عليكم نعمتي** » . الواقعة بدورها بعد عبارة « **اليوم أكملت لكم دينكم** » ، فبذا يكون الإسلام هو الدين البشري الذي رضيه الله لعباده سواء أكانوا يهوداً ، أم نصارى ، أم مسلمين . وتكون اليهودية والمسيحية ، هما الأدواء الروحية التي عالجت الأنفس في أزمان نزولها ، فبرَّأتها ، إلى حين نزول الإسلام حيث أكملها وحصَّن الأنفس بطعم روحي سرمدي ، درأ عنها كل العِلَل والأسقام التي قد تطرأ عليها فتفنيها .

فالدين الواحد برسالاته الثلاث كان رحمةً للبشر ، وأمراً لهم بعبادة الله

---

(١) من سورة المائدة

الأحد . ولم يختص منهم أحداً دون الآخر ، بل قالت عزَّته : « **يا أيها الناس ، أعبدوا ربَّكم الذي خلقكم ، والذين من قبلكم ، لعلَّكم تتقون** »[1].

وقد عرَّفت الرسالات السماوية الثلاث ، البشر بالله الأحد ، وأوصلت لهم دينه الإلهي الواحد ، مصداقاً لقوله تعالى « **شرَّع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى إن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** »[2].

كما ورد ذكر الإله الواحد والدين الكلِّيُّ الشمول في الآية الكريمة : » **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاَّ بالتي هي أحسن ، إلاَّ الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا أنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلِّمون** »[3].

فعبارة « **آمنا بالذي أُنزل إلينا وأ نزل إليكم ، وآلهنا وإلهكم واحد** » فيها أبْينُ دلالة على وحدانيَّة الله ، ووحدانيَّة الأديان ، ووحدانيَّة التَّنزيل ، ووحدانيَّة الإسلام بين الإسلام والمسيحية .

وقد جاء في القرآن الكريم : « **ولتجدنَّ أقربهم مودَّة للَّذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ممَّا عرفوا من الحق يقولون ربَّنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** »[4].

في كل هذا مصداق للقول : بأنه لا يصحُّ إسلام المسلم ، حتى يؤمن بنبوَّة عيسى

---

(١) الآية « ٢١ » من سورة البقرة

(٢) الآية «١٣» من سورة الشورى

(٣) الآية «٤٦» من سورة العنكبوت

(٤) الآية «٨٣ – ٨٤» من سورة المائدة

«ع» ولا تصحُّ نصرانية المسيحي ، حتى يؤمن بنبوَّةِ محمد ، ولو شاء الله لجعلكم أُمَّـة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم »[1].

هذا التعدد في الخلق وفي الرسالات ، هو في جوهره كتعدُّدِ روافد نهر واحد يصبُّ آخره في خضَـمٍّ محيط واسع . وهذا التعدُّد لا يعني التفـرُّدَ أو الخصوصية ، بل يشبه دور عـدة أعمدة تحمل مبنى واحداً ، يتوزع ثقله بالقسطاس على كل واحد منها . فرسالة الرسالات تشابهت ، كذلك تعاليمها ومبادئها . وقد ناقش المجمع المسكوني علاقة الكنيسة المسيحية مع بقية الأديان[2] ،كما قارن بين الأديان التوحيديَّة الثلاث : اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام ،وأبرز قواسمها المشتركة ، وحـدَّد سماتها المتشابهة .

أهم هذه القواسم كما تحدَّدت :

- **الدعوة إلى عبادة الله الأحد**
- **خلود النفس**
- **الآخرة**
- **الله خالق**
- **الثواب والعقاب**
- **الفضائل والأخلاق الحسنة**
- **الزكاة والصدقة والبرِّ والإحسان**
- **الملائكة والشياطين**

---

(١) الآية «٤٨» من سورة المائدة

(٢) كان ذلك على عهد يوحنا الثالث والعشرين ، وأكمله بيوسْ السادس ، وقد دُعي مُمثِّلو الديانات الأخرى غير التوحيديَّة لحضور الجلسات كمراقبين .

- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**
- **التعامل بالحسنى**
- **تحريم القتل والزّنا وشهادة الزُّور والسرقة**
- **تكريم الوالدين**

وقد تبيَّن للمجمع المسكوني أن الوصايا العشر في المسيحية ، يقابلها وصايا شبيهة في الإسلام . . . ففي الإنجيل ثـمَّـة وصيةٌ تقول : « **أحبب عدوَّك وقريبك كنفسك** » وفي القرآن ثـمَّـة أخرى تقول : « **ولا تستوي الحسنة ولا السيئة . . ادفع بالتي هي أحسن . فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم** ».[١] والإثنتان تدعواننا للتأمل في مغزاهما ومراميهما ومعاني ألفاظهما .

كذلك فإن قصة خلق الإنسان على صورة الله ومثاله ، ومدة الخلق التي هي ستة أيام ، واستراحة الخالق في اليوم السابع ، كلها متشابهة شبهاً كبيراً ما بين الإنجيل والقرآن

والمُطَّلع على الكتابين المقدسين ، سيجد تطابقاً غريباً في معظم القصص والأحداث وتشابهاً بيِّناً بين المبادىء والأهداف ، وما قصة استخلاف الله لآدم في الأرض إلاَّ إحدى هذه التطابقات المتجانسة .

وهكذا شاءت حكمته تعالى أن يُسلِّم من الناس أمـرَه لعـزَّتهِ عن طريق الإنجيل ، ومنهم الآخر عن طريق القرآن ، ومنهم عن طريق الحكمة ، لأن الإسلام هو التسليم بالأمر لله تعالى ، توزعت نعمه على الخلق بسواسيَّة عادلة ، فكان دين البشرية على اختلاف أديانهم ونحلهم .

---

(١) الآية «٣٤» من سورة « فُصِّلت »

وبدين الإسلام هذا ، وصّى ابراهيم « ع » بنيه ، وبه وصّى حفيده « **يعقوب** » أي إسرائيل ، بنيه . . . « **إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد إلهك ، وإله آبائك : إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق . . . إلها واحداً ونحن له مسلّمون** » .

وطريق الهُدى واحدة ملّةُ إبراهيم ، الإسلام ، وعليها كان اسماعيل وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وموسى ، وعيسى ، المؤمنون يؤمنون بما أوتي النبيُّون ، **لا يفرّقون بين أحد منهم ، ويسلّمون لله ، وبلون الإسلام يصطبغون ، الذين يؤمنون هذا الإيمان هم المهتدون ، أولئك لا يُجادلون في الله تعصُّباً لأهوائهم ، بل يُخلصون لفطرة الله ولا يتفرقون**(١).

فطرة الله ، هي اختياره تعالى لقافلة أنبيائه من ذُريّة واحدة ، بعضها من بعض ، لتُكمِل دعواتهم بعضها بعضاً أيضا ، لأنها في تمامها دعوة إلهية واحدة ، إذ قال تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذريّـةُ بعضها من بعض ، والله سميع عليم » (٢) .

فإذا كان الخط البياني للتوحيد بلغ في الرسالة المحمديَّة إلى الذروة « **قل هو الله أحد** » فإن التوحيد في المسيحية يبرز في مطلع فعل الإيمان إذ جاء فيه : « **نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السماء والأرض وكلّ ما يُرى وما لا يُرى** » .

أما التثليث « **الآب والإبن والروح القدس** » فإنه تعبير مجازي أدبي ، لا حقيقي مادي ، أو كما يفسّره البعض من أن لله ثلاثة أقانيم منفصلة . . إذ الأصح أنها أقانيم

---

(١) تفسير القرآن المرتّب للدكتور أسعد علي ص ٣٦٤

(٢) « ٣٣ - ٣٤ » سورة آل عمران .

متصلة متداخلة تعبُرُ المجاز في ثلاث نقاط نحو الحقيقة ،ويصحُّ تشبيه هذا المجاز اللفظي ، بقولنا عن الشمس بأنها مكونةٌ من نار وضوء وحرارة ، تشكِّلُ مجتمعة قرصاً واحداً يُدعى الشمس . يُعرَفُ بها ، ولا تُعرَفُ به،ولا تُشكِّل مفردة عالماً أو كوناً قائماً ، تُعرِّف من قريب أو بعيد على ذات ما عَرَّفت به مجتمعة .

وتعدُّ وِحدانية الله الحقيقة الأساسية التي يُعلِّمُها الكتاب المقدس . فقد جاءعلى لسان أشعيا النبي :

« **أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيرى** » .

ثم جاء المسيح وثبَّت هذه الحقيقة بقوله « **إن الرب إلهنا رب واحد** [1] ».

ثم انطلق الرسل بعده يعلِّمون هذه الحقيقة ، فقدكَتب بولس الرسول إلى أهل أفسُسْ : « **للجميع رب واحد وإيمان واحد وإله واحد هو فوق الجميع ومع الجميع وفي الجميع** » وصرَّح لأهل كورنِتسْ : « **نحن نعلم أن الوثن ليس بشيء في العالم ، وأنه لا إلـه غير واحد** » [2] .

وتقول أولى الوصايا العشر :

أنا الربُّ إلـهك لا يكن لك آلهة أخرى تجاهي . .

وكتب لوقـا :

للرب إلـهك تسجد وإياه وحده تعبد [3]

ولما كان عقلُ الإنسان محدوداً غير قادر على سبر جوهر الله والوقوف على سرِّ

---

(1) مرقس : ٢٩/١٢

(٢) رسالة بولس إلى الكورنثيين ص ٤/٣٢٩ - ٥

(٣) لوقا ٤ :/٨

طبيعته ، فقد شاءت عـزَّتُـه أن يُعلِن عن سـرِّ ماهيَّتِه العميق ، فكلَّم البشر بواسطة أنبيائه . ولما قام البعض بنفي الألوهيَّة عن الثالوث السرِّي ، إلتأم أقطاب الكنيسة وحدَّدوا عقيدة الثالوث ، فاستعانوا بكلمتي « **أقنوم** » و « **طبيعة** » ليعبِّروا بها عن الله الواحد ، وجعلوا عبارة : « **بسم الآب والإبن والروح القدس ، الإله الواحد** » بداية الصلاة .

وأنّا لواجدون في سفر التكوين تلميحات إلى الأقانيم الثلاثة ، **قال الله** بصيغة الجمع : « **لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا** »(١) .

وجاء فيه أيضاً : « **هلمَّ نهبط ونبلبل لغتهم**(٢) » .

كما يروي لنا أشعيا النبي أنه رأى في السماء مجد الله وسمع السَّرافين – إحدى طغمات الملائكة – يقولون : « **قُـدُّوس ، قُـدُّوس ، قُـدُّوس ربُّ الجنود ، الأرضُ كلُّـها مملوءة من مجده**(٣) » فتكرار كلمة قُدُّوس ثلاث مرات موجَّـهٌ إلى طبيعة الأقانيم الثلاثة .

أما الأُقنوم الثاني الذي هو الإبن – **أي المسيح** – فقد لمَّح إليه داود النبي في قوله : « **الربُّ قال لي : أنتَ إبني ، أنا اليوم ولدتُكَ**(٤) » .

وقال أيضاً : « **قال الرب لربِّي : إجلس عن يميني ، في بهاء من الجوف قبل الفجر ولدتُكَ**(٥) » .

---

(١) سفر التكوين : ١/٢٦

(٢) نفسـه : ٧/١١

(٣) أشعيا : ٣٦

(٤) المزامير : ٧/٢

(٥) نفسه : ١/١٠٩ – ٣

وفي العهد الجديد كشف عن سر الثالوث إذ قال جبرائيل الملاك وهو يبشِّر العذراء مريم « ع » : « **إن الروح القدس يَحِلُّ عليك وقوةُ العلي تظلِّلكِ ، ولذلك فالقدوُّس المولود منك يُدعى ابن الله** [1] »

وعندما عمَّد يوحنا المسيحَ في نهر الأردن ، إنفتحت السماوات ونزل الروح مثل حمامةٍ فوق رأسه وصاح صوت : « **أنتَ إبني الحبيب بك سررت** [2] ». هذا ويدعو القديس يوحنا الأقنوم الثاني بـ « **الكلمة** » المتميز عن الأُقنوم الأول فيقول : « **في البدء كان الكلمة ، والكلمةُ كان عند الله ، وجاء إلى خاصتهِ ، والكلمةُ صار جسدا** ». [3]

والروح القُدُس هو أُقنوم ثالث ، لأن كلمتي « **الروح القُدُس** » و « **الله** » تأتيان متناوبتين مترادفتين ، جاء في أعمال الرسل : « **ياحنانيا ، لماذا ملأ الشيطان قلبك حتى تكذِّب على الروح القُدُس ؟ إنك لم تكذِّب على الناس بل على الله** [4] » .

وهكذا نرى أن تعليم الكتاب عن تثليث الأقانيم في الله ، لا يمكن أن يتفق مع التعليم عن الوحدانية مالم تكن لـلأقانيم الثلاثة طبيعة واحدة غير منفصلة ، لاتشكِّل إحداها منفردة ، أي طبيعة أو خاصية مميزة ، فلو أمكن الفصل بين الأقانيم لكان في الطبيعة الإلهية تعدُّدٌ وكثرة ، إذ أن الله تعالى روح محض ، في منتهى البساطة ، ولا يوجد فيه تأليف أو تركيب ، وفي التطرُّقِ إلى أُبوَّةِ الله ، ليس المقصود فيها أن لله ولداً على طريقة البشر ، أو بحسب المفهوم البشري ، بل أن هذه الأُبوَّة تحمل معنى الصدور ، كما يصدر النور من الشمس .

---

(١) لوقا : ١/٣٥

(٢) مرقس : ١/١١

(٣) يوحنا : ١/١ - ٢ - ٣

(٤) أعمال الرسل : ٥/٣ - ٥

ولكن كيف ستوفِّقُ عقول العامَّة بين صدورِ النورِ من أحد المصادر ثم بقائه في هذا المصدر . . ؟ إذ قيل لهم إن صدور الإبن في هذا المقام ، يُشبه إلى حدٍّ ما صدور القصيدة من قريحة الشاعر . فهي وليدة فكره وإنتاج مخيلته ، فيخطُّها على القرطاس وتتناولها الأيدي ، ولكنها تبقى في الوقت نفسه راسخة أبداً في مخيَّلته . .

وقد شبَّه بعض اللاهوتيين – تقريباً للأذهان – علاقة الأقانيم الثلاثة في الطبيعة الإلهية الواحدة بمثلَّثٍ متساوي الأضلاع والزوايا ، تضم كلٌّ زاوية بين ضِلعيها مساحة المثلَّث بكامله ، وبالتساوي ، وتتميَّزُ فيه كلٌّ زاوية عن الأخرى، فكما أن للزَّوايا الثلاث مساحة واحدة متساوية كلياً ، وأنه لا يمكن الفصل بينها مادام هناك مثلَّث . فكذلك لكلٍّ من الأقانيم الثلاثة ، الطبيعة الإلهية الواحدة ، وأنه لا يمكن الفصل بينهم .

وهكذا فإن المسيحية لا تؤمن إلا بإله واحد ، لأنها توحيديَّة ، ولأنها بالتالي واحدة من مراحل التنزيل . وواحدة من مراحل الرسالات السماوية « . . . **وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وإليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مُسلِّمون** ».[1]

أما المؤيِّد الذي عناه المسيح فلا يمكن أن يكون النبي محمد « ص » لسبب جوهري ، وهو أن الرسول ليس لديه السلطة العُلوية على إرسال رسول مثله ، بل اختصَّت هذه السلطة بيدي الله جلَّ جلالُه ، باعث الرسالات من لَدُنه ، وفي كَلمة عيسى « ع » لتلاميذه مِصداقٌ لذلك ، إذ قال :

الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم
ما كان عبدٌ أعظم من سيِّده

---

(١) ٤٦ العنكبوت

ولا كان رسولٌ أعظم من مُرسِله [1]

وقال أيضاً « ع »

من قَبلَ الذي أرسِلَه قَبلَني

ومن قَبِلَني قَبِلَ الذي أَرسلَني. [2]

فهنا ثمَّة تعبيران واضحان لا لبس فيهما ، يؤكدان على أن ثمَّة قوة عليا لا سيطرة للمسيح عليها ، هي التي أَرسلته ، وهي قوة أعظم منه ، وهو - **كرسول** - يمثّلُ الطاعة لهذه القوة ، والامتثال لمشيئتها . فكيف ستكون له سلطة إرسال نبي مثله . . وهو المُرسل من لَدُن الله . . . ؟

وللجواب على ثاني التساؤلات حول المؤيِّد ، يمكن القول بأن المسيح حينما تكلَّم عنه ، فإنما كان يتكلَّمُ بصفته شهيداً لا نبيّاً ، وقد تكلَّم عن شهيد يُكمل شهادته ويؤيِّدها بين الناس ، ولم يكن يتضمَّن معنى عبارته « **أُرسل لكم المؤيِّد** » التأييد لنبوَّته ، بل لشهادته التي أُكملت بتمامها شهادات من سبقه عليهم السلام ، إبراهيم وإسحاق وزكريا وموسى ويحيى . . وغيرهم ، والتي ستُكمِلها بدورها شهادات مماثلة على زمن الرسالة الثالثة التي سيتمُّ الله تعالى بها عهد الرسالات .

ولتوضيح التساؤل حول كلمة المؤيِّد ، ولمَ أُوِّلت في هذا المؤلَّف بالشكل الذي بَدَتْ به ، بينما فُسِّرت في الإنجيل المقدس بأنها الروح القدس . . فإن في العودة إلى فصل « **المسيح . هل تنبأ بالحسين ؟** [3] » إجابة وافية على ذلك ، توضح في الوقت ذاته أسباب تفوُّه المسيح بهذه العبارة ، مع تحليل موسَّع يُجيبُ على مختلف

---

(١) يوحنا : ١٣/١٦ - ١٧

(٢) نفسه : ٢٠/١٣

(٣) الحسين ص ٢٩٥

الاستفسارات التي قد تجول في ذهن القارئ المتعطش لتحليلٍ وافٍ مقنع .

وتوخياً لإعمال فكر القارئ ، ورغبة في جعل تأمُّلاته معبراً إلى الحقيقة الحرة ،يتوصل إليها بقدراته الفكرية الذاتية . . فقد عمدنا في هذا الفصل إلى تغيير عنوانه السابق من «**المسيح يتنبأ بالحسين**» إلى «**المسيح . . . هل تنبأ بالحسين ؟**» فنقلناه بهذه الصِّيغة من صفة الجزم المُطلق ، إلى صفة التساؤل المحرِّك لرغبةِ البحث والتفكير ، مع الإبقاء على مقصد التضمين الجّازم بصدد النبوءة ، حتى في باب التساؤل الذي تركناه مفتوحاً ليَلِجَ منه فكر القارئ إلى محراب التأمل ، فالمعرفة ، فالحقيقة ، دونما توجيه أو إيحاء من جهتنا .

وجعلنا متن الفصل متلائماً مع عنوانه الجديد ، بما يحقق الهدف الآنف الذكر ، فالحقائق السماوية لاتُطالُ أعتابها إلاَّ بالتأمُّل والتحليل ، والتحليق نحوها بجناحي البصيرةِ المُلهِمَة ، إلى حيث مصدر ذبذباتها ، ومبعث إيحاءاتها العُلوية .

وأخيراً فإن سؤال : «**لمَ الحسين بالذات دون سائر أعلام الإسلام موضوعاً للكتاب ؟**» لطالما رُفع في معظم ماقيل وكُتب حول الكتاب ، ويأتي الجواب بتساؤل مردود : «**ولمَ لا يكونَ الحسين بالذات ؟ أيكره أحدنا الحقَّ ورافعي لوائه . . ولمَ لا يحبُّ المؤمنُ أيّاً كان دينه ، من أحبه النبي « ص » واعتبره بضعة منه « حسين مني » واعتبر نفسه جزءاً منه « وأنا من حسين ! »**» .

أيرفضُ مطلقُ إنسان – سيّما إذا كان مسيحياً – أن يكون ذلك المؤمن الذي ترقد في قلبه حرارة قتل الحسين التي لا تبرد أبدا . . تيمُّناً بقول الرسول الكريم : «**إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبدا**» [1] . . . ؟ ومن ذا الذي لا يحبُّ

---

(١) مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٢١٧

مظلوماً كالمظلوم الحسين ، ولا يجد في حبه راحةً لضمير حيٍ ، وسعادةً لفكرٍ أصيلٍ ، ورضىً لقلب يترعٍ بالإيمان . . . ؟

فشخصيةٌ كالحسين إختصت بشمائل النبوّة ، لا يعثر المطّلع في سفر حياته على موقف رخوٍ أو متخاذل ، فلا يملك إلا أن يُعجب به ويحبه ، ويجد في الاستجابة لهذا الإعجاب ، وهذا الحب ، مودّة قلب ، ومودّة قُربى . . « **قُل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القُربى** »

كيف تولّدت فكرةُ الكتاب . . . وما لغته . . . ؟ سُئِلتُ عن هذا .

لقد اعتدتُ أن أُعايش شخصية الحسين « ع » ساعتين يومياً ، بقصد الاطلاع على مجريات أحداث كربلاء ، وفي الوقت ذاته الإلمام بالأبعاد القُدْسية والبشرية لشخصية مفجّرها ، فتوفّر لي بعد فترة من القراءة والاطلاع على جوانبها ومعطياتها ، رؤية معينة لا تمتُّ إلى الرؤى التي تكوّنت عنها بصلة . وكما أسلفت فإني كثيراً ما تحسّستُ خلال قراءتي أو كتابتي لسيرة الحسين « ع » ، غفلة الكتاب والمؤرّخين المسلمين عن الجوانب المميّزة لشخصية سبط النبي ، ورددتُ ذلك إلى كون هؤلاء الكتاب والمؤرّخين يعيشون وسط الصورة ، لا خارجها ، فرأيت أن ما توفر لديّ من رؤى وآراء ، كان من خارج الصورة ، حيث وضُحت زوايا عديدة خافية .

ورأيتني بعد سنتين من القراءة في سيرة أبي الشهداء ، أبدأ بترتيب أفكاري ورؤاي وآرائي ، لأمضي بعدها سنة أخرى في وضع الكتاب على ضوء ما توفرّ لي ، وعلى هَدْي ما استلهمتُه بعون الله من أفكار وإلهامات .

والأن حينما أعيد قراءته ، يتأكّد لي بأنني كنت خلال كتابته واقعاً تحت تأثير وإلهام ، ما كنت قادراً على إنجازه بدون عونهما ، فأشكر الله وأتيقّنُ من شمولي

ببركة ريحانة الرسول ، المذبوح ظلماً ، والمستشهدِ دون حقٍّ الله فوق ثرى كربلاء المقدسة .

إلهامٌ يلازم الفكر في الصَّحو والمنام ، ويلبي هتاف وحيٍ رجّاف إنبثق له من أعماق الدهور . . يستحثٌّ من أعماق السريرة للإفصاح والتدوين ، وإضافة جديد على سيرة الحسين العطرة وثورته الخالدة ، فكان إيحاءً يهدف لإتمام واجب ، وإلهاماً يُعين على إتمامه بقدر ما يتنادى له الفكر الحي ، والضميرُ المنوَّر .

وهكذا فإننا كثيراً ما نقف نحن البشر الضعفاء ، لنتساءل : لمَ فعلنا هذا . . ولمَ أقدمنا على فعلِ ذاك من الأمور . . . ؟ ناسين أن ثمة قوة عُلوية هي التي تُنفذنا إلى إتمام هذا وذاك من الأمور ، وتسدد خطانا جزاء طاعتنا ، أو تعثِّر بنا هذه الخطى جزاء عقوقنا واستهتارنا بكل ماهو قدسى .

هكذا انبثقت فكرة الكتاب ، أما عن لغته وأسلوبه ، فقد وضعت في اعتباري منذ البداية أن تكون اللغة سهلة ، وأسلوب العرض والتحليل موضوعياً .

ففي البداية تساءلت : بأيَّةِ لغة أكتب . . ؟ هل استخدم لغة تاريخية تنسجم مع التاريخ الذي تغرف منه . . . أم أكتب بلغة أدبية عقيمة . . . أم بلغة فلسفية عسرة . . . ؟ وأخيراً رأيت أن تكون اللغة بسيطة بساطة الموضوع الذي تطرقه ، وعميقة عمق هذه البساطة ، فما دامت شخصية الحسين « ع » هي محور البحث ، وهي في ميزان البساطة والتعقيد ، بسيطة كالحقِّ ، واضحة كنورِ الشمس . . فلتكن اللغة المبرِزةُ لصفاتها هذه ، في مستوى بساطتها وعمقها ووضوحها .

وهكذا كانت لغة الكتاب ، وسطاً بين الأدب والصحافة المثقَّفة ، تأخذ من الأدب جماله ، ومن الصحافة ايقاعها السهل الممتنع .

لكن ذلك لم يمنعني من إعطاء كل حدث ما يوافقه من لغة وأسلوب ، بغضِّ النظر عن الهيكل العام للكتاب ، وذلك بهدف إعطاء العمل جديَّة البحث ، وسلاسة التحقيق ، ورشاقة العرض البعيد عن الإنشائية والتقريرية ، وتكرار ماسبق تكراره ، بحيث ينسجم هذا كلُّه مع الهدف الذي رميتُ إليه ، ألا وهو إخراج بحث تحليلي صرف ، لا يقرب من السرد التاريخي إلاَّ فيما يخدم الفكرة فحسب ، لأني لست مؤرِّخاً ، بل كاتباً يبحث في التاريخ عن الإنسانية ، ومواقف الأنسان .

وهكذا كانت الفكرة . . . وأيضاً اللغة .

ويظلُّ الحب . . . ومن رحابه تطل المحبَّةُ . . .ناشرة ضياءها مابين السطور والكلمات ، ويفرز قلم المؤمن مداد قلبه ، كَلِماً تُحس روعة الاستشهاد ، وتُبرِزُ عَظَمة المضاء ، وتُصوِّرُ هلع السرائر والحنايا من هول الفاجعة .

فإذا الله جل شأنه فدى إسماعيل من الذبح بعد أن صدق أبوه الرؤيا وتلَّه الجبين . . . فهل يرضى سبحانه بذبح الحسين إبن بنت رسوله . . . وكم كان غضبه عظيماً حين ذُبح فداءً للحقِّ الإلهي ، وهو الصادقُ الأمينُ على هذا الحق ، وعلى سُنَّةِ الله في خلقه . . . ؟ وكم هو حريٌ بنا نحن البشر الضعفاء ، لأن نقف بقلوب حزينة ، وعيون دامعة أمام أحداث هذا الذبح الذي لم تُسجِّل الأديان والتواريخ ما يَعدِلُه سموَّ معنى ، وسموَّ ذات ، وعلوَّ شأن . . . ؟

فهو ذبحٌ فدى البشرية جمعاء ، وصان دين الله الواحد من الانتهاك .

وهو ذبيح أرسى للبشرية مجدها الذي ترتع في نعمته الأن ، وإلى أبد الدهور .

« ويأبى الله إلاَّ أن يتم نوره ».

فسلام عليه سيداً للشهداء
سلامٌ عليه يوم وُلد
ويوم مات
ويوم يبعث حيا

• أنطون بارا •

دمشق في ٧/ ٧/ ١٩٧٩

ثورة الحسين .. لمن ؟

لم تحظَ ملحمة إنسانية في التاريخين القديم والحديث ، بمثل ماحظيت به ملحمة الاستشهاد في كربلاء من إعجاب ودرسٍ وتعاطف ، فقد كانت حركة على مستوى الحدث الوجداني الأكبر لأمة الإسلام . بتشكيلها المنعطف الروحي الخطير الأثر في مسيرة العقيدة الإسلامية . والتي لولاها لكان الإسلام مذهباً باهتاً يركن في ظاهر الرؤوس ، لا عقيدةً راسخة في أعماق الصدور ، وإيماناً يترع في وجدان كلِّ مسلم .

لقد كانت هـزَّة وأية هـزَّة . زلزلت أركان الأمة من أقصاها إلى أدناها . ففتحت العيون ، وأيقظت الضمائر على ما لسطوة الإفك والشر من اقتدار ، وما للظلم من تلاميذ على استعداد لزرعه في تلافيف الضمائر . ليغتالوا تحت ستر مزيفة قيم الدين ، وينتهكوا حقوق أهليه ، ويخمدوا ومضات سحره الهيولية .

كانت ثورة بمعناها اللفظي ، ولم تكن كذلك بمبناها القياسي . إذ كانت أكبر من أن تُستوعب في معنى لفظي ذي أبعاد محدودة ، وأعظم من أن تُقاس بمقياس بشري .

كانت ثورة رَقَت درجات فوق مستوى المَلحمة ، كما عهدنا الملاحم التي يُجاد

بها بالأنفس . فأية ملحمة هي استمدت وقود أحداثها من عِترة النبي وآل بيته الأخيار . ؟ وأية انتفاضة رمت إلى حفظ كيان أمة محمد ، وصون عقيدة المسلم ، وحماية السُّنة المقدسة ، وذبٍّ أذى المنتهكين عنها . . ؟

فإذا نظرنا إليها بمنظار الملاحم ، لم يفتنا ما فيها من كِبَر فوقها . فالملاحم والثورات التي غيرت مجرى التاريخ والأمم ، تقاس عادة بمدى إيجابية وعِظَم أهدافها ، وإمكانية تساميها إلى مستوى العقيدة أو المبدأ لمجموع فئة ما أو فئات ، وعلى هذا المقياس تكون ثورة الحسين « ع » الأولى ، والرائدة ، والوحيدة في تاريخ الإنسانية مذ وُجدت وحتى تنقضي الدهور ، إذ هي خالدة خلود الإنسان الذي قامت من أجله .

« أولى » لأنها في إطارها الديني هي أول ثورة سُجِّلت في تاريخ الإسلام ، وفي تاريخ الأديان السماوية الأخرى ، على مستوى المبادىء والقيم العقائدية .

« ورائدة » لأنها مهَّدت لروح ثورية ، وثورة روحية انطوت عليها صدور المسلمين تذكِّرهم في نومهم وقعودهم بمعنى الكرامة ، وبمعنى أن ينتصب المؤمن كالطود الصلب في وجه موقظي الفتنة باسم الدين ، ورافعي مداميك الشرك والعبث في صرح العقيدة . فكانت دعوة جاهرة لنقض هذه المداميك ، وهدم دعائم الضلال والوقوف أمام أهداف الذين حادوا عن صراط الشريعة ، ولعبوا بنواميس وشرائع الدين ، وقامروا بكيان الديانة الوليدة تمهيداً لوأدها قبل أن تحبو .

« ووحيدة » لأنها استحوذت على ضمائر المسلمين فيما خلَّفته من آثار عقائدية ضخمة . فما كان قائما من ممارسات لدى القائمين على الإسلام والحاكمين باسمه ، كان بحاجة إلى هزة انتحارية فاجعة . لها وقع الصاعقة آنذاك ، ومسرى الحبِّ في الضمائر بعد أجيال وحِقبٍ تالية .

« وخالدة » لأنها إنسانية أولاً وآخرا ، إنبثقت عن الإنسان وعادت إليه مجلّلة بالغار ، وملطخة بالدم الزكي ، ومطهرة بزوفِ الشهادة المُـثلى ، فظلّت في خاطر المسلم ، رمزاً للكرامة الدينية ، شاهد من خلالها صفحة جديدة من مسيرة عقيدته ، صفحة بيضاء عارية من أشكال العبودية والرِّق والزَّيف ، مُسطَّرة بأحرفٍ مضيئة تُهدي وجدانه إلى السُّبل القويمة التي يتوجَّب عليه السير في مسالكها ، ليبلغ نقطة الأمان الجديرة به كإنسان .

إذن هي خالِدة لأنها أخلاقية ، سنَّت دستور أخلاق جديد أضاء للأمة الإسلامية درب نضالها على مختلف الأصعدة ، وعلَّمها كيف يكون الجود بالنفس في زمان ومكان الخطر المحيق رخيصاً ، وكيف يكون الموت سعادة والحياة مع الظالمين برما ، والموت في عـز خيـرٌ من حياة في ذل .

تلك كانت مبادىء معلم الثورة الحسين « ع » في ثورته التي فجَّـرها للإنسان أياً كان على وجه هذا الكون ، وسجَّلها لتُـقال ويُعمل بها في أى مكان وزمان برزت فيهما الجاهلية من الأنفس ، واندثرت النزعة السامية التي بشَّر بها الأنبياء والمصلحون ، والتي ما أُنزلت في النفوس إلا لتحقيق العدل بين الجميع ، ونشر الرحمة والحق فيما بينها .

فإذا ما نظرنا إلى هذه الثورة بمنظور إجتماعي ونفساني بحت ، لوجدنا أن ما أسفرت عنه من أخلاقيات إجتماعية ، لأكثر من أن تُـحد ، فقد أفلحت النظم التي طـوَّق بها الأمويون مفاسد حكمهم في أن تقف حائلاً بين المسلم والثورة على هذه النُـظُم والأساليب ، ويوماً بعد يوم إنغرست مبادىء التدجين البشري في النفوس ، واستوطنت الحنايا مسلِّمات الخنوع والرضى بالمغانم الدنيوية الزائلة ، فنامت ضمائر المسلمين نومة أهل الكهف ، واسترخت الـهِمم الثورية التي كانت رمزاً للمسلم في مُنطلق بعث ديانته ، حتى تحوَّل هذا الاسترخاء إلى آفة إجتماعية ونفسية وغدت تهدِّد

كانت هذه الآفة تدغدغ من داخل الصدور ، وتوسوس ناصحة بالمحافظة على الذوات ، والحِفاظ على المكاسب المادية ، والمنازل الإجتماعية ، وتحول دون النضال، فلا يندفع أليه المسلم بحُميا نُكرانه لذاته ، واستهانته بمكاسبه الزائفة ، ومنزلته الإجتماعية ، إلى إزالة وضع شاذ أجبر على السير في ركابه دون أن يدري إلى أي منزلق يقوده .

من هذه النقطة التي وصل إليها الإسلام كعقيدة ، والمسلم كإنسان انطبعت في سويدائه مبادئها ، وجد الحسين عليه السلام بأنه لا مندوحة من إحداث هــزَّةٍ توقظ النائمين في أوهامهم ، السادرين في ضلالهم ، وتقديم بديل حق لما كان يسود الأمة من مبادىء استسلامية . ولمَّـا تفجَّرت هذه الثورة واشتعل أوارها ، هتفت للمسلم : **قــم ، لا ترضَ ، لا تستسلم ، لا توافق على تدجين عقيدتك ، لا تبعْ نفسك التي عمرت بالإيمان لشيطان المطامع ، ناضل ولا ترضَ بحياة بُلَهْنيةٍ وترف مع الظالمين وهادمي الذوات .**

وتردَّدت أصداء هذه الصيحات في أودية النفوس التي سكنت إلى الهدم يعمل في داخلها ، فهبَّت بعد إخلادٍ دام ربع قرن منذ مقتل أمير المؤمنين «ع» وتولِّي الأمويين مقاليد الأمة ، حيث غدا الاضطهاد والظلم وسرقة أموال الأمة بدهيات مسلَّماً بها . هبَّت كبركان عاصف محموم ، فاقتلعت هذا الرِّكام من البديهيات المتمثّـل بالخنوع والـزُلفى والانهيار البطىء .

والخطأ الفادح الذي يتصوره أولئك المتسائلون رداً على أسئلتهم . ماذا كان من الممكن أن يغدو الحال لو لم يقم الحسين «ع» بثورته . . وما مصير أمة الإسلام إذا ما قدر للأمويين دوام العبث بإسم الخلافة . . ؟ يكمن في تصورهم الآني لما كان سيحدث . فقد تصوَّر البعض بأن يستمر الحكم الأموي في سياسته لإغراق جموع

الأمة في ماعون الشهوات الذي نصبوه لها ، فتنحلُّ هذه الأمة ، ويجد الفاتحون فرصة لاكتساح البلاد دون مقاومة ، فيتشرد المسلمون بدداً في الأرض .

إن مثل هذا التصور برأيي يسيء إلى مفهوم ثورة الحسين « ع » لأنه تصور قاصر ينتهي إلى مفهوم سيء ، مادي بحت ذي أبعاد زمانية ومكانية محددة .

« **زمانية** » تنتهي باكتساح دولة الأمويين . . و « **مكانية** » في قيام دولة غريبة قد تجافي روح الإسلام في بقعة من أرض الشام ، أما التصور فيما ستؤول إليه العقيدة ، وما سيكون عليه مصير الأمة الديني . . فذلك لم يحظَ بأقل تصوُّر لدى أغلبية من أرَّخوا للثورة أو كتبوا لها .

فالثورة عندما قامت إستمدت عزمها من روحيَّـة الشريعة ، وكانت تهدف إلى إعادة بـثِّ هذه الروحيَّـة في نفس كلِّ مسلم ، ولو كان التصوُّرُ يقف عند حدود إزالة دولة الأمويين ، لما عَنَى الحسين « ع » نفسه بهذه الثورة ، لكنه « ع » كان عارفا بأنه خاسر معركة ليكسب الإسلام الحرب . . الحرب على الظلم عامة ، والانتصار على مُسبِّبات ضعف العقيدة ، وأكبر دليل على ذلك أنه كان بإمكانه « ع » أن يلجأ إلى نفس الأساليب التي لجأ إليها خصمه يزيد ، فيشتري الأنصار ويبذل المال لشراء الضمائر ، وكان « ع » قادر على فعل ذلك ، إلا أنه لم يرضَ بهذا الأسلوب الوقتي . . وهذا ما أعلنه في خطابه للذين بايعوه ، كي تظلَّ ثورته صافية ، لا يُتَّهم بأنه استأجر لها أنصاراً ولأفكاره مؤيدين ، إضافة لكونه « ع » كان عارفاً بأن ثورته في حساب الخسارة والربح ، لا بد خاسرة ، لكنه كان يستقرىء المستقبل لربح أعظم يتعلق بدوام صفاء العقيدة ، وإلا لكان بإمكانه الاعتصام في شعاب الحجاز وقيادة ثورته من ركن قصيٍّ آمن ، مُوفِّراً نفسه وأنفس أهل بيته وخُلُص أصحابه ، ولكن كل ذلك لم يكن كافياً لإقناعه « ع » ونقول إقناعه ونحن على فهم تام بأن عدم قناعته كانت تستند إلى وحي إلهي لإتمام المسيرة التي لا بدَّ منها لخير الأمة .

وبالمقابل كان ثمة إجماع ممن حوله ، يستدعي البقاء حيث كان ، ويدعو إلى عدم الخروج من مكة ، والاستعاضة عن الجهاد ببذل النفس بقيادة الثورة من بعيد . فكان أمام الحسين « ع » أكثر من بديل للموت ، وأكثر من اقتراح للسلامة ، وكان « ع » عالماً بكلٍّ هذه البدائل والطرق الموصلةِ إليها وإلى نقيضاتها ، إلا أن الحكمة الإلٓهية التي كانت تخطِّط لثورته ، أكبرُ من فهم البشر وأعظم تـجلّة من أن تدخل في نطاق بصيرتهم ، لذا فقد سارت ثورة الحسين « ع » كما أوحيَ له بها ، ونجحت ذلك النجاح القياسي الهائل ، والذي لم تكن لتبلغه لو سارت على نهج تقليدي . على هَديِ ما قُدِّم من اقتراحات وبدائل .

وذاتُ الوحي الإلٓـهي الذي حـدَّد مسار وتوقيت ثورة الحسين « ع » أزال الغشاوة عن العيون وبـدَّد الأوهام التي رانت على العقول والضمائر والتي ظنت ساعة قيام الثورة بأنها كانت لمناوئة حكم الأمويين ، وبأنها ستنطفىء بانطفاء جذوتها وتخمُـد بانخماد شراراتها المشتعلة . فعرفت هذه العقول وقنعت هذه البصائر بأن ثورة الحسين « ع » كانت يقيناً ربض في أعماق الصدور ، ووحياً إستلهمه كلُّ مظلوم على مـرِّ الأجيال والقرون ، وعلى اختلاف البشر ، ونحلهم ومللهم ، وإنها كانت نبراساً يُضيء للناس ، وحرارة تستعِر في قلوب المؤمنين .

ألم يقل رسول الله « ص » : « **إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبدا** » . . ؟ أما خطر لأولئك الذين شرَّحوا ثورة الحسين « ع » بأنها حركة رجل ضد رجل بعد اختلاف على الحكم والمبادىء ، كي يستلهموا كلمات صلوات الله عليه ويستنبطوا معانيها الجليلة الخالدة . . ؟ أما خطر لهم أن يتساءلوا : ولم يظل لقتل الحسين تلك الحرارة التي لا تبرد أبداً في قلوب المؤمنين . . ما دامت حركة زمنية مؤقتة لا انتفاضة روحية عقائدية جعلت القيم الدينية والشريعة محل اهتمامها ، والإنسانية محور وسائلها ، والحقّ مطلبها . . ؟

وأولئك الذين نظروا إلى حركة الحسين بكثير من قصر النظر ، وأيضاً الذين أرَّخوا لها وكتبوا عنها . . ألم يلفت نظرهم أن هذه الثورة لا يجوز أخذها بمأخذ الثورات التقليدية . . كي يعلموا أنها كانت صراعا بين خُلقين ومبدأين ، وجولة من جولات الصراع بين الخير والشر . . بين أنبل ما في الإنسان وأوضع ما يمكن أن تنحدر إليه النفس البشرية من مساوىء . . ؟

ألم يعوا كيف تحوَّلت هذه الملحمة العظيمة بتقادُم العهد عليها ، إلى مسيرة . . وكيف صارت الشهادة التي أقدم عليها الحسين « ع » وآل بيته وصحبه الأطهار ، إلى رمز للحق والعدل . . وكيف صار الذبيح بأرض كربلاء ، منارة لا تنطفىء لكلٍّ متطلع باحث عن الكرامة التي خص بها سبحانه وتعالى خلقه بقوله : « **ولقد كرَّمنا بني آدم** » . . ؟

والسيرةُ العطرة لحياة سيدِ شباب أهل الجنة ، واستشهاده الذي لم يسجِّل التاريخ شبيهاً له ، كانا عنواناً صريحاً لقيمة الثبات على المبدأ ، وعظمة المثالية في أخذ العقيدة وتمثُّلها ، فغدا حبُّـه كثائر واجباً علينا كبشر ، وحبُّـه كشهيد جزءاً من نفثات ضمائرنا ، فقد كان « ع » شمعة الإسلام أضاءت ممثِّلة ضمير الأديان إلى أبد الدهور ، وكان درعاً حمى العقيدة من أذى منتهكيها ، وذبَّ عنها خطر الاضمحلال ، وكان انطفاؤه فوق أرض كربلاء مرحلة أولى لاشتعال أبدي ، كمثل التوهُّـجِ من الانطفاء ، والحياة في موت .

فلو كان فرخ النبي « ع » ضنيناً بمبدأ ، ولو لم تكن له عقلية متصوِّرة مُوحَى لها ، لما استطاع أن يفلت من رَبَقة الأطماع التي كانت بمثابة دين ثانٍ في ذلك العهد ، ولما كان ارتفع بنُـبل قلَّ نظيره فوق الدوَّامة التي دوَّمت الجميع ، أولئك المتزلفين يزيد على خُـطى من سبقهم في تزلُفُ والده معاوية .

كان «ع» لو شاء لأصبح بانحناءة رأس بسيطة ، أميراً مطلقاً على ولاية ، أو يقنع بزعامة شيعة أبيه «ع» بينما تُنتهك حُرُمات الدين على يد أمير مؤمنين مزيف .

لكنه لم يؤثِّر السلامة ، ولم يرنُ إلى تطلُّعات أرضية ، فقد كان هدفه أعظم ، ورسالته أعمق غوراً وأبعد فهماً لعقلية الإنسان آنذاك .

كان يريد أن يقول : **ما دامت السُّنة قد نَزَلت ، وما دام الإسلام وليداً يحبو ، فما على المسلم إلا أن يكون حفيظ سُنَّتِهِ ، وراعي عقيدته ، لا من أجله فحسب ، بل من أجل كلٍّ من سيُولد في الأحقاب التالية على هذه السُّنة .** فجاءت صيحته نِبْراساً لبني الإنسان في كل عصر ومِصر ، وتحت أية عقيدة انضوى ، إذ أن أهداف الأديان هي المحبةُ والتمسكُ بالفضائل ، لتنظيم علاقة الفرد بربه أولاً ، وبأخيه ثانيا .

فلعمري أية ثورة تقوم على الحق القراح الخالي من أغراض الهوى ، ولا تجد لها سبيلاً إلى المهج والحنايا . . ؟ ألم تكن دعوة الحسين «ع» دعوة للتفريق بين الحق والباطل . . ؟ أما قيل اعجاباً بهذه الثورة : «**إن الإسلام بدؤه محمدي وبقاؤه حسيني**» . . ؟

ولنطرح جانباً آراء أولئك الذين رأوا في حركة الحسين «ع» حركة عاطفية بحته ، ألقى فيها الشهيد المقدّس بنفسه وآل بيته وصَحبه الأطهار في معركة كانت معروفة النتائج سلفاً ، والتي تمثَّلت بوقوف ثلاثة وسبعين مقاتلاً في مواجهة خمسين ألف مقاتل . . فتلك الآراء إنما تمثل الجانب الفكري ناقص النضج ، والذي وضع حركة الحسين «ع» في إطار الثورة للثورة ولا شيء عداها . ولم ينظر إليها كما هي وكما هدفت إليه كمنعطف خطير لمسيرة العقيدة الإسلامية ، والتي لولاها لما كان وجد المؤرِّخون شيئاً يتحدَّثون به عن الإسلام .

ولعل خير من وصف هذه الثورة كان ماربين الألماني في كتابه «السياسة الإسلامية» اذ قال : «**إن حركة الحسين في خروجه على يزيد إنما كانت عزمة قلب كبير عـزَّ عليه الإذعان وعـزَّ عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويُـحيي به قضية مخذولةً ليس لها بغير ذلك حياة**[1] » .

من هذا الفهم يتضح أن قضية السُّـنَّـة الإسلامية كانت قضية مخذولة عندما قام الحسين «ع» بثورته ، وماكان له محيص من السير بها بالشكل الذي بَـدت به ، غير ضانٍّ بنفسه وبأنفس أهل بيته وصَحبه الأطهار ، لعلمه الأكيد بأن ثورته وإن كانت ضعيفة بتركيبتها المادية ، إلا أن لها صلابة الصَّخر والمبدأ بتركيبتها الروحية والرمزية ، وأنه بالغٌ بها النصر والاستمرار للعقيدة ، ما لم يكن ليبلُـغه بإيثار السلامة من مذبحة كربلاء .

والحسين «ع» عندما ثار لم يثُـر لأجل نوال كرسي الحكم إذ لم تكن منطلقاته من قاعدة فردية أو زمنية ، بل كانت أهدافها تتعداه إلى الأعقاب والأجيال القادمة ، التي ستعرف كيف كان شكل الفداء دفاعاً عن عقيدة سُلِّمت لها متلألئة .

إنها عقيدة الشهداء البررة التي لا تنخدع بسراب المطامع الدنيوية ، ولا ترضى بمبدأ المساومة في ميدان العقيدة .

ورفضُ الخداع والمساومة ، مقرونٌ دوماً بالاستعداد لبذل الحياة وإطفاء شعلة النفس إذاكان في إطفائها ما ينير شمعة تُـهدي السائرين على طريق الحـقِّ والعدل .

وهذا المبدأ المنبثق عن هكذا عقيدة من الصعب إدراك معانيه في أوانه سيَّـما إذا

---

(١) السياسة الإسلامية — ماربين ص٢١٣

كانت الموازين آنذاك ، هي الموازين التي نصبها حكام ظالمون لأمة تدجنت روحها ، وذبلت عقيدتها ، فما عادت تفـرّق بين الخطأ والصواب .

وعلى هذا المقياس الذي لا يرفعه إلا الصُّـفوة المختارة من الصالحين . . أصاب الحسين «ع» بثورته في المدى البعيد ، وأخفق في المدى القريب ، طلب احقاق الحـقٍّ في وقته ، فلم يصل إليه ، لكن أمة الإسلام أدركته بمماته ، ولم يقف الأمر عندها على مستوى إدراكه فحسب ، بل صار جزءاً من وُجدانها العقائدي ، وضميراً يستصرخُها ويستحثُّها في كل مواقف الضعف ، وحيال مختلفِ أشكال التدجين والظلم والانحراف عن السُّـنة .

فداء الحسين في الفكر المسيحي

الملحمة التي تمَّت فصولها فوق أرض كربلاء . . . هل هي مَلحمةٌ تخصُّ فئةً بشريةً ما ، أو فئات تعتقد أنها قامت لأجلها فحسب . . . ؟ وهل تُعتبرُ النتائج التي تمخَّضت عنها ذات خصوصيَّة لهذه الفئة أو تلك . . . وأنه لا يُمكن لفئات أخرى من استلهام ما قدمته هذه الثورة . . . وتطبيقِ أخلاقيَّاتها على ممارسات ومواقف أي فرد إنساني ، ضمن إطار عقيدته وإزاء ممارسات ومواقف حكـامه ومحكوميه . . . ؟.

وبمعنى أدق هل نرضى بحصر استشهاد الحسين « ع » بأرض كربلاء إذا ما رغبنا بوضعها في مكانها حيث جرت أحداثها . . . وكذلك نخص بها أمة الإسلام على اعتبار أنها قامت من أجل حماية عقيدة الإسلام . . . ونتحدث عنها في صيغة الماضي في الفترة الزمنية التي تفجرت بها . . ؟

تلك التساؤلات تستلزم تحديد ماهية ثورة الحسين « ع » . .

هل هي ثورة أرض . . ؟

أم هي انتفاضة على الحكم . .
أم حركة تقويمية دينية . .
أم خطأ في الحركة والتوقيت . .
أم قضية خذلان بعد وثوق . . ؟.

فلو نظرنا إلى المَلحمة على أنها ثورة تمَّت فوق أرض معينة هي أرض كربلاء . . لجاءنا جواب على أن أية بقعة فوق الكرة الأرضية من الممكن أن تكون كربلاء ثانية ما دامت واقعة بين مكانين ، أحدهما يرتع به الباطل ، والآخر ينطلق منه الحق .

وإذا اعتُبرت انتفاضة على الحكم . . . لجاءنا جواب بأنها لا تزال مستمرة حتى وقتنا هذا في أي بلاد فسد بها الحكم .

أما القول بأنها حركة تقويميَّة دينية . . . فإنها تكون حركة حارة لم تبرد إلى عصرنا هذا ، طالما استُغِلَّ الدين لتحقيق أغراض بعيدة عن جوهره .

وأمام الرأى القائل بأنها خطأ في الحركة والتوقيت . . . فإن هذا الخطأ يحمل في ثناياه الصواب ، أكثر مما يحمل الصواب من صوابية .

أما كونها قضية خذلان بعد وثوق . . فإنها وإن تكُ كذلك ، فإنها كانت لحكمة ربانية ، من الكُفرِ إثارة التساؤل حولها .

إذن فإن الثورة بماهيتها هذه ذات استمرارية خالدة ، فكلُّ مكان يقف عليه ثائر هنا وهناك ، هو كربلاء . وكلُّ طعنة سيف في عاشوراء ، هي طعنة لمفاسد الحكم في أى وقت . وكلُّ نقطة دم أريقت فداء للحق ، إستمرت تُعلن فداءها في رغبة الإنسان العامرة في الاستشهاد في سبيل مبادئه .

هي ثورة بدأت ساخنة واستمرت محافظة على سخونتها طالما ثمَّة ظلمٌ فوق هذا الكوكب ، ولطالما ثمَّة فسادٌ في الحكم ، ولطالما ثمَّة عبثٌ في العقائد . وهي ثورة لن تبرد أبدا ، بل هي في غليان دائب سيما في هذا العصر ، عصر الضنك والظلم والاضطهاد والترويع لشعوب كثيرة . حيث انتُهكت الحريات ، وبان جلياً العبث في العقائد والأديان ، بل واستغلال هذه الأديان في تثبيت المفاسد والانتهاكات البشرية .

فالحسين « ع » ثار من أجل الحق ، والحق لكل الشعوب .

والحسين « ع » ثار من أجل مرضاة الله ، وما دام الله خالق الجميع ، فكذلك ثورة الحِسين لا تختص بأحد معيَّن ، بل هي لكلٍّ خلق الله .

وفي قولة النبي الكريم « **إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبدا** » دِلالة على شمولية ثورة الحسين « ع » فقولة رسول الله « **ص** » لم تقتصر على « **المسلمين** » ، وإلا للفظها لسانه الكريم بهذا المعنى.. . لكنه « **ص** » شمل كلَّ المؤمنين قاطبة تحت أية عقيدة انضووا ، وفوق أية بقعة فوق الأرض وُجدوا ، وخصَّهم بنصيب من هذه الحرارة السَّنِية التي لا تبرد في قلوبهم لقتل الحسين .

المظلومون والمضطهدون والمقهورون والمروعون من كلِّ المذاهب والبقاع يتجهون في كلٍّ رغباتهم إلى جوهر ثورة الحسين « ع » ، في اتجاههم الفطري وورود إلى منبع الكرامة والإنصاف والعدل والأمان .

وما دامت قد تحددت ماهية ثورة الحسين « ع » بهذه الأطر . . أفلا يجدر اعتبار الحسين ، شهيداً للإسلام والمسيحية واليهودية ، ولكلِّ الأديان والعقائد الإنسانية الأخرى . . . ؟.

فإذا كان من البَدِهي الإجابة بـ« نعم » . . . فما هي إذن رؤية الفكر المسيحي المتفرِّعِ من شجرة الفكر الإنساني . . . لملحمة استشهاد وفداء الحسين « ع » هذا الفكر الذي يرى في ركني الاستشهاد والفداء ، الأعمدة التي تقوم عليها مُعتقداته المؤطَّرة بشمولية إنسانية . . . ؟

فعيسى بن مريم « ع » ماجاء إلى الناس إلا فادياً ومستشهداً من أجل بشارة الحق [1] .

وثمَّة تقاربٌ كبيرٌ بين حركتي الفداء والاستشهاد اللتين أقدم عليهما عيسى والحسين عليهما السلام ، مع الإقرار بالفوارق البيِّنة في أسبابهما وكيفيتهما ، لا في جوهرهما وأهدافهما .

فأوجه الشبه بين عيسى والحسين « ع » ، تتجلى في مولدهما وسيرة حياتهما . فقيل : « **لم يُولد مولود لستَّة أشهر وعاش إلا الحسين وعيسى بن مريم** » .

واعتلَّت فاطمة لمَّا ولدت الحسين وجفَّ لبنُها ، فطلب رسول الله مُرضعة فلم يجد ، فكان يأتيه فيُلقمه إبهامه ، فيمصَّه ، ويجعلُ الله في إبهام رسوله غذاء الطفل الوليد ، ففعل ذلك أربعين يوماً بلياليها ، فأنبت الله سبحانه وتعالى لحمه من لحم رسول الله [2] ، وهذا ما يفسِّر قول الرسول الكريم « **حسين مني وأنا من حسين** » وهكذا كان الحسين الرضيع غذيُّ النبوَّة ، وعيسى مولود النفحة السماوية بمريم « ع » ، غذيُّ القوَّة الإلهية .

قسيس مسيحي قال : « **لوكان الحسين لنا لرفعنا له في كل بلد بيرقا ولنصبنا له في كل قرية مِنبراً ولدعونا الناس إلى المسيحية بإسم الحسين** » .

---

(١) يوحنا : ٦/١٤

(٢) أبو الشهداء للعقاد ص ٥٤

مثل هذا الكلام لا يصدر على عواهنه ، بل يقصد به أن الفداء والاستشهاد اللذين يُشكِّلان ركن الدين المسيحي الأساسي ، قد جسَّدهما الحسين « ع » خير تجسيد في استشهاده ، هذا الاستشهاد الذي لا يُقدم عليه إلا المبشِّرون بالأديان السماوية ، أو المتصدُّون لانحرافها ، وكان الحسين « ع » واحداً منهم .

ولنعُد إلى نقاط التشابه والاختلاف بين الشهيدين العظيمين للإسلام والمسيحية ، فنجد أنهما حتى في اختلافهما في بعض نقاط ، ثمَّة تشابه غير مباشر يُقرِّبهما من بعضهما ، فعيسى « ع » أوتي قدرة مخاطبة الناس وهو في المهد صبيا ، والحسين « ع » أوتي مَلَكة الخطابة من طلاقة لسان ، وحُسن بيان ، وغِنَّة صوت ، ورشاقة إيماء .

وعيسى اضطُهِد وأُهين وضفر جبينُه بالشوك ، وحُوكم وقُتل ، وطُعن وبُصق عليه ، وجُرِّد من ثيابه .

والحسين شُرِّد وحُوصِر ، وأُعطش وأُهين ، وقُتل وسُبيت عياله ، وجُرِّد من ثيابه وسُلِبت حللُه .

عيسى قال :

« روح الرب نازلٌ عليَّ لانه مسحني وأرسلني لأُبشر الفقراء وأُبلغ المأسورين إطلاق سبيلهم وأُفرج عن المظلومين وأُعلن سنَّة مرضية لدى الرب [1] » .

والحسين قال :

---

(١) لوقا ٤/١٨ – ١٩
أشعيا ٦١/١ – ٢
متّى ٣ /١٦

« وإني لم أخرج أَشِراً ولا بطراً ولا مُفسِداً ولا ظالماً وإنما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدي :

أريد أن :

أ – آمر بالمعروف

ب – وأنهى عن المنكر

جـ – وأسير بسيرة جدي وأبي علي أبي طالب .

عيسى قال لتلاميذه :

« فإذا اضطهدوني يضطهدونكم أيضاً

سينزلون بكم ذلك كلّه من أجل إسمي

لو لم آت وأكلمهم لما كُتبت عليهم خطيئة [١] » .

والحسين قال لصحبه قبل بدء المعركة عشية التاسع من محرم : **« إني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيت أبرَّ وأوصلَ من أهل بيتي ، فجزاكم الله عني جميعاً ، ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء غداً وإني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حلٍّ ليس عليكم مني ذمام ، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا وليأخذ كلُّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، فجزاكم الله جميعاً خيراً وتفرَّقوا في سوادكم ومدائنكم فإن القوم إنما يطلبوني ولو أُصابوني لذهلوا عن طلب غيري** [٢] .

عيسى أنكره أقرب تلامذته « **بطرس** » ، والحسين خذله أنصاره الذين استدعوه من المدينة .

---

(١) يوحنا : ١٥/٢١ – ٢٢

(٢) الطبري : ج ٦ ص ٢٣٨ – ٢٣٩ ، وكامل ابن الأثير ج ٤ ص ٣٤

عيسى اقتُسمت ثيابه بعد موته إلى أربعة أنصباء لكل جندي نصيب ، وأخذوا القميص أيضا وكان غير مخيط منسوجاً كله من أعلاه إلى أسفله ، فقال بعضهم لبعض : « **لا ينبغي أن نشقَّه بل نقترع عليه فنرى لمن يكون**[1] » .

والحسين لحقته هذه الإهانة وهو صريع متضرج بدمائه في فلاة كربلاء . فسلبه قاتلوه ، ولم يوفرِّوا حتى تكة سرواله ، وامتدت لها يد أحدهم بلا أدنى استعظام أو تأثُّم[2] .

ابنُ مريم مات عطشانا ، ففي لحظات نزاعه الأخير هتف : « **أنا عطشان**[3] » فلم يُؤتَ له بماء ، بل كان هناك إناء مليءٌ خلاً ، فوضعوا إسفنجة مبتلَّة بالخل على قضيب من الزُّوفى وأدنوها من فيه فلمَّا ذاق الخلَّ لفظ روحه .

وابن فاطمة وهو مجندل مطعون في ترقوته ونحره وجنبه وحلقه ورأسه وجبهته وقفاه والدم ينبع ويخضِّب جسده الطاهر ويلوِّن شيبته المقدسه وكان في نزاعه الأخير حينما استقى ماء ، فأبوا أن يسقوه ، وقال له رجل : **لا تذوق الماء حتى تردَ الحامية فتشرب من حميمها**[4] .

والأنبياء والشهداء والمصطفون يدركون أن وجودهم المادي زائل ، لكن حُججهم ونفثات ضمائرهم هي التي ستبقى لتسري في النفوس مسرى النار في الهشيم ، وليتردد صداها في المهج ، فلا يهدأ لها صدى إلا ليرجع من مكان

---

(١) يوحنا : ١٩/٢٤

(٢) راجع اللهوف ص ٧٣ ، ومقتل الخوارزمي ج ٢ ص ٣٨ ، وكامل ابن الأثيرج ٤ ص ٣٢ ، ومناقب ابن شهراشوب ج ٢ ص ٢٢٤ ، ومقتل الخوارزمي ج ٢ ص ١٠٢ .

(٣) يوحنا : ١٩/٢٩ — ٣٠

(٤) ابن نما ص ٣٩

آخر ، وهكذا فبينما يحيط جند يزيد بالحسين «ع» إذ به يعتلي راحلته ويخاطبهم :

« أيها الناس أنسبوني من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها وانظروا ، هل يَحِلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي . . . ألست إبن بنت نبيكم وإبن وصيِّه وإبن عمه وأول المؤمنين بالله والمصدِّق لرسوله بما جاء من عند ربه . . أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي . . أو ليس جعفر الطيار عمي . . أو لم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي : « هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟ » .

فقال الشمر : **هو يعبد الله على حرف ان كان يدري ما يقول .**

ثم قال الحسين « ع » : **« فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكُّون أني ابن بنت نبيكم . . . ؟ فوالله مابين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم ، ويحكم أتطلبوني بقتيل منكم قتلته . . . أو مال لكم أستهلكتُه أو بقصاص جراحة . . . ؟ [1] » .**

فأخذوا لا يكلِّمونه ، وأصمُّوا آذانهم عن سماع حديثه ، فقد تفاعل الحقد في عروقهم فأعماهم عن صوت الحقِّ الذي ينطق به لسان سيد الشهداء .

فسبحان الذي رسم لشهدائه وأبراره مثل هذه المواقف ، الشهيد والنبي والمُصلح يقفون أمام الفاسدين يستعطفون قلوباً تحجرت وأبت إلا أن تقف إزاءهم بنفوس ملؤها الشر والحقد ، وهذا ما فعله أعداء الحسين « ع » الذين التفُّوا حوله هازئين مستعدين للانقضاض عليه بعد وقت قصير بإسم دين جدِّه المصطفى ، فكان حالُهم كحال من يحارب البياض بإسم السَّوسن . وكحال من عنتهم تلك الآية الكريمة التي جرت على لسان المسيح : **« سماعاً تسمعون ولا**

---

(١) رواه ابن نما في مثير الأحزان ص ٢٦ وجاء في تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٤٣

تفهمون ، ونظراً تنظرون ولا تبصرون . فإن قلب هذا الشعب قد غلُظ ، لقد ثقَّلوا آذانهم ، وأغمضوا عيونهم لكي لا يبصروا بعيونهم ، ولا يسمعوا بآذانهم ، ولا يفهموا بقلوبهم [١] » .

وكما سيد الشهداء ، كذلك عيسى رسول السلام والمحبة وقف في مثل وقفته بين اليهود الذين جاؤوا لاعتقاله ، فقال مُخاطباً الأحبار وقادة الحرس والشيوخ : « أعلى لصٍ خرجتم تحملون السيوف والعصي ؟ كنت كل يوم بينكم في الهيكل فلم تبسطوا أيديكم إليَّ ، ولكن تلك ساعتكم وهذا سُلطان الظلام [٢] » .

وقال أيضاً :

« ألم يُعطِكُم موسى الشريعة ! وما من أحد منكم يعمل بأحكام الشريعة . . . لماذا تريدون قتلي . . . [٣] » .

فأجابه الجمع كما أجاب الشمر الحسين : « بك مس من الشيطان [٤] » .

قال عيسى : « لماذا لا تفهمون أقوالي ، لأنكم لا تطيقون الاستماع إلى كلامي ، إنكم أولاد أبيكم إبليس . . . لم يثبُتْ على الحقِّ ، لأنه ليس فيه شيءٌ من الحق ، لأنه كذاب وأبو الكذب ، أما أنا فلا تصدِّقوني لأنني أقول الحق ، أنا أعلم أنكم ذريَّة ابراهيم ولكنكم تريدون قتلي [٥] » .

صيحتان متشابهتان أطلقهما وسط غِلاظ القلوب ، رسولُ المحبة ، وسيد

---

(١) متى : ١٥/١٣ رسل ٢٦/٢٨

(٢) لوقا : ٥٢/٢٢ – ٥٣ – ٥٤

(٣) يوحنا : ١٩/٧

(٤) راجع الفقرة ٢٠ من إنجيل يوحنا ٧ ، يجيب المسيح : « ما عملتُ إلا عملاً واحداً لتعجبتم كلكم »

(٥) يوحنا : ٤٣/٨ – ٤٤ – ٤٦

الشهداء «ع» ، وأمام الموت المحيق بهما ، إنها ضريبةُ الحق قبل أن تُؤدّى .

كان بإمكان الشهيدين تجنُّبَ هذا الموقف ، وهذا الكلام ، لكنهما أدّيا واجب الكلمة الحقَّة قبل أن يؤديا واجب الشهادة ، بثّا في الضمائر بذرة الخير تعمل بها وتتفاعل لتنشر عَبَقها في الهواء ، فتعمُّ الجميع وتفيءُ بظلِّ حقِّها على القلوب ، وتكون الجرثومة التي تقتل ما فَسَد من اخلاق ونفوس ، والترياق المحيي للصدور المسمَّمة ، والمهج المشرفة على الاختناق بضلالها .

وحكمة الله تنفح الرؤى في رؤوس الأخيار البررة فتُجري على ألسنتهم كلاماً يحمل معنى النبوءة ، ففي موقع الخطر وفوق أرض النهاية حيث تُتعتع أشدُّ العقول رباطة ، وتتزعزع أقوى القلوب جأشاً ، تظل قلوب الشهداء حية وعقولهم صافية منيرة .

في حَومةِ الخطر خاطب الحسين «ع» قاتليه بما سيحِل بهم وما أثبتته الأيام بالصدق ، وصوَّر لأعينهم وبصائرهم اي منقلب سينقلبون إذا ما أقدموا على قتله ، وذلك كي يكون في كلامه عِظة وانذاراً قبل الوقوع في الخطأ ، علَّهم يرعوون ويثوبون إلى ربهم وضمائرهم ، ولكن هيهات للضمائر التي نامت ، وللنفوس التي هَرِمت أن تعيَ عِظة مقدَّسة حية ، فلو وعَت لما قدَّمت المثل الحي على مفاسد الأخلاق وموت الضمائر ، ولأرعوت بما قاله سبط النبي «ع» :

« أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريثما يُركب الفرس ، حتى تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور ، عهدُ عهده إلى أبي عن جدي رسول الله فاجمعوا أمركم وشركاء كم ثم لا يكن أمركم عليكم غمَّة ، ثم اقضوا إليَّ ولا تنظرون أني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربِّي على صراط

مستقيم [1] » .

ثم رفع يديه نحو السماء وقال : « **أللّهم احبس عنهم قطر السماء ، وابعث عليهم سنين كسني يوسف ، وسلِّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصَّبرة فإنهم كذَّبونا وخذلونا وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك المصير ، والله لا يدع أحداً منهم إلا انتقم لي منه قتلة بقتلة ، وضربة بضربة ، وإنه لينتصر لي ولأهل بيتي وأشياعي** [2] » .

ويقابل هذا القول ، ذلك الذي جرى قبل قرون على لسان شهيد المسيحية حينما حكم عليه علماء الشريعة اليهود بالموت إذ قال مخاطباً إياهم : « **الويل لكم انتم يا علماء الشريعة تحمِّلون الناس أحمالا باهظة وأنتم لا تَمسُّون هذه الأحمال بأحدى أصابعكم ، الويل لكم تبنون قبور الأنبياء وآباؤكم هم الذين قتلوهم ، فأنتم الشهود ، وأنتم على أعمال آبائكم توافقون ، هم قتلوهم وأنتم تبنون . ولذلك قالت حكمة الله : « أرسل إليهم الأنبياء والرُسل وسيقتلون منهم ويضطهدون حتى يُطلب من هذا الجيل دمُ جميع الأنبياء الذي سُفِك منذ انشاء العالم ، من دم هابيل إلى دم زكريا ، الذي قتِل بين المذبح والهيكل** [3] » .

فإيراد مثل هذا التشابه في الأقوال والمواقف والمصير بين الشهيدين ، عيسى والحسين « ع » من شأنه إبراز نواحي عنصر الشهادة بينهما رغم أنهما جاءا في عصرين مختلفين ، وأدَّيا رسالتين مختلفتين في الشكل ، متجانستين في المرمى .

فعيسى بن مريم « ع » جاء الى اليهود يحمل رسالة جديدة يبشر بها هي اتمام

---

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٣٤ ، والمقتل للخوارزمي ج ٢ ص ٧ ، واللهوف ص ٥٤
(٢) اللهوف ص ٥٦ ط صيداء ، والمقتل للخوارزمي ج ٢ ص ٧ ، ومقتل العوالم ص ٨٤
(٣) لوقا : ١١/٤٦ - ٥١ .

لرسالة العهد القديم التي حرفها اليهود ووضعوا لها شريعة أسموها شريعة الآباء. فاضطهدوه واتهموه بما لا يتهم به نبي. ثم قدموه للموت، فتقدم اليه كهدف أُنفِذ لأجله، وقد فدى نفسه وحدها لتظل رمزاً للمسيحيين من بعده تذكّرهم بمعنى افتداء نفسٍ قرباناً للعقيدة، فيُحسُّون بضعفهم إذا ما ضعفت عقيدتهم، وتكون مناسبة الفصح مناسبة للحزن والذكرى، وإعادة التبصُّر، وتقويم الضعف في النفوس، والانحراف في أخذ العقيدة.

وبمقياس الجود بالنفس الواحدة مقابل سلامة العقيدة أو بعثها من البدء، فإن الأنبياء موسى وعيسى ومحمد «ع» والشهداء زكريا ويحيى وعلي والحسن والحسين والعباس وغيرهم.. أدوا رسالتهم الكاملة بما يُرضي الله سبحانه تعالى كما رسمها لهم، وكانت أنفسهم الطاهرة هي القربان الذي قدَّموه على مذبح الشهادة.

فإذا كانت الأديان السماوية تُنزل ويُفدى لها بنفس رسولها، وتُنشر فيُفدى لها بنفس ناشرها، وتُحمى فيُفدى لها بنفس حاميها.. فبأي وصف أو مقياس يُمكن لنا ولأجيال المؤمنين من بعدنا أن نقيس ثورة الحسين «ع» التي قدَّم فيها عِترة آل البيت وصَحْبه الأخيار، وكان ثمن دفاعه عن انحراف العقيدة ثلاثاً وسبعين نفساً طاهرة هي أسرة النبي الذي أُنزلت الرسالة به، والتي حارب أعداء الرسالة، سبطه بإسم رسالته. سبطه الذي قال عنه: «ص»: «**الحسين مني وأنا من حسين**[1]».. ؟ هل يمكن قياسها بمقياس ما قدَّمت أم بمقياس ما زالت تقدِّمه.. ؟

(١) تعبير رواه من الإمامية ابن قولويه في كامل الزيارات ص ٥٣، ومن أهل السُّنة الترمذي في جامعه في مناقب الحسين، والحاكم في المستدرك ج ٣ ص ١٧٧، وابن عساكر في تهذيب تاريخ الشام ج ٤ ص ٣١٤، وابن حجر في مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٨١، وفي الصواعق المحرقة ص ١١٥ حديث ٢٣، والبخاري في الأدب المفرد، والمتقي الهندي في كنز العمال ج ٧ ص ١٠٧، والصفوري في نزهة المجالس ص ٤٧٨، وأمالي السيد المرتضى ج ١ ص ١٥٧ المجلس ١٥ «نقلاً عن المقرم».

إذا قسناها بالمقياسين ، ولا مندوحة لنا إلا بهما . فنجد أن ثورة ريحانة النبي هي أعظم الثورات قاطبة . وشهادته متممة لكل الشهادات التي سبقتها . إذ أن هذه الثورة قبلت قرباناً لها الشيخ والمرأة والطفل والرضيع . وكانوا كلهم في ميدان واحد مشاهدي مجزرة ومتحملي نتائجها . فهي ثورة جعلت من مشعل أوارها وارث آدم صفوة الله ووارث نوح نبي الله ووارث ابراهيم خليل الله ووارث عيسى روح الله ووارث محمد حبيب الله .

واستشهاد الحسين بهذا الشكل الدراماتيكي المؤلم رفعه مرتبة فوق الشهداء فصار سيدهم ومعلمهم . سيما إذا نظرنا إلى الوسائل والكيفية التي تمَّـت بها شهادته مختتماً بها ثورته المنتصرة رغم خذلانها .

ففي الهدف ثبت أن ثورة الإمام كانت دفاعاً عن كل الرسالات السماوية التي سبقتها . ما دام هدف الرسالات تقديم المثال الحي على خلودها بالاستشهاد المعمَّـد بالدم ، و« ع » تمَّـم بها ما بدأه جميع الأنبياء الذين ذاقوا الاستشهاد حرقاً وقتلا وذبحاً وصلبا .

وفي الكيفية والوسيلة . . نرى أن ليس ثمَّـة ثورة تشبه ثورة الحسين بكيفيتها ووسائلها ، فقد كان سبط النبي « ع » مُـصلحاً كبيراً انبثق من جموع الأمة ، وله صفة بشرية واحدة ، لا صفة رسولية كما للرسل ، فكان عليه أن يسلُك في كفاحه مسلك البشر المعذَّبين والمحاصرين ، ويلجأ إلى الوسائل البشرية المحدودة في صراعه المستميت ضد حاكم غاشم وسلطة فاسدة منكِّلة تبغي الإنحراف بالعقيدة تحت لوائها ، وكانت المُهمة المُلقاه على عاتق سيد الشهداء ، غاية في الصعوبة ، فقد كان الإسلام وليداً لمَّا يزل يحبو ، وقد اجتاز فترة مولده وفتوحاته الأولى ، واسترخت الأمة الإسلامية بعدها ، ودبَّ الخلاف في أوساطها ، وصارت الأطماع الدنيوية هي المِحكُّ لنفسية المسلم آنذاك ، بعد أن نجحت سياسة الأمويين في تدجين الأمة

وتركيعها ، وإقامة خلافة كسروية مدعومة بارستقراطية وثنية محرِّفة ناصبت القائمين على الإسلام العداء ، والتي نجح الرسول « ص » في القضاء عليها في حياته ، لأنها انضوت تحت لواء الإسلام واعتنقت العقيدة سعياً وراء مصالحها الشخصية ، وما كان أكثرها .

من هنا كانت صعوبة المهمة التي أخذها الحسين على عاتقه ، وهي النهوض بأمة الإسلام من خدرها ، وإعادتها إلى الصراط المستقيم الذي بشَّر به جده الكريم . . صعوبة لا يُحِسُّها إلا من كان في وضع مثل وضع الحسين يعتمد على مناصرين تفتَّتوا بَدَداً كما لو أنهم لم يكونوا ، وكأنهم لم يُرسلوا كتبهم في طلبه من المدينة ليقودهم في حركته ، في مقابل حكم طاغٍ له من عدده وعدَّته الشيء الكثير ، مدعوماً بقوى غاشمة ، بينما لا تلفت مفاسده انتباه قوى أخرى استطاع شراء سكوتها بالمال ، بينما البقية التي كانت تُحس الظلم والضنك آثرت السكوت والخنوع ، إما حفاظاً على مكاسب رخيصة ، أو خوفاً من بطش أمية .

وإذا حاولنا النظر مجدداً إلى حراجة موقف الحسين في إعلانه عدم البيعة ليزيد وخروجه إلى الكوفة ، مع علمه بإمكانية خذلانه . . لتبيَّن لنا بوضوح أسلوب الحركة عند الحسين « ع » ، فهو لم يقف ليزن الأمر بميزان القدرة والاقتدار إستناداً إلى الامكانات التي بين يديه ، وعلى ضوء ما لدى يزيد . كان المبدأ يعتمل في صدره يلح عليه بهواتف مجهولة لأن يتقدَّم ويجابه دونما خوف من مآل أو نتيجة ، فالإقدام والتصدِّي لقوى الظلم ، هما الثمرة التي ستكبر وتكبر إلى أن يحين موعد قطافها .

وإذا كان الأنبياء والرسل قد خصَّهم تعالى بقوى وخوارق علوية أكبر من قدرة البشر . فإن الحسين « ع » حتى لحظة استشهاده كانت وسائله بشرية صرفة لا تزيد ولا تنقص ، عدا جوهر المبدأ فوق البشري الذي خطَّط له حركته .

ولقد أيَّـد الله تعالى كلَّ نبي بمعجزة مما هو منتشر في عصره . ففي زمن موسى «ع» كان السحر منتشراً كل الإنتشار ، فأيَّـد الله نبيه موسى بمعجزة من نفس الشيء المنتشر ، فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى .

وفي زمن عيسى «ع» كان الطب منتشراً إنتشاراً هائلاً ، فأيَّـد الله رسوله عيسى بمعجزة من نفس الشيء المنتشر آنذاك ، فأعطاه معجزات إحياء الميِّت وإبراء الأكمه والأبرص وطرد الأرواح الشريرة ، وهذا إعجاز لم يتوصل إليه الطب في ذلك الوقت ولا في الوقت الحاضر .

وفي زمن محمد «ص» كانت الفصاحة والبلاغة هما المرجع الأول ، وكل إنسان يقدَّر على قدر فصاحته وبلاغته ، فكانت تنظَّم القصائد وتعلَّق المعلقات في الكعبة ، وتُـقام الأسواق للمباريات في إلقاء القصائد ، فأيَّـد الله نبيه محمداً «ص» بمعجزة القرآن ، الذي فاقت فصاحته كلَّ فصاحة ، واعتلت بلاغته كلَّ بلاغة .

وإذا كان حال الأنبياء الذين أيَّـدهم الله بمعجزات فوق إعجاز البشر ، قد آلت إلى الاضطهاد والقتل رغم معجزاتهم . . فما هي حال الشهيد الحسين الذي لم يؤت إعجاز الأنبياء . . بل كان عليه أن يُجاهد كالبشر . . ؟ .

وليس معنى هذا أن الشهيد العظيم لم يكن لديه إلا الضعف البشري فحسب . . بل كانت في صدره جوهرة الشهادة ، وكانت له قماشة الشهيد حتى قبل أن يولد ، إذ كان مُـعدّاً لهذه الشهادة وهذا السمو ، لكن بوسائل بشرية ، كي تتم شهادته وتكون لكلِّ البشر الذين يقنعون بضعفهم البشري عن القيام بالجهاد ، فتكون ثورة سيد الشهداء هي المثل الحي على إمكانية تحويل البشر إلى شبيهي الرسل ، بعد أن يُحوِّلهم المبدأ القوي والعقيدة الثابتة الكامنة في صدورهم ، إلى ثائرين ، يبحثون عن الموت ليَلِجوا في غمراته غير هيَّابين ، مبتغين مرضاة الله .

دافعت ثورة الحسين عن السُّنة المحمدية بقوَّة الحُجة ، وقوَّةِ الحق وبلاغتِه ، ولم تنتصر بقوة العضلاتِ والأبدان ، إذ كانت ثورة موجهة إلى العقول والضمائر والأنفس التي تقدر للحق قدره ، وتكره ما للباطل من مساوىء . لقد قال الحسين « ع » :

أيها الناس إن رسول الله قال من رأى سلطاناً جائراً مستحِلاً لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفا لسُنَّة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن يُدخله مدخله[1] » .

وقال في خطاب آخر :

« ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به ، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً ، فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما[2] » .

مثل هذا القول لا يصدر إلا عن إنسان معدٍّ للشهادة ، ينطق لسانه بما يستقرُّ في وحيه من إيحاءات عُلوية ، إنسان هو بِضعةٌ من الرسول الكريم وريحانته ، ونفحة من نفحات إلهامه . فعندما وَلدت فاطمة حسينا ، أخذه النبي بين يديه وأذَّن في أذنه كما يؤذِّن للصلاة ، وأفرغ في سريرته الطفولية بعضاً من استشرافات النبوَّة الهادية للبشر[3] .

إذن كان الحسين « ع » هو رجل المرحلة الثانية للإسلام بعد المرحلة الأولى التي

---

(1) الطبري جزء ٦ ص ٢٢٩ ، وكامل ابن الأثير ج ٤ ص ٢١ .

(2) اللهوف ، والطبري ج ٦ ص ٢٢٩- ، والعقد الفريد ج ٢ ص ٣١٢ ، وابن عساكر ج ٤ ص ٣٣٣ .

(3) أخرج أبو داود والترمذي في « السنن » عن أبي رافع مولى النبي « ص » قال : « رأيت النبي أذَّن في أذن الحسين حين وَلدته فاطمة كما يؤذَّن للصلاة وذكر الصبَّان في إسعاف الراغبين ، أنه حنكه بريقه ، وأذَّن في أذنه ، ودعا له وسماه حسيناً يوم السابع وعقَّ عنه . وذكر المفيد في الإرشاد أن النبي عقَّ عنه كبشا .

بدأها جده الرسول ، وكانت مهمَّتُه كبيرة تتصدى لإعادة مسيرة العقيدة إلى الصراط المستقيم ، ولم لا . . ؟ أليس « ع » هو خامس أهل البيت الذين صرَّح القرآن الكريم بطهارتهم . . ومن كان أجدر منه لأن يكون رجل « **الاستمرارية** » وإعادة التقويم للإسلام الذي قيل فيه « **بدؤه محمَّدي وبقاؤه حسيني** » . . ؟.

ورجلٌ نذر حياته للشهادة ، وتقـدَّم بقوة نحو افتداء عقيدته مُـضحياً بنفسه وأهله ، وشهيد أعطى معنى كاملا وتفسيراً واضحاً لمعاني تضحية الأنبياء والرسل بديناميكية ثورته وزخمها ، وسيد للشهداء أتم الشهادات العظيمة لكل الأديان ، وناقضٌ لكلِّ نواميس الظلم والتحريف ، ومعطٍ ما لله لله ، وما ليزيد ليزيد ، تماماً كما أعطى قبله رسول المحبة وشهيد المسيحية « **ما لقيصر لقيصر وما لله لله** » . . مثل هذا الشهيد الذي يُـذكِّـر كل مسيحي برسوله ، ومثل هذا المعلِّم للثورة من أجل الحق ، الخليق بأن يَحلَّ محلَّه في ضمير الإنسان المسيحي ، والجديرُ بالمسيحيين اعتباره شهيداً يخصُّـهم كما يخصُّ المسلمين ، وكما يجب أن يخصَّ غيرهم من أتباع كلِّ الديانات ، فشهادتُـه كانت أقرب الشهادات إلى روح وجوهر العقيدة المسيحية ، وثورتُـه بمضامينها ومراميها كانت أقرب الثورات التصاقاً بما جاء المسيح « ع » لأجله ، نبيًّا ومُبشِّراً ومخلِّصاً للمظلومين . فكان في شهادته من أجل الحق ، شهيداً في الميسيحية التي تعصَّبت للحقِّ القراح دون أي تعصب لقومية أو قبلية أو عنصرية .

فجدير بقدسية رسالة الحسين « ع » أن يقدمها العالم الإسلامي كأنصع ما في تاريخ الإسلام ، إلى العالم المسيحي ، وكأعظم شهادة لأعظم شهيد في سبيل القيم الإنسانية الصافية ، الخاليةِ من أي غرض أو إقليمية ضيِّقة ، وكأبرز شاهد على صِدقِ رسالة محمد « ص » ، وكلِّ رسالات الأنبياء التي سبقتها .

وليس أدل على ما لسحر شهادة الحسين « ع » من قوة جذب للشعور الإنساني ، من حادثة رسول القيصر إلى يزيد حينما أخذ هذا ينكت ثغر الحسين الطاهر بالقضيب

على مرأى منه ، فما كان منه إلا أن قال له مستعظماً فِعلته : «**إن عندنا في بعض الجزائر حافر حمار عيسى ونحن نحج إليه في كل عام من الأقطار ونُـهدي إليه النذور ونعظِّمه كما تُعظِّـمون كُـتبَـكم ، فأشهدُ أنَّـكم على باطل**[1] » .

فأغضب يزيد هذا القول وأمر بقتله ، فقام إلى الرأس الطاهر وقبَّـله وتشهَّـد الشهادتين ، وعند قتله سمع أهل المجلس من الرأس الشريف صوت عالياً فصيحاً يردد «**لا حول ولا قوة إلا بالله**[2] » .

وحادثة أخرى دفعت براهب مسيحي لأن يبذل دراهم مقابل تقبيل رأس الشهيد ، وكان ذلك عند نصب الرأس على رمح إلى جنب صومعته ، وفي أثناء الليل سمع الراهب تسبيحاً وتهليلا ، ورأى نوراً ساطعاً من الرأس المطهَّر وسَمع قائلاً يقول : «**السلام عليك ياأبا عبد الله**» فتعجب حيث لم يعرف الحال .

وعند الصباح ، إستخبر القوم فقالوا له : إنه رأس الحسين بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت النبي محمد «ص» ، فقال لهم : «**تباً لكم ايتها الجماعة ، صدقت الأخبار في قولها إذا قتل تمطر السماء دما**» .

وأراد منهم أن يقبِّل الرأس ، فلم يُـجيبوه إلا بعد أن دفع إليهم دراهم ، ولما ارتحلوا عن المكان نظروا إلى الدراهم وإذا مكتوب عليها :

«**وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون**[3] » .

---

(١) الصواعق المحرقة ص ١١٩ .

(٢) مقتل العوالم ص ١٥١ ، ومثير الأحزان لابن نما ، وفي مقتل الخوارزمي ج ٢ ص ٧٢ ذكر محاورة رسول القيصر وغفل عن ذكر كلام الرأس الشريف .

(٣) تذكرة الخواص ص ١٥٠ .

فبداهة القول إن أي فكر إنساني يطّـلع على السيرة العطرة لسيد الشهداء ، لا بـد وأن تتحـرّك في وجدانه نوازع الحب لهذا الشهيد المثالي . كما تحـرّكت شبيهة هذه النوازع في قلبي كلٌّ من رسول القيصر والراهب ، ففي أعماق كل إنسان ، لواقط خفيَّـة تلتقط أدنى إشارات العظمة والقداسة خفوتاً . . فكيف بأقواها تلك المتعلِّـقة بشخص سيد الشهداء ، والمُـنبعثة رغم السنين والقرون ، من كلِّ كلمةٍ في سِفرِ حياته وكفاحه ومقتله ، والتي تستهوي أشدَّ القلوب ظلامة للتفاعل معها ، وتُـوقَظُ أشـدَّ الضمائر مَـواتاً لاستلهامها والسير على هَدي أنوارها السنيَّـة . . ؟.

ثورة الوحي الإلهي

دأب بعض المغرضين من مستشرقين وعرب على الوقوع في خطأ جسيم في كل مرة يتصدون فيها للكتابة عن ملحمة كربلاء ، فيخلص بعضهم إلى القول إن ثورة الحسين كانت عاطفية مرتجلة قام بها الشهيد بغية إحراج الذين خذلوه خاصة [(١)] ، وبني أمية والمسلمين عامة [(٢)] ، ويردُّ البعض الآخر حركة الحسين إلى رغبته في إثارة المؤيدين والرافضين على السواء ، وتحميل ضمائرهم وزر قتل آل النبي [(٣)] ، وحلَّلها

---

(١) ورد في صحيح مسلم أن طائفة من الجهلة قد تأوّلوا على الحسين وقتلوه ولم يكن له قتله ، بل إجابته . فليس الأمر كما ذهبوا إليه ، بل أكثر الأئمة قديماً وحديثاً كاره ما وقع من قتله وقتل أصحابه سوى شرذمة قليلة من أهل الكوفة . وذكر الحافظ بن كثير في استشهاد الحسين ص١٠٧ ، أن إبن زياد لما صعد المنبر قال : إن الله فتح عليه من قتل الحسين الذي أراد أن يسلبهم الملك ويفرق الكلمة عليهم .

(٢) في كتابه « السياسة الإسلامية » يقول الفيلسوف الألماني ماربين : إن الحسين مع ما كانت له من المحبوبية في قلوب المسلمين كان بإمكانه تجهيز جيش جرّار لمقاتلة يزيد ، لكنه قصد من استشهاده « الانفراد والمظلومية » لإفشاء ظلم بني أمية ، وإظهار عداوتهم لآل النبي .

(٣) الذين يؤيدون هذا الرأي يستندون إلى كلام العقيلة زينب « ع » في مجلس يزيد حينما قالت له : « فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا ، ولا يرحض عنك عارها »

آخرون بأنها ثورة أخلاقية كان الحسين يبتغي من ورائها عزل العقيدة المحمدية عن مسالك تهلكتها والنجاة بها إلى طريقها الصحيح [1] ، وحصرها آخرون في إطار رغبة الاستيلاء على الحكم ، والإيثار بالخلافة [2] . والذين لم يحلِّلوها حسب رؤاهم ، اكتفوا بوصفها بالعاطفية وعدم التخطيط وحساب ما للحرب من نتائج وأساليب ، وما يترتب عليها من نتائج .

ولو توفَّر لكلٍّ هؤلاء المغرضين والمستبدِّين بآرائهم . البصيرة النافذة والرؤية المتبصرة التي تردُّ مؤشِّرات الأحداث إلى منابعها ، وتربط النهايات بالبدايات ، والمسار بنقطة الإنطلاق ، والنتائج بالمسبِّبات ، لما وقعوا فيما وقعوا فيه من مغالطات وتجنٍّ على الحقيقة تجلَّت في رؤية الأحداث والحقائق من وجهة نظر تفصيليَّة مادية ضيِّقة ، وربط النتائج بالأسباب بكيفية تقليدية على نحو ما اصطلح عليه العقل البشري في بعض اجتهاداته المُحرِّفة سيئة المقاصد .

ولكن أنَّى لهم ذلك إذا كانت السَّوْءة في هضم الحقائق فكرياً ، هي هدفهم الأسمى الذي يسعون إليه ، ويغُذُّون على نبراسه في دروب رؤاهم الموءودة بسكين وترتهم وضيق أفقهم وسوء نياتهم . . ؟ .

فالقائلون بأنها ثورة مرتجلة ، في قولهم كمن يجدِّفون على الحكمة الإلهية التي هيأت

---

(١) للشيخ عبدالله العلايلي في كتابه « الإمام الحسين » ص٣٤٨ رأي يقول فيه : خروج الحسين « ع » ليس فتنة – كما انهموا – بل لمكافحة الفتنة ، فأية محاولة وثورة على الفساد في سبيل أن يكون الدين كله لله . . نحن مأمورون بها . فالحسين بخروجه لم يجاوز برهان ربه : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

(٢) للعقاد في كتابه أبو الشهداء ، رأي يقول فيه : الحسين « ع » طلب الخلافة بشروطها التي يرضاها ، ولم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن ، ومهما تتطلب من نتيجة ، وفي هذا القول شبه بما قاله ماربين من أن خروج الحسين كان عزمة قلب كبيرليلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويُحيي به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة . العقاد ص١١٨ .

الشهادة للحسين ، ويستهينون بنبوءات الرسل والأنبياء عن قتله في فلاة كربلاء ذبيحاً وعطشان ومداساً بحوافر الخيل ، ويسفِّهون ما جاء على لسان الوصيِّين والأبرار الذين ما جاؤوا إلى البشرية إلا من أجل توطيد عقائدها وحفظ شرائعها .

فهاهو شهيد المسيحية عيسى « ع » يمر بأرض كربلاء ، فيُنبئ عن قتل الحسين ويلعن قاتليه ، ويصف أرض الطَّف بـ « **البقعة كثيرة الخير**[1] » .

وقد أمسك بعض المشكِّكين بهذه الواقعة لدعم تغرُّضهم . . فذكروا أن عيسى « ع » لم يخرج من فلسطين طيلة حياته ، وأنه من غير المعقول أن يكون قد وصل إلى كربلاء في العراق ، لكن هؤلاء فاتهم تلك الفترة الغامضة منذ يفاعة عيسى حتى سنِّه العشرين ، إذ لم تذكر التواريخ ، ولا حتى الإنجيل المقدَّس ، أين أمضى عيسى طفولته وبعضاً من سني شبابه المبكر . . إذ هناك روايات تتحدث عن سفره إلى التبت لنهل الحكمة والطب الروحي ، وثمة رواية أخرى تحدثت عن تنقله في كل بقاع الأرض لاختيار المواطن المناسبة لبعث ديانته ونشرها بعد نزولها عليه في فلسطين .

ونبي كعيسى أيَّده الله بمعجزات خارقة هل يستحيل عليه الوصول إلى كربلاء بطرفة عين . . ؟ وما هو غير المعقول في زيارة شهيد المسيحية إلى مسقط رأس شهادة الحسين « ع » الذي سيأتي بعد قرون ليتمِّم شهادة الحقِّ والعدل التي استشهد لأجلها عليه السلام . . ؟.

فإذا كانت الطبائع البشرية قد جبلت على تقديس الشهداء وحبهم بوحي من فطرتها الإنسانية . . فكيف بالشهداء الذين تسبق شهادتهم شهادة نظائرهم ممن سيأتون لإتمام ما بدأوه ؟ .

---

(١) إكمال الدين للصدوق ص٢٩٥

ألم يبكِ القتيل الحسين قبل مقتله بمئات السنين ، آدم والخليل وموسى ، ويلعن عيسى قاتله ويأمر بني إسرائيل بلعنه ، ويقول من أدرك أيامه فليقاتل معه فإنه كالشهيد مع الأنبياء مقبلاً غير مدبر[1] . . ؟.

فالحواجز الزمنية التي تحول بين البشر وبين استشفاف المستقبل ليس لها حساب مع الشهداء والنبيين ، فعليهم السلام يرون قائمة الشهادة التي نصبها سبحانه وتعالى ، ويقرأون بها أسماء من سيلي بعدهم مع صحيفة تبيِّـنُ كيفية المقتل وأسلوب المعاناة ، وإلا لمَ بكى الحسين كل هؤلاء الأنبياء ، ولعنوا قاتليه قبل أن تكون الواقعة بمئات السنين . . ؟.

والله سبحانه وتعالى أعطى الأنبياء والأخيار مَلَكة نورانية تساعدهم على استجلاء الغيب « **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول**[2] » ، وكان أبو جعفر يقول : « **كان والله محمد ممن ارتضاه ولم يبعد الله الخلفاء عن هذه المنزلة بعد اشتقاقهم من النور المحمَّدي**[3] » .

فلا توافق بين الارتجال الذي نعت البعض به ثورة الحسين ، وبين نبوءات الأطهار ممَّن ارتضاهم الله ، ولا يصيبنَّ ناعتٌ في نعت استشهاد أبي الشهداء مهما بلغت فصاحته ، لأنه مستمدٌّ من القدر الإلهي ، ومُوحى به قبل أن يُولد الشهيد .

وكأني أسمع أحدهم يقول مشكِّكاً : ولكن الحسين كان بإمكانه تجنُّب التهلكة التي ألقى بنفسه وآل بيته إليها . . عملاً بقول الآية الكريمة « **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** » . . إلا أن منطق الشهادة يبرر معنى الآية إذا كان في الحفاظ على

---

(١) كامل الزيارات ص٦٧ إبن قولويه

(٢) سورة الجن

(٣) البحار ج١٥ ص٧٤ ، وابن حجر في فتح الباري ج١٣ ص٢٨٤ كتاب التوحيد .

النفس مصلحة أهم من إزهاقها ، والاقتصار على ما يقتضيه الوصف يخرج الآية عما في الشهادة من نفي للهَلَكة ، فإنها أعقبت آية الاعتداء في الأشهر الحرم على المسلمين ، فقال تعالى : **« الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة واحسنوا إن الله يحب المحسنين »** .

والحسين « ع » كان عالماً بمقتله ، وواعياً لكل ما سيحيق به ، وإقدامه على الشهادة إنما كان من باب الطاعة وامتثالاً للتكليف الموجَّه إليه من القدرة الإلهية .

وقد أعلم أم سلمة بقتله قائلاً لها : **« إني أعلمُ اليوم الذي أُقتل فيه والساعة التي أُقتل فيها وأعلم من يقتل من أهل بيتي وأصحابي ، أتظنين أنك علمت ما لم أعلمه . . وهل من الموت بد ؟ فإن لم أذهب اليوم ذهبت غدا »** .

والإرتجالية هي عكس معرفة كل شيء بالتفصيل كما قال الشهيد لأم سلمة حين أبدت له خوفها من سفره ، ومعرفته بما سيحل به لم يؤخره أو يمنعه عن التقدم والتسليم للقضاء المحتوم وعدم التوسُّل إلى الباري تعالى في إزاحة العلَّة لينال الشهادة .

ولو شاء سيد الشهداء أن يدفع الله تعالى عنه هذه التهلكة ، لكان ذلك على الله أسرع من سلك منظوم انقطع ، ولرفع عنه الطواغيث ، لكن الحكمة المتجلِّية في عدم طلب مثل هذا الدفع لا يعلمها إلا رب العالمين .

والأنبياء الذين قُتلوا في سبيل إعلاء كلمة الله المبشِّرة بالحق والعدل . . أنظن نحن البشر بأن الله تعالى قد تخلى عنهم لمصائرهم . . ؟ كلا . . بل إنهم « ع » يتشوقون للشهادة تقرُّباً من قُدْس الله وتنفيذاً لمشيئته ، ولو دعوا الله لِرفْعها عنهم ، لَرَفعها . . لكنهم يدورون مدار ما اختاره تعالى لهم من الأقضية والأقدار ، إذا كان في إقدامهم إبقاء على دين ، أو حفظ لشريعة ، أو إنقاذ لعقيدة .

وقد تنبّأ عيسى « ع » بموته أمام تلاميذه وشرح لهم كل ما سيحدث له من تسليمه إلى الوثنيين وسخريتهم منه وجلده وقتله وحثّ تلميذه الخائن يهوذا الإسخريوطي على تسليمه ، ولما اجتذبه تلميذه بطرس إليه وطفِق يحذِّره من المُضيِّ إلى القدس ، إلتفت « ع » إلى تلميذه وقال له : « **إذهب خلفي ياشيطان ، إنك لي معثرة لأن أفكارك ليست أفكار الله ، بل أفكار الناس** » ، ولما هوى أحد أصحابه بسيفه على أُذُن عبد عظيم الأحبار وقطعها ، قال له المسيح : « **إغمد سيفك فمن يأخذ بالسيف يَهلك ، أوتظن أني لا أستطيع أن أسأل ربي فيمدَّني الساعة بأكثر من إثنى عشر فيلقاً من الملائكة . . ولكن كيف تتمُّ آيات الكتب التي تقول إن هذا ما يجب أن يحدث**[1] . . ؟ » .

فعيسى ابن مريم كان قادراً إذا طلب من ربه أن يقضي على اليهود الذين جاؤوا لاعتقاله ، لكنه لم يفعل حتى تتمَّ مشيئة الواحد القهَّار ، التي لا يفهمها الناس العاديون كتلميذه بطرس .

وعندما كان تلاميذه يسهرون ليلة قال لهم : « **نفسي حزينة حتى الموت** » ، ثم أبعد قليلاً وأكبَّ لوجهه يصلي ويقول : « **ياربّاه لتبتعد عني هذه الكأس إن كان يُستطاع ، ولكن لا كما أنا أشاء ، بل كما أنت تشاء**[2] » .

ولم يُلِح نبيُّ المسيحية على طلب إبعاد كأس الموت عنه كما يشاء هو ، بل كما يشاء ربّه الأعلى .

وكما قال عيسى « **لا كما أنا أشاء بل كما أنت تشاء** » ، قال سيد الشهداء مخاطباً أخاه محمد بن الحنفية : « **شاء الله أن يراني قتيلاً ويرى النساء سبايا** » .

---

(١) متى : ٢٦/ ٥٣ - ٥٤ - ٥٥

(٢) مرقس : ١٤/ ٣٦ - ٣٧ .

فهل للمشكّكين بوعي ثورة الحسين من حُجّة بعد هذا القول « **شاء الله أن يراني قتيلاً** » . . من وصف ثورته بالعاطفية وسوء التخطيط . . وما قولهم بمشيئة الله القادر الذي خطّط لثورة سيد الشهداء وأجراها نبوءات على ألسنةِ رُسُلِه الأطهار . . وأنزلها وحياً على ذبيحها الذي سيكون قربانها الرئيسي . . هل سيبلغ بهم الكفر حدّاً لنعتها بأي نعت آخر إزاء قولة الحسين بمشيئة ربه . . ؟.

هذه المشيئة المقدسة هي التي جعلت إبراهيم الخليل « ع » يحطم آلهة قومه ويدوسها بقدميه غير عابئ بالنمرود صاحب البطش ، وبالنار التي أوقدها لحرقه حيا .

وهي المشيئة الإلهية التي دفعت بكليم الله موسى « ع » ليقف في وجه فرعون المتألّه ، ملك النيل والسلطان العريض ، ويصيح أمامه : « **أنت ضالٌ مُضِل** ».

هي مشيئة الواحد القهار التي دفعت بيحيى « ع » للصراخ في وجه هيرودس عندما أراد التزوُّج بإمرأة أخيه قائلاً له : « **إنها لا تَحِلُّ لك** » ، ولما رقصت إبنة هيروديا إحدى بغايا بني إسرائيل ، قدَّم لها هيرودس رأس يحيى « ع » على طبق من ذهب .

هي المشيئة التي رسمت لعيسى « ع » مواقفه وحياته . فقال لأحبار اليهود « **أنتم أبناء الشياطين** » ، رغم عِلمِه بأنه سيُقتل .

وهي المشيئة العليا التي أوحت للنبي محمد « ص » اليتيم الفقير ، لتسفيه أحلام قريش ، وسبِّ آلهتهم ، وحمل الرسالة المحمدية والاندفاع بها مهدِّداً كسرى وقيصر ، شرقاً وغربا

وقال أمير المؤمنين : « **أوحى الله إلى داود : تريد وأُريد ولا يكون إلا ما أُريد ، فإن سلَّمت لما أُريد ، أُعطيتَ ما تُريد ، وإن لم تسلِّم لما أُريد اتعبتك فيما تريد ، ثم لا**

يكون إلا ما أُريد » .

وقال : « **لا تسخط الله برضا أحد من خلقه ، فإن في الله خَلَفاً من غيره ، وليس من الله خَلَفٌ في غيره »** .

وقال رسول الله « ص » : « **من طلب رضا مخلوق بسخط الخالق سلط الله عليه ذلك المخلوق »** .

بهذه المبادئ العُلوية جاء الأنبياء والرسل والشهداء إلى البشرية ، مبشِّرين بالأديان السماوية ، مقاتلين دون تحريفها ، باذلين الأنفس والمُهج في سبيل ترسيخها في النفوس ، وعندما يقف هؤلاء الأطهار أمام أصحاب السَّطوة والاستطاعة ، فإنهم يقفون بقوة العزَّة الإلهية التي لا قوَّة فوقها ، ويخاطبون أهل السلطان بإسم الله الذي أوحى لهم ما يقولون ، ورسم لهم أدوارهم التي بعثهم للبشرية من أجلها .

وأية اجتهادات في تفسير هذه الأدوار بغير هذا المنطق ، معناه وضع الحقائق الجوهرية في غير موضعها ، حتى لتبدو الرغبة في التضليل واضحة فيمن يقدمون على مثل هذا التحريف في أخذ منطق هذه الحقائق .

وثورة الحسين « ع » ليست وليدة ساعتها ، بل هي في سفر الوصايا الإلهية ، نُقشت عليه قبل نزول الرسالة المحمدية ، وعِلمُ ذلك عند ربِّ الأكوان ، وباعث الرِّسالات ، إذ كان يعلم تعالى بما ستتعرَّض له هذه الرسالة من اهتزاز بعد نزولها على محمد « ص » ، فهيَّأ لها الحسين قبل أن يكون .

فها هو الشهيد يقول لعبد الله بن جعفر : « **إني رأيت رسول الله في المنام وأمرني بأمر أنا ماضٍ له »** .

وفي بطن العقبة قال لمن معه : « **ما أراني إلا مقتولاً فإني رأيت في المنام كلاباً**

تنهشني ، وأشدُّها عليَّ كلبٌ أبقع [1] » .

ولما أشار عليه عمرو بن لوذان بالانصراف عن الكوفة إلى أن ينظر ما يكون عليه حال الناس ، قال « ع » : « **ليس يُخفى على الرأي ولكن لا يغلب على أمر الله وإنهم لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي [2] »** .

وفي مكة حينما أراد السفر منها إلى العراق قال : « **كأني بأوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جُوفاً وأجربة سغبا ، لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم [3] »** .

فعبارة « **لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم** » ، دِلالةٌ واضحةٌ على أن سيد الشهداء كان عالماً بأن مصيره قد خُطَّ بالقلم ، وأن لا مندوحة من الامتثال لمشيئة الله القادر دونما تساؤل عن هذا السر الإلهي ، فالأنبياء والشهداء والمصطفون لا يسألون : « **لماذا . . وكيف . . ؟** » بل هم يمضون في دربهم على هَدْيِ الإيحاءات العُلوية التي تنير لهم دربهم خطوة إثر خطوة .

وهذا السر العلوي هو الذي منع الإمام المجتبي الحسن بن أمير المؤمنين « ع » ، من السؤال حينما حلَّ الأجل تسليماً لقضاء القوة الإلهية ، ودفعه لأن يمدَّ يده بلا ارتعاش إلى جَعده بنت الأشعث ليتناول منها اللبن المسموم ويرفع رأسه إلى السماء قائلاً : « **إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون الحمد لله على لقاء محمد سيد المرسلين وأبي سيد الوصيين وأمي سيدة نساء العالمين وعمي جعفر الطيار في الجنة وحمزة سيد**

---

(١) كامل الزيارات ص٧٥

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٢٦ ، وإرشاد المفيد ، ونفس المهموم للمحدث القمي ص٩٨

(٣) اللهوف ص٣٣ ، وابن نماص ٢٠

الشهداء»، ثم يشرب اللبن المسموم وهو يدعي على جعده بالخزي[1].

وهذا السر العلوي هو الذي أوحى للرضا «ع»، بأن منيَّته تكون على يد المأمون ولابد من الصبر حتى يبلغ الكتاب أجله. وقال أبو جعفر الجواد لإسماعيل بن مهران لما رآه قلقاً من إشخاص المأمون له: «**إنه لم يكن صاحبي وسأعود من هذه السفرة**». ولما أشخصه المرَّة الثانية قال «ع» لاسماعيل: «**في هذه الدفعة يجري القضاء المحتوم**[2]»، وأمره بالرجوع إلى إبنه الهادي فإنه إمام الأمة بعده، ولما حلَّ قضاء الله ودفعت إليه أم الفضل المنديل المسموم لم يمتنع عن استعماله تسليماً لطاعة المولى.

وفي هذا الرضوخ للقوَّةِ العُلوية تفسيرٌ في الآية الكريمة «**وإذا أخذنا من النبيِّين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا**».

وهذا ما يُفسِّر أيضاً المعاناة التي ذاقها الأنبياء، خاصة النبي محمد «ص» وآل بيته الأطهار وقد قال: «**ما أُوذيَ نبي بمثل ما أُوذيت**». وأوصاه الله بالصبر حيث قالت عزَّته: «**فاصبر كما صبر أُولو العزم من الرُسُل**».

لكن ما صبر عليه الحسين «ع» وصحبه كان أشدَّ من كل المعاناة التي وقعت بالأنبياء والرُسُل، كانت أشد هولاً وفتكاً وآلاما، وقد صبر الشهيد وطالب أهله وصَحْبه بالصبر ابتغاء لمرضاة الله:

«صبراً بني الكرام. فما الموت إلا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة، والنعيم الدائم. فأيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر، وما هو

---

(١) البحار ج١٠ ص١٣٣ عن عيون المعجزات، والإرشاد للمفيد، والخرايج.

(٢) الإرشاد وأعلام الورى ص٢٠٥

لأعدائكم إلا كمن ينتقل من قصر الى سجن وعذاب ، إن أبي حدَّثني عن رسول الله « ص » أن الدنيا سجن المؤمن وجنَّةُ الكافر ، والموت جسر هؤلاء إلى جناتهم وجسر هؤلاء إلى جهنم ، ما كَذبتُ ولا كُـذِّبت » .

وهو يودع عياله قال لهم :

« إستعدوا للبلاء ، واعلموا أن الله حاميكم وحافظكم ، وسينجِّيكم من شر الأعداء ، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير ، ويعذِّب عدوَّكم بأنواع العذاب ، ويعوِّضكم عن هذه البليَّة بأنواع النِعمِ والكرامة ، فلا تشكوا ولا تقولوا بألسنتكم ما يُنقِص من قدْركم[1] »

وهذا الصبر النادر العجيب الذي تحلَّى به الأنبياء والشهداء ، فمنعهم حتى من التساؤل عن سبب ما يبتلون به . . هو الذي يعجز تفكيرنا البشري عن إدراك ماهيته ، إلا أننا من وُجهة قدرتنا المحدودة لا نملك إلا أن نفهم الحكمة الإلهية التي سنَّت لهؤلاء الأخيار سُنُن الشهادة ، فكأنهم فَرِحون بها ، وفرحهم يمنعهم حتى من التساؤل ما داموا قد أُعطُوا مَلكة تبصُّرِ نتائج صبرهم واستشهادهم ، وما هيَّأه الله سبحانه وتعالى لهم من نعمٍ وجنان .

ويحث عيسى « ع » تلاميذه الذين سيحملون رسالة المسيحية من بعده يحثهم أيضاً على الصبر قائلاً عندما دنت ساعته :

« الآن تؤمنون ، ها هي الساعة آتية ، وإنها قد أتت ، تتفرَّقون فيها فيذهب كلُّ واحد في سبيله ، وتتركوني وحدي ، كلاَّ لستُ وحدي ، إن الرب معي ، قلت لكم هذه الأشياء ، ليكون لكم بي السلام ، ستعانون الشدَّة في العالم ، فاصبروا لها لقد

---

(١) جلاء العيون للمجلسي/ عن المقتل للمقرم .

غلبتُ العالم[1] » .

والرؤيا التي استشفَّها الحسين « ع » في خضمِّ الشدائد التي حلَّت به وبآل بيته وصَحبه ، فبشَّرهم بتعويض بليَّتهم بنعم وكرامة . . هي ذاتُ الرؤيا التي بشَّر بها المسيح رُسُله بقوله : « **ستبكون وتنتحبون ، ستحزنون ولكن حزنكم سيتبدَّلُ فرحا[2]** » .

فما الذي يمكن لنا كباحثين ومطَّلعين أن ندركه من هذه الأمثولات الإلهية التي لا مجال لنا إلى إدراكها أو الغوص في حكمتها المقدسة . . وما الرأي لدى أولئك المشكِّكين بواقعية ووعي ثورة الحسين . . بكلِّ ما سبق ذكره ، من أن البرَرَة كُتبتْ لهم حياتهم ومصائرهم في « **الصحيفة الإلهية** » التي يقف عليها الأنبياء فتتكشَّف أمامهم حجُبَ الغيب وتُهتكُ لوعيهم سُتُرُ المستقبل . . ؟.

ألا يصحُّ بموقف الذين تناولوا ثورة الحسين « ع » بمقياس الربح والخسارة والثورات العسكرية والنتائج المادية والزمانية والمكانية في حينها ، ألا يصح فيهم وبسوْءِ نواياهم ، قول الإمام أبي جعفر الباقر « ع » :

« **إني لأعجب من قوم يتولونا ويجعلونا أئِمة ويصفون أن طاعتنا مُفترضة كطاعة رسول الله « ص » ثم يكسرون حجتهم ويخصون أنفسهم لضعف قلوبهم فينتقصونا حقَّنا ويعيبون ذلك على من أعطاه الله برهان حقِّ معرفتنا والتسليم لأمرنا ، أترون الله تعالى افترض طاعة أوليائه على عباده ثم يُخفي عليهم أخبار السماء ويقطع عنهم مواد العلم فيما يرد عليهم مما فيه قوام دينهم . . ؟[3]** »

---

(١) يوحنا ١٦/ ٣٢ - ٣٣

(٢) يوحنا ١٦/ ٢٠

(٣) الكافي على هامش مرآة العقول ج١ ص١٩٠ باب إنهم يعلمون ما كان ، وبصائر الدرجات للصفار ص٣٣ ، والخرايج للراوندي ص١٤٣ الهند .

الحسين يستوحي مقتله

قبل خروجه من مكة وقف يخطب بما أُوحي له في قصة استشهاده ، حتى لكأنَّه يقرأ مخطوطاً أمام ناظريه . قال « ع » :

« الحمد لله وما شاء الله ولا قوة إلا بالله وصلى الله على رسوله ، خُطَّ الموتُ على ولد آدم مخطَّ القِلادة على جيد الفتاة ، وما أولهَني إلى أسلافي إشتياق يعقوب إلى يوسف ، وخير لي مصرعٌ أنا لاقيه ، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلاة بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جُوفاً وأجربة سغبا ، لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم ، رضا الله رضانا أهل البيت ، نصبُر على بلائه ويُوفينا أجور الصابرين ، لن تشذَّ عن رسول الله لُحمته بل هي مجموعة له في حضيرة القدس تقرُّ بهم عينه وينجز بهم وعده ، ألا ومن كان فينا باذلاً مُهجته مُوطِناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا ، فإني راحلٌ مُصبِحاً إن شاء الله تعالى[1] » .

وحاول جماعة من أهل بيته وصَحبه صرفه عن السفر والتريُّثِ خوفاً من غدر أهل الكوفة ، لكنه « ع » كان يصارح الجميع بما كُتب له ، وبما يُوحَى اليه ، وكان شوقه للقاء أسلافه ينعكس نوراً سنياً فوق صفحة وجهه ، فكان يُخيَّل للناظر إلى شيبته المقدسة بأنه لم يعُد متواجداً على هذه الأرض إلا بجسده فقط ، وأنَّ تلهُّفَه للشهادة طار بوجدانه وفكره إلى حيث يُريه الله تعالى مكانه في النعيم بعد قليل من الوقت . لذا فقد أجاب إبن الزبير :

« إن أبي حدثني أن بمكة كبشاً به تُستحَلُّ حُرمتها ، فما أُحبُّ أن أكون ذلك

---

(١) اللهوف ص٣٣ ، وابن نما ص٢٠

الكبش ، ولئن أقتل خارجاً منها بشبر أحبُّ إليَّ من أن أُقتلَ فيها ، وأيم الله لو كنت في ثقب هامةٍ من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا فيَّ حاجتهم والله ليعتدنَّ عليَّ كما اعتدت اليهود في السبت[1] » .

وكان الوحي ينزل فوق رأسه فينقله إلى مطارح مصرعه ، ولم يشأ عليه السلام أن يتحدث برؤاه لأحد حتى يلقى ربه ذا الجلال .

ولما أقام « ع » في الخزيمية يوماً وليلة أقبلت إليه أخته زينب « ع » وقالت : إني سمعت هاتفاً يقول :

ألا يـــاعين فـــاحـتـــفلي بجهـــدي .
فمن يـــبـكي على الشـــهـــداء بـــعـــدي
على قوم تسوقـــهـــم المنـــايـــا
بمقـــدار إلى إنجاز وعـــــدي

فقال : « ياأختاه كلُّ الذي قُضي فهو كائن[2] » .

ومع عبارة « كلُّ الذي قُضيَ فهو كائن » يختتم الحسين « ع » سلسلة رؤاه في كل ما سيبلوَه الله به فوق أرض كربلاء ، وبهذه العبارة رد كافٍ على أهل المظنَّة الذين نعتوا ثورته بـ « الغضبة العسكرية » التي كان ينقصها التخطيط العسكري السَّليم كي تبلغ النصر في ميزان النصر ، وكأن السرَّ الإلهي أعمى على قلوب هؤلاء فحجب عن بصائرهم فهم مغزى الثورة على حقيقتها . . وبأن قوَّتها تكمن في ضعفها العسكري ، وبأن نصرها منبثقٌ من انكسارها ، وبأن فلاحها مُستمدٌّ من خذلانها ، وبأن عظمتها

---

(١) تاريخ مكة للأزرقي ج٢ ص١٥٠

(٢) وردت في مجلد إبن نما ص٢٣

التي ما زادتها القرون إلا تأجُّجاً ، كانت من لُحمة العظمة الربَّانية التي رسمتها بهذا الشكل الذي قُضيت به ، كي تكون نتائجها وآثارها بالشكل الذي آلت إليه .

فياليت أولئك المتجزئين على ردِّ حقائق ثورة فرخ النبي ، وريحانته ،وسيد شباب أهل الجنة ، وأبي الشهداء في عمر البشرية ، إلى غير منابعها ومصبِّها ، ياليتهم يرعوون ويثوبون عن غيِّهم وكُفرهم ، قبل أن تُنزل بهم العناية الإلهية غضبتها نتيجة ما أوّلوا حكمتها التي لا يرقَى إليها عقل بشري ، إلى تأويلاتٍ شتَّى سُداها الضعف البشري ، ولُحمتها الكفر بالمسلَّمات والبدهيات العُلوية .

معجزات الشهادة

المُعجزات التي تعقب الشهادات العظيمة ، ما هي إلا غضبة الخالق من عقوق خلقه الذي انتهى إلى قتل شهيده ، وسبحانه يجري هذه المعجزات بشكل صاعق له ردَّة الصدمة الكهربائية العنيفة ، بهدف إيقاظ الضمائر لتنظر فيما جرى ، بقتلها هذا الشهيد الذي لم يُؤتَ على حياته بأية معجزات تُنجيه من مصيره المحتوم ، فكانت المعجزات بعد مماته شاهداً على قدرة الله ، وتوكيداً على مكانة الشهيد المقدَّس ، وبأن ما قاله وبشَّر به هو صوت الحق الإلهي الذي يتوجَّب على الجميع إعادة سماعه إذا فاتهم ذلك والشهيد بينهم حي بطبيعة بشرية لم تكن كافية لمن قَسَت قلوبهم وغلُظت ضمائرهم ، كي تقنعهم بقوة العدل الذي جاء يبشِّر به .

وقد اشترك الأنبياء والشهداء بقواسم مشتركة عديدة ، أفاضت على عقول الناس فيضاً من تشابه الرسالات السماوية في جوهرها الأصلي ، وإن اختلفت باختلاف أساليبها ، التي لو شاء المولى عزَّ وجل لجعلها واحدة ، لكن قوة إقناعها تكمن في اختلافها . وما دامت حياة الأبرار المختارين من الله تتشابه في ابتلائهم بشتى الرزايا ، وبصبرهم الواحد حيالها ، وبنهاياتهم الأليمة التي لولاها لما كان ثمَّة أديان

حُفظت لنا حتى الآن . . . فإن الصدمات الإلهية التي تعقب استشهادهم ، هي من التشابه والقوة بحيث لا تدع مجالا للشك بأنها الانطباعات الفورية والقوية على مكانة الشهيد وعِظَم رسالته .

واذا كنا في صدد الحديث عن أوجه الشبه بين شهيدي المسيحية والإسلام عيسى والحسين « ع » فإنَّا لواجدون هذا الشبه جلياً في نوعية المعجزات التي أعقبت شهادتيهما ، بما تتلاءم مع قسوة ميتتيهما ، وإذا كنا راغبين في حصر هذا التشابه بين الشهيدين العظيمين ، فذلك انسجاماً مع بحثنا لمدى فهم الفكر المسيحي خاصة والإنساني عامة لملحمة استشهاد الحسين ، بإبراز كل نقاط التشابه التي تُدنيها من ملحمة فداء عيسى .

حينما استشهد الحسين « ع » أظلمت الدنيا ثلاثة أيام واسودت سواداً عظيماً حتى ظن الناس أن القيامة قامت ، وبدت الكواكب نصف النهار ، ولم يُرَ نور الشمس ثلاثة أيام كاملة ، حيث كان سيد شباب أهل الجنة عارياً على وجه الصعيد (١) .

وحينما استشهد عيسى « ع » إنتشر ظلام شديد على الأرض كلِّها منذ الساعة السادسة إلى التاسعة ، حيث لفظ المسيح روحه وصرخ صرخة قوية ، وإذا ستار الهيكل قد انشق شطرين من الأعلى إلى الأسفل ، وزلزلت الأرض ، وتصدَّعت الصخور ، وتفتَّحت القبور (٢) . .

هاتان المعجزتان العظيمتان تدلاَّن على عظمة الشهيدين ، وعلى عظم غضبة

---

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٣٩ ، والخصائص الكبرى ج ٢ ص ١٢٦ ، والصواعق المحرقة ص ١١٦ ، والخطط المقريزية ج ٢ ص ٢٨٩ ، وتذكرة الخواص ص ١٥٥ ، والمقتل للخوارزمي ج ٢ ص ٩٠ ، وابن لهيعة عن أبي قبيل المعافري إذ قال : إن الشمس كُسفت حتى بدت النجوم وقت الظهر ، وإن الأرض أظلمت .

(٢) متى : ٢٧/٥١ – ٥٢ .

الخالق سبحانه وتعالى ، الذي أظلم الدنيا ثلاثة أيام طيلة بقاء سيد الشهداء عارياً في فلاة كربلاء ، وأظلمها ثلاث ساعات طيلة بقاء شهيد المحبة عارياً في الجلجلة ، كيلا تكشف عُريهُما المقدَّس عين ، ومن أجل إشراك الظواهر الطبيعية التي هي إحدى العلل في مجرى الكون [1] ، والذي أوقف هذا المجرى شهادتا عيسى والحسين غضباً على مقتلهما ، وإظهاراً لغضبة الخالق على خلقه الذين اضطهدوا وقتلوا الشهيدين العظيمين .

وعن زرارة عن أبي عبد الله « ع » أن السماء بكت على الحسين أربعين صباحاً بالاحمرار ، والأرض بكت أربعين صباحاً بالسواد ، والشمس بكت عليه أربعين صباحاً بالكسوف والحمرة [2] .

وبعد ثلاثة أيام من دفن عيسى ، حدث زلزال شديد وهبط ملاك الربِّ نازلاً من السماء ودحرج حجر القبر الضخم وقعد عليه ، وكان هذا إيذاناً بقيامة المسيح من بين الأموات صاعداً إلى السماء كما جاء في الآية التي نزلت يوم مولده [3] .

وفي ذات الليلة رأت أم سلمة رسول الله « ص » في المنام أشعثَ مغبرًّا وعلى رأسه التراب فقالت له : « **يارسول الله مالي أراك أشعث مغبرًّا ؟** » قال : « **قُتل ولدي الحسين ومازلتُ أحفر القبور له ولأصحابه** [4] » . فانتبهت فَزِعة ونظرت إلى

---

(١) إستنكر بعض المؤرخين حدوث مثل هذه الظواهر ، ووصفها ابن تيمية في كتابه « رأس الحسين » ط القاهرة ص ١٣٠ ، بالغلوّ في الإيراد ، وفي المسيحية تقدير هذه الظواهر كجزء من علل الكون المُسيَّر بعناية إلَهية ، فقد ورد في أعمال الرسل ٢/١٩ – ٢٠ قولُ عزَّته : « وأجعل عُلوًّا أعاجيب في السماء ، وسفلاً آيات في الأرض ، فتتبدَّلُ الشمس بنورها ظلاماً ، والقمرُ دما » .

(٢) وردت في عدة مصادر سأذكرها بدون ترقيم وهي : الخصائص الكبرى ، تاريخ إبن عساكر ، تذكرة الخواص ، الإتحاف بحب الأشراف ، المناقب لابن شهراشوب ، النجوم الزاهرة ، كنز العمال ، الصواعق المحرقة .

(٣) متى : ٢/٢٧ – ٣ .

(٤) راجع آمالي ابن الشيخ الطوسي ص ٥٦ ، وتهذيب التهذيب ج ٢ ص ٣٥٦ ، وذخائر العقبى للمحب الطبري ص ١٤٨ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣٩ ، وسيرة أعلام النبلاء للذهبي ج ٣ ص ٢١٣ .

القارورة التي فيها تراب أرض كربلاء فإذا به يفور دماً ، وهو التراب الذي دفعه النبي « ص » إليها وأمرها أن تحتفظ به [1] ، وقد سمعت ليلتها صوتاً هاتفاً في جوف الليل ينعى الحسين « ع » فيقول :

أيها القاتلون جهلاً حسيناً
ابشروا بالعذاب والتنكيل
قد لُعنتم على لسان ابن داود
وموسى وصاحب الإنجيل
كلٌ أهل السماء يدعو عليكم
من نبيٍّ ومُرسَلٍ وقتيلِ [2]

وفي يوم عاشوراء رأى ابن عباس رسول الله صلى الله عليه وسلم اشعث مغبرًا وبيده قارورة فيها دم فقال له : « **بأبي أنت وأمي ما هذا . ؟** » قال : « **هذا دم الحسين وأصحابه لم أزل التقطُه منذ اليوم** [3] » .

ويُحدِّث دعبلُ الخزاعي عن جده ، ان امّه سعدى بنت مالك الخزاعية أدركت الشجرة التي كانت عند أم معبد الخزاعية وهي يابسة ، وببركات وضوء النبي « ص » في أسفلها أورقت وأثمرت كثيراً ، ولما قُبِضَ النبي « ص » قلّ ثمرُها ، ولما قُتل أمير المؤمنين « ع » تساقط ثمرها ، وكانوا يتداوون بورقها . وبعد

---

(١) راجع مرآة الجنان لليافعي ج ١ ص ١٣٤ ، وكامل إبن الأثير ج ٤ ص ٣٨ ، ومقتل الخوارزمي ج ٢ ص ٩٥ .

(٢) راجع تاريخ إبن عساكر ج ٤ ص ٣٤١ لقد ذُكرت الأبيات الثلاثة ، وفي تاج العروس ج ٧ ص ١٠٣ ذُكر البيت الأول والثالث — نقلاً عن المقرم .

(٣) تفرّد به الإمام أحمد ص ٢٤٢ وإسناده قوي ، وذُكر في تاريخ بغداد للخطيب ج ١ ص ١٤٢ ، وفي طرح التثريب ص ٢٢ .

برهة نظروا إليها وإذا بساقها ينبع دماً ، فأفزعهم هذا الحادث ، ولمّا أظلم الليل سمعوا بكاءً وعويلاً ولم يروا أحداً وقائل يقول :

يا ابن الشهيد ويا شهيداً عمه
خير العمومة جعفر الطيار
عجباً لمصقول أصاب حدّه
في الوجه منك وقد علاك غبار

وقد أخذ البيت الثاني أحد شعراء الشيعة القدامى ونظّمه في ثلاثة أبيات يقول فيها :

عجباً لمصقول علاك فرنده
يوم الهياج وقد علاك غبار
ولأسهم نفذتك دون حرائر
يدعون جدك والدموع غزار
هلا تكسرت السهام وعاقها
عن جسمك الإجلال والإكبار (١)

وإذا كانت الطبيعة والوحوش والأشياء قد انفلتت من إسارها ، وانفعلت حزناً على الحسين ، فإن الرسول الكريم « ص » الذي قال : « حسين مني وأنا من حسين » . . حضر المعركة التي عُذّب فيها بضعته وريحانته ، وشاهد ذلك الجمع الحاقد المتألّب على استئصال أهله من جديد الأرض وبمرأى منه عويل الأيامى ونشيج الفاقدات وصُراخ الصبية من الظمأ ، وقد سمع العسكر صوتاً

(١) مناقب ابن شهراشوب ج٢ ص٣٨٠

هاتِلاً : « ويلكم ياأهل الكوفة إني أرى رسول الله « ص » ينظر إلى جمعكم مرة وإلى السماء أخرى وهو قابض على لحيته المقدسة » . لكن الهوى والضلال المُستحكِم في نفوس ذلك الجمع المغمور بالأطماع ، أوحى إليهم « إنه صوت مجنون » ، فصاح الجمع : « لا يهولنَّكم ذلك » وكان أبو عبد الله الصادق « ع » يقول : « لا أراه إلا جبرائيل[1] » .

ولما حُمِل الرأس الشريف إلى دمشق ونُصِبَ في موضع الصيارفة وهناك لغط المارة وضوضاء المتعاملين ، فأراد سيد الشهداء توجيه النفوس نحوه ليسمعوا عظاته ، فتنحنح الرأس تنحنحاً عالياً فاتجهت إليه الناس وأعترتهم الدهشة حيث لم يسمعوا رأساً مقطوعاً يتنحنح قبل يوم الحسين « ع » فعندها قرأ سورة الكهف إلى قوله تعالى : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » .

وصُلِبَ على شجرة فاجتمع الناس حولها ينظرون إلى النور الساطع فأخذ يقرأ : « وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقلبٍ ينقلبون[2] » .

وقال هلال بن معاوية : « رأيت رجلاً يحمل رأس الحسين « ع » والرأس يخاطبه فَرقْتُ بين رأسي وبدني ، فرفع السوط وأخذ يضرب الرأس حتى سكت[3] » .

ويحدث إبن وكيدة أنه سمع الرأس يقرأ سورة الكهف فشكَّ في أنه صوته أو غيره فترك « ع » القراءة و التفت إليه يخاطبه : « ياابن وكيدة أما علمت أنّا معشر الأئِمَّة أحياء عند ربِّهم يُرزقون . ؟ » .

---

(١) كامل الزيارات .

(٢) إبن شهراشوب ج٢ ص١٨٨

(٣) شرح قصيدة أبي فراس ص١٤٨

فعزم على أن يسرق الرأس ويدفنه ، وإذا الخطاب من الرأس الشريف : « يابن وكيدة ليس إلى ذلك من سبيل إن سفكهم دمي أعظم عند الله من تسييري على الرمح فذرهم فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يُسحبون[1] » .

وقال المنهال بن عمرو : « رأيت رأس الحسين بدمشق على رمح وأمامه رجل يقرأ سورة الكهف حتى إذا بلغ إلى قوله تعالى : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا » . نطق الرأس بلسان فصيح : « أعجب من أصحاب الكهف قتلي وحملي[2] » .

ولما أمر يزيد بقتل رسول ملك الروم حيث أنكر عليه فعلته نطق الرأس الشريف بصوت رفيع : « لا حول ولا قوة إلا بالله[3] » .

وحدَّث ابنُ لهيعة أَنه رأى رجلاً متعلقاً بأستار الكعبة يستغيث بربِّه ثم يقول : « ولا أراك فاعلا » ، فأخذته ناحية وقلت : « إنك لمجنون فإن الله غفور رحيم ولو كانت ذنوبك عدد القطر لغفرها لك » .

قال لي : « إعلم كنتُ ممَّنْ سار برأس الحسين إلى الشام ، فإذا أمسيْنا وضعنا الرأس وشربنا حوله ، وفي ليلة كنت أحرسه وأصحابي رقود فرأيت برقاً وخلقاً أطافوا بالرأس ، ففزعت ودُهشت ولزمت السكوت ، فسمعتُ بكاءً وعويلاً وقائلاً يقول : « يامحمد إن الله أمرني أن أطيعك فلو أمرتني أن أُزلزل بهؤلاء الأرض كما فعلتُ بقوم لوط » : فقال له : « ياجبرائيل إن لي موقفاً معهم يوم القيامة بين يدي ربِّي سُبحانه » .

---

(١) شرح قصيدة أبي فراس ص ١٤٩

(٢) الخصائص للسيوطي ج٢ ص١٢٧ .

(٣) مقتل العوالم ص١٥١

فصحت يارسول الله الأمان فقال لي : « **إذهب فلا غفر الله لك ، فهل ترى الله يغفر لي[1] . . ؟** »

وفي بعض المنازل وضعوا الرأس المُطهر فلم يشعر القوم إلا وقد ظهر قلمٌ حديدٌ من الحائط وكتب بالدم[2] :

أتـرجو أمّـةٌ قـتـلت حسيـنـاً
شـفـاعـة جـدّه يـوم الحسـابِ ؟

وقبل أن يصلوا الموضع بفرسخ وضعوا الرأس على صخرة هناك ، فسقطت منه قطرة دمٍ على الصخرة فكانت تغلي كلّ سنةٍ يوم عاشوراء ، فيجتمع الناس هناك ويُقيمون المأتم على الحسين حولها ، وبقي هذا إلى أيام عبد الملك بن مروان فأمر بنقل الحجر فلم يُرَ له أثرٌ بعد ذلك[3] .

وقد روى إبن قولويه في الكامل : أنهم كانوا يسمعون نوْحَ الجِن في الليالي التي قُتل فيها الحسين « ع » ، ومن شعرهم :

أبـكي ابـن فـاطـمـة الـذي
مـن قـتـلـه شـاب الـشـعـر

ولـقـتـلـه زلـزلتم
ولـقـتـلـه انخسف الـقـمـر

---

(١) اللهوف ص٩٨

(٢) مجمع الزوائد لابن حجر ج٩ ص١٩٩ ، والخصائص للسيوطي ج٢ ص١٢٧ ، وتاريخ إبن عساكر ج٤ ص٣٤٢ ، وتاريخ القرماني ص١٠٨ ، ومثير الأحزان ص٥٣ .

(٣) نفس المهموم ص٢٢٨ ، ونهر الذهب في تاريخ حلب ج٣ ص٢٣ ، وكتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات ص٦٦ .

وذكر إبنُ نما عن أبي حباب الكلبي قال : « **لما قُتِل الحسين « ع » ناحت عليه الجِّن فكان الجصَّاصون يخرجون بالليل إلى الجبَّانة فيسمعون الجِّنَّ يقولون** » :

مسح الحسينُ جبينه
فله بريقٌ في الخدود

وأبوه من أعلى قريشٍ
وجدُّه خيرَ الجدود

ويُشيرُ أبو العلاء المعرِّي إلى قتل الحسين واحمرار السماء حُزناً عليه في قصيدة يقول مطلعُها :

علِّلاني فإن بيض الأماني
فُنيت والظلام ليس بفان

وعلى الدهر من دماء الشهيدين
علي ونجله شاهدان

فهما في أواخر الليل فجران
وفي أولياته شفقان

ثبتا في قميصه ليجيء الحشرُ
مُستعدياً إلى الرحمن

ومما هو معروف أن المسيحَ كانت له سلطة على الجن والأرواح وجُندِ الملائكة ، فقد كانت تأتمر بأمره « ع » فتنقله بلمحة طرف إلى أي مكان ، ويأمرها فتنفذ له ما يأمرها به ، وعندما تبكي الجن على مقتل الحسين ، فإن في هذه الحكمة الأعجوبة لمعجزة خارقة أُتيَ بمثلها لعيسى « ع » .

وإذا كنا قد خلصنا إلى أوجه الشبه بين عيسى والحسين «ع» ، وبين شهادتيهما ، والمعجزات الكونية الخارقة التي تلتهما مباشرة . . فإنَّا سنُعرِّج على أوجه الاختلاف القليل بين الشهيدين العظيمين .

حكمة اختلاف الشهادتين

جاء عيسى « ع » إلى اليهودية مبشراً بالعهد الجديد بعد أن فسدت الضمائر ، وحُرِّفت السُّنَّة . وسُنَّت الشريعة ، وقامت دولة الأحبار والشيوخ والفرِّيسيِّين والصدوقيِّين ، وقد أيَّده الله سبحانه وتعالى بمعجزات لم يؤيِّد بمثلها نبياً قبله أو بعده .

وقد لخَّص « ع » بعثه إلى أمةٍ لَعبت بوصاياها وحرَّفت شرائعها حسب أهوائها واضطهدت كل الرسل الذين جاؤوا لهدايتها ، فقال : « **فبمن أشبه هذا الجيل . . ومن يشبهون ؟ يشبهون أولاداً قاعدين في الساحة يصيح بعضهم ببعض** » :

زمَّرنا لكم فلم ترقصوا
ندبنا لكم فلم تبكوا . .

جاء يوحنا المعمدان لا يأكل خبزاً ولا يشرب خمراً فقلتم : « **إن به مسّاً من الشيطان . . وجاء إبن الانسان – المسيح – يأكل ويشرب ، فقلتم هو ذا رجل أكول سكّير صديقٌ للعشّارين والخاطئين ، بَيْدَ أن الحكمةَ قد برّها جميعُ**

بنيها[١] » .

وعيسى « ع » إعتقله اليهود وعذبوه وأهانوه وبصقوا عليه وضفروا رأسه بأكليل شوك وجلدوه وتهكموا عليه وسخروه بحمل صليبه على طريق الجُلجُلة في فلسطين ، وأخيراً قتلوه وطعنوا جنبه بحربة قبل أن يلفظ أنفاسه وكانوا سيكسرون رجليه لكنهم وجدوه ميتاً فلم يفعلوا . لتتم الآية . « **لن يُكسر له عظم**[٢] » .

والحسين « ع » جاء في زمن كانت الديانة التي بشَّر بها جدُّه الكريم ، وليدة تحبو ، بعد أن حقَّقت فتوحات عظيمة ، وأخضعت بقوة تعاليمها وأخلاقياتها الإجتماعية العظيمة ، الشرق والغرب . وعندما شبَّ عن الطوق لمس ما يعتري أمة جده من إنحلال وتكالب على الأطماع الدنيوية بما يناقض بعثها ، فكان عليه أن يتصدى لهذا الأمر الجَّلَل ، فكانت مهمته أعمق غوراً ، ورسالته أكثر تعقيداً من رسالة عيسى « ع » ، سيما إذا نظرنا إلى نوعية الوسائل التي كانت بين يديه ، إذ كما سبق وذكرنا لم تكن للحسين صفة نبوية ، بل كان عليه أن يلجأ إلى الوسائل البشرية التي تُسيِّرها قوة إلهية ، وما ذلك إلا لكي تؤدي رسالته الهدف المنشود منها ، إذ لو جرت رسالته مجرى رسالة عيسى ، لما كان لها هذا الوقع المفجع ، ولو قُتل وحده كما قُتل عيسى وحده ، لما كانت واقعة قتله لتؤجِّج كلَّ هذا التأنيب والشعور بالذنب والإحساس بالتقصير لدى كلِّ مسلم .

وبرأيي أن ظرف أمة الإسلام في ذلك الزمن كان لا بد له من تضحية فائقة تقرب من التهلكة الجماعية ، ليتسنى لها الوقوف حيال تحلُّلِ الأمة التي كان يتأكَّلها من الداخل .

---

(١) لوقا : ٧/ ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ .

(٢) يوحنا : ١٩ - ٣٦

إذن فالظرفان مختلفان بين مجيئ عيسى وبين مجيء الحسين ، وبين ما أعدَّته العناية الإلهية لكل منهما ، وما زوَّدتهما به من اختلاف السُّبُلِ والإمكانات ، سواء ما كان قبل الشهادة أو بعدها .

والحسين « ع » لم يسلم عظمه كما سلم عظم عيسى ، بل إن ما حاقه فوق ثرى كربلاء المقدس ، كان أعظم من احتمال البشر ، بل كان من نوع يُقرِّب سيد الشهداء إلى قائمة الرسل والنبيِّين .

فأي رسول زُرع في جسده أكثر من مائة نبلة . . وأكثر من أربعين طعنة . . وأي نبي قتله العطش مثل ما فُعل بالحسين « ع » . . ؟ وها هو أمير الشهداء وسيدهم يُرمى بسهم في جبهته ، ويُضربُ بحجرٍ فيها ، ويُطعن على قلبه بسهم ذي ثلاث شعب ، ويُرمى في حلقه ، ويُضرب على عاتقه ، ويُطعن في ترقوته وبصدره وبنحره وبجنبه ، ويُسلب وتُقطع إصبعه من أجل خاتم ، وتُقطع يده اليمنى ثم اليسرى من أجل تكة سروال ، ويُحتزُّ رأسه الشريف ، ويُوطأ بعشرٍ من الخيل صدراً وظهراً ، ثم يُحمل رأسه على سن رمح إلى دمشق ، حيث يوضع بمهانة أمام الفاسق يزيد لينكت ثناياه بالقضيب ، ويُعلق في سوق الصيارفة ويُشرب الخمر حوله ، ويُقال الكفر أمام كرامته . .

فهل يبقى للمُقارِن المتمعِّن في هذه الميتة الأليمة تردُّد في وضع شهادة الحسين « ع » في المقام الأول بين كل الشهادات التي ذكرها التاريخ . . ؟

وإذا كانت قيمة الشهادة منوطة بما يتحمله الشهيد من أذى ، فإنه لا مِراءَ فيه أن الشهادة التي تمَّت في صحراء كربلاء ذات قيمة عليا ، لا تبلغها أية قيمة أخرى لأية شهادة ، لا سابقة ولا لاحقة .

وهي شهادة أكبر في مقياس المعاناة من شهادة عيسى « ع » ولئن تعادلت معها في مقياس النتيجة ، فإن لها وقع أشد على القلوب ، وإذا تذكرتها العقول فإن

لذكراها رنّة حزنٍ وأسى تحفر في الحنايا والصدور أخاديد عميقة وأثلاماً لا تندمل .

وإذا كان غدر العدو متوقَّعاً ، ولا يثير وقوعه أية دهشة . . فإن غدر القريب هو الغدر الأليم الوقع ، والحسين غَدَرَه أقرب الناس إليه ، وخذلته شيعته ، وحاصرته وقتلته ومثّلت به جموع مسلمة مُحتسبَة على دين محمد ، وقد حاربته بإسم الإسلام الذي أُنزل على جده الرسول محمد « ص » ، بينما قتل عيسى ، اليهود أعداء المسيحية ، وعلى الرغم من قسوتهم وتسفيههم لرسول الإنسانية ، فإنهم في مرآة الدموية والوحشية ، يبدون حِملاناً وديعة بالمقارنة مع الذين قضوا على الحسين وآل بيته وأصحابه الأطهار ، فالوحشية التي شهدتها كربلاء ليس لها شبيه حتى بين أشد الوحوش ضراوة ، وكلمة « وحشية » لا تفيها حقَّها من الدِّلالة عليها ، فقد فاقت الوحشية بمراحل ، وتقدمت على الدموية بخطوات ، وصار لِزاماً أن يُوجد لها تعبير يلائمها . لكن العقل البشري الذي وضع لكلِّ مظهرٍ حدوداً قصوى في الفعل والتعبير عن هذا الفعل ، ولكل موقف أقصى ما يلائمه من كلمات تدلِّلُ عليه ، لم يستطع تخطِّي تعبيري الوحشية والهمجية ، مع أن الواقعة كانت تتخطاهما بمراحل شاسعة .

ولعلَّ خير شاهد على همجية ما جرى في كربلاء وبعدها ، هذه الحادثة الصغيرة في فعلها ، الكبيرة في مرماها ، والتي تُدلِّلُ بشكل واضح على موت كل ضمير وإحساس بشري في نفس صاحبها ، وتفاقُم كل أنواع الخِسَّة والوحشية في وجدان فاعلها .

فها هو خولي بن يزيد الاصبحي يسرح برأس الحسين بأمر من إبن سعد ، وقد غدا به إلى قصر الإمارة حيث قابل إبن زياد ووضع الرأس بين يديه وهو يقول :

إملأ ركابي فضة أو ذهباً
اني قتلت السيد المحجبا

وخيرهم من يذكرون النسبا
قتلت خير الناس أماً وأبا [1]

هذا المسلم بالإسم الذي عافه الإسلام ، يفخر بكل الخِسَّة التي يمكن أن يعمر بها قلب بشري ، بأنه قتل السيد المحجبا ، وقضى على خير الناس أماً وأبا ، ويفتح باب نفسه التي باعها للشيطان ينتظر الفضة والذهب .

ولكن إبن زياد الذي لا يقل عنه خِسَّة وضِعة ، يستاء من قوله أمام الجميع ، فيجيبه : « **إذا علمت انه كذلك فلمَ قتلته ؟ والله لا نِلتَ مني شيئا** » :

وفي إجابته هذه لا يأخذنَّ بك الظن أيها القارىء ، على أن إبن زياد قد تحرَّك ضميره للحظات فنطق لسانه بما نطق . . لا . بل هو اغتاظ من وصف خولي أمام الجميع بأنه قتل خير الناس أماً وأبا ، في وقت كان ينتظر منه أن يصف ويُطنبَ ويُلفِّق ويسُبَّ على الحسين أمامه وأمام الجمع المستمع . . لذا فقد حجب عنه الجائزة التي كان ينتظرها .

وتتالت المعجزات الخارقة بعد شهادة الحسين « ع » ، ولعلَّ معجزات الطبيعة هي أبسطها ، فالمعجزات الحقَّة كانت تلك التي قلبت أمة الإسلام رأساً على عقِب بعد فترة من الزمن سنأتي على ذكرها في مكان آخر من الكتاب .

وكانت المعجزات التي أنزلها الله تعالى بعد استشهاد عيسى والحسين « ع » ، البدايات الأولى المادية ، لما سيلي بعدها من معجزات على مستوى الروح والعقيدة

---

(١) إختلف المؤرخون بقائل هذه الأبيات . فعند ابن جرير الطبري ص٢٦١ ، وابن الأثير ص٣٣ إنه سنان ابن أنس ، أنشدها على عمر بن سعد ، وفي شرح المقامات للشربشي ص١٩٣ أنه أنشدها على إبن زياد ، وفي كشف الغمَّة للأربلي ، ومقتل الخوارزمي ص٤٠ أن بشر بن مالك أنشدها على إبن زياد ، وفي رياض المصائب ص٤٣٧ أن الشمر قائلها ، وفي العقد الفريد ص٢١٣ سماه خولي ابن يزيد الاصبحي وقد قتله ابن زياد لقوله الأبيات .

والصراط ، مما يدلُّ دِلالةً واضحة على أن الأنبياء والشهداء إنما أُوذوا وصبروا من أجل أن يكشف سبحانه وتعالى للبشر قضايا الحقِّ الأولى ، وأن يبرزها لبصائرهم ، ويعلنها لهم على اختلاف أديانهم ، على أنها قضايا واحدة لا تنفصم ، وهي لا تتغير لأن ناموس الطبيعة البشرية لا يتغير ، ولأن السر الإلهي كلٌّ لا يتجزأ .

وعندما ينيخُ الضعف على النفوس فتغدو العقيدة ضعفاً لا يتَّصل بقوة ، بعد أن كانت قوة لا تتصل بالضعف ، فإن المصلحين الشهداء ينبتون من بين المجتمع المتفكِّك كما تنبتُ الشجرة الخيِّرة من بين العليق ، فيشدُّون على عوامل الضعف ، وينشطون العقيدة بنفحة من روح تضحياتهم التي تُختتمُ دوماً بالجود في نفوسهم بعد أن يكونوا قدَّموا لوحاً جديداً لدستور أخلاقي تتفتح عليه البصائر المعمية فجأة بعد استشهادهم ، فتبدأ كيمياء هذا الدستور تفعل فعلها في النفوس والضمائر حيث مكامن العقيدة ، فتصلُحُ العقائد ، وتسمو القلوب ، وتُدعَّمُ الشهادة التي أطلقت هذا الدستور ، بشهادات تليها وتُشابهها قوة وعنفوانا . وإذا بانتفاضة الإيمان الجديدة تتأجَّجُ كلهب البراكين التي سُدَّت عليها المنافذ قروناً فتفجَّرت بغتة بفعل زلزال مُخلخل .

ولم تكن ثورة فرخ النبي « ع » إلا هذا الزلزال الذي خلخل كيان الأمة الإسلامية ، فصدَّع مداميك انحرافها ، وردم فجوات إيمانها ، فبدت بعده ناصعةً متماسكةً مغسولةً بزوفى الشهادة ، ومعمَّدةً بدم الطُهر الذي جعلها بيضاء كالسَّوسن ونقيةً كالزنبق ، وشفافةً كوردةٍ في صباحٍ مشرق .

معجزات الشهادة في ضمير الإسلام

ليت أشياخي ببدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسل

لاهلّوا واستهلّوا فرحاً
ثم قالوا يا يزيد لا تشل

قد قتلنا القرم من ساداتهم
وعدلناه ببدرٍ فاعتدل

لعبت هاشمُ بالملك فلا
خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل (١)

---

(١) بعض المؤرخين كالخوارزمي وابن أبي الحديد في شرح النهج ص٣٨٣ ، وإبن هشام في واقعة أُحد ، ذكروا أن عدد هذه الأبيات ستة عشر بيتاً وليس فيها ما ذكره إبن طاووس إلا الأول والثالث ، وكان عجز الثالث في روايتهم « وعدلنا مَيْلَ بدرٍ فاعتدل » ، وفي رواية أبي علي القالي في الأمالي ص١٤٢ والبكري في شرحه ص٣٨٧ « وأقمنا مَيْلَ بدرٍ فاعتدل ».

هذه قولة يزيد أمام ركب السبي في دمشق ، وأمام رأس الحسين الطاهر ، وهي قولةٌ تدل على سَدْرةِ يزيد في كبريائه وغروره الذي عُرف به ، وكان يتمنى لو أن أشياخه الذين قضوا ببدر شهدوا انتصاره هذا ، ويتنبأ بأنهم سيهلّون ويستهلّون فرحاً ، ويباركون يمينه ويدعون لها بألا تُشلَّ على تعديلِ ميزان بدرٍ بكربلاء .

وكانت قولةٌ فيها من غفلة المتغافل الشيء الكثير ، يقابلُها في الوعي المستشفِّ للغد ، خطبة العقيلة زينب المستلهَمَة عن لسان أبيها أمير المؤمنين « ع » :

« الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله وآله أجمعين . صدق الله سبحانه حيث يقول » : « ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السّوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » . أظننت يايزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نُساق كما تُساق الأسارى ، أن بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة . . وأن ذلك لِعظَم خطرك عنده ، فشمختَ بأنفك ونظرت في عطفك جذلانَ مسروراً حين رأيتَ الدنيا لك مُستوسقة ، والأمور مُتَّسقة ، وحين صفا لك مُلكنا وسُلطاننا . . فمهلاً مهلاً . أنسيت قول الله تعالى :« ولا يحسبنَّ الذين كفروا إنما نُملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نُملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين[1] » .

وكأن زينب في ردِّها المفحم على يزيد الآثم كانت تصوِّرُ له مستقبل الأيام ، وما يخبِّئه الغد لبني أمية من مخاز ونهايات ، وتعرضُ أمام الحضور ، الجانب الواعي المستشرف لموقف يزيد المتغافل المُتعامي عن رؤية الحقائق كما ستكون في القريب العاجل .

ولم تطُلْ فرحة يزيد ، إذ لم تنقضِ سوى ساعات معدودة على ذيوع الخبر في بيته

---

(١) جاء ذكر هذه الخطبة في بلاغات النساء ص٢١ ، ومقتل الخوارزمي ج٢ ص٦٤

قبل أن ينتشر في عاصمة مُلكه وباقي الأنحاء الإسلامية . . حتى كانت نساؤه تُنحنَ مشفِقات من هول ما بلغهُنَّ ، وإبن الحكم ينعي فعلة ابن زياد ويقول : « **حُجبتم عن محمد « ص » يوم القيامة ، لن أجامعكم على أمرٍ أبدا** » ، وإبنه معاوية يبكي ، وإذا سُئل عن بكائه كان يجيب : « **نبكي على بني أميَّة لا على الماضين من بني هاشم** » .

وكانت أول صرخة لومٍ وتأنيب بعد الشهادة أطلقتها زينب « ع » في الكوفة ، فاهتزَّت لها الضمائر واستيقظت ، وما قالته زينب إبنة علي للجموع الملتفَّةِ حول ركب السبي ، له وقعُ الفجيعة ولائمة التقصير :

« **الحمد لله والصلاة على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار ، أما بعد ياأهل الكوفة ياأهل الختل والغدر ، أتبكون فلا رقأت الدمعة ، ولا هدأت الرَّنة ، وإنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أَنكاثا ، تتخذون إيمانكم دَخلاً بينكم ، ألا وهل فيكم إلا الصَّلَفُ النَّطِف ، والعُجْبُ والكذب والشنف وملق الأماء وغمز الأعداء أو كمرعى على دِمنة أو كفصة على ملحودة ، ألا بئس ما قدمت لكم أنفسكم إن سخط الله عليكم ، وفي العذاب أنتم خالدون** » .

وما أن سمع الجمع هذا القول حتى أخذتهم العَبرة ، ونشجوا في بكاء شديد وقد لمس كلام زينب « ع » شِغاف ضمائرهم ، بينما أردفت عليها السلام مكمِّلة وسط نهنهاتهم ولومهم لأنفسهم فقالت :

« **أتبكون وتنتحبون ، أي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبدا ، وأنَّى ترحضون ، قتل سليل خاتم النبوَّة ومعدن الرسالة ومدرة حُجَّتكم ومُنامحجتكم وملا خيرتكم ومفزع نازلتكم وسيد شباب أهل الجنة . . ؟ ألا ساء ما تزرون .**

فتعساً ونكساً وبعداً لكم وسحقاً ، فلقد خاب السعيُ ، وتبَّتِ الأيدي ، وخسرت الصفقة ، وبُؤتم بغضبٍ من الله ورسوله ، وضُربت عليكم الذلَّة والمسكنة .

ويلكم ياأهل الكوفة ، أتدرون أيَّ كبدٍ لرسول الله فَرَيتم ؟ وأي كريمةٍ له أبرزتم . . وأي دم له سفكتم . . وأي حرمة له أنتهكتم ؟ لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السموات يتفطَّرْن منه ، وتنشقُّ الأرض ، وتخرُّ الجبال هدًّا .

ولقد أتيتم بها خرقاء شوهاء كطلاع الأرض وملء السماء ، أفعجبتم إن مطرت السماء دما ؟ ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون فلا يستخفنكم المهل ، فإنه لا يحفزه البدار ، ولا يخاف فوت الثأر ، وإن ربَّكم لبالمرصاد[1] » .

وكان لخطاب العقيلة المؤنِّب ردُّ فعلٍ عنيف بين الحشد المُعمى بصيرته بالخداع والمطامع ، فحرَّكت مكامن الخير في ضميره ، فأحسوا بما جنوا ، وضربتهم حيرة أمام بلاغة العقيلة ، فما حاروا إجابة .

وأمام بلاغة زينب « ع » والتي تتالت لتوقظ الضمائر في مواقف شتى ، تتبدَّى حكمة الله تعالى الذي أوحى للشهيد الحسين « ع » بإشراك نساء آل البيت في ثورته ، إذ ما توجهن إلى دمشق حتى بدأن حربهن النفسيَّة ، بالكلمة البليغة والبيان المؤثِّر ، مكمِّلات وثبة أسد كربلاء ، ومواصلات إيصال صرخته في فلاتها : « **أما من مغيث يغيثنا . . أما من ناصر يعيننا** » ، فتتواصل بعدها استجابات الضمائر النائمة . كما استجابت ضمائر الأنصاريين سعد بن الحارث وأخيه أبي الحتوف لصرخة الحسين ، فاستنصراه مستجيبيْنِ لها حتى قُتِلا .

---

(١) ورد ذكر الخطبة في أمالي الشيخ الطوسي ، واللهوف ، وابن نما ، وابن شهراشوب ، واحتجاج الطبرسي .

فإذا قيل في الإسلام : « **بدؤه محمدي وبقاؤه حسيني** » ، فالأجدر أن يُقال أيضا : « **ثورة الحسين بدؤها حسيني واستمرارها زينبي**[1] » .

إذ ماكادت هذه الثورة المباركة تضع أوزارها عسكرياً بتساقط رؤوس آل البيت وسبي الحرائر والعقيلات والأطفال إلى دمشق ، حتى هبَّت عقيلة بني هاشم ، التي قيل فيها العالمة غير المعلَّمة ، والفاضلة والكاملة ، وعابدة آل علي ، هبَّت إلى استلام راية الثورة الحمراء من يد أخيها الحسين « ع » ، ورفعتها فوق رؤوس الخلق بما علق عليها من دماء آل بيت النبي ، وهتفت من تحتها ترثي أخاها الذبيح في فلاة كربلاء الموحشة :

على الطَّف السلام وساكنيه
وروح الله في تلك القباب

نفوس قُدِّست في الأرض قدساً
وقد خُلقت من النطف العِذاب

مضاجع فتية عبدوا فناموا
هجوداً في الفدافد والروابي

علتهم في مضاجعهم كعاب
بأردان منعمة رطاب

وصيَّرت القبور لهم قصوراً
مناخاً ذات أفنية رحاب[2]

---

(١) هذا التعبير من وضعنا ، وقد قصدنا به التركيز بإيجاز على دور العقيلة زينب الذي لا يقل عن دور أخيها « ع » .

(٢) بطل العلقمي ج٣ ص٣٣٥ .

سليلة بيت النبــوة

وزينب الكبرى « ع » سليلة أشرف نسب في الإسلام ، فأمها فاطمة الزهراء بنت رسول الله « ص » ، وأبوها أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد ولدتها أمها بعد ولادة أشرف شهيدين ، سيدا شباب أهل الجنة الحسنين « ع » ، فنشأت في بيت الوحي بعد أن رضعت القُدْسية من ثدي العصمة ، ونهَلَتِ العلم والحُلم ومكارم الأخلاق وكلَّ الخصال الحميدة التي اشتهرت عن آل البيت ، وهي لمَّا تزل صغيرة .

وقد أثبتت حوادث مابعد الشهادة ومواقفها خلال فترة السبي ، على رجاحة عقلها وقوة حُجَّتها وحضور وحيها في أشد لحظات الخطر وأصعبها ، إذ قادت بنفسها مسيرة ما تبقَّى من الموكب، ودافعت عنه دفاع اللبوة عن أشبالها ، فغدت مواقفها على كرِّ الأيام وتعاقب القرون ، مثالاً يُحتذى به ، وفخراً لثورة أخيها ، التي أكملتها بجهادها المستميت .

وقد ذكر الطبرسي أنها « ع » كانت شديدة الحب لأخيها الحسين منذ نعومة أظفارها . وكأن السرِّ الإلهي كان يعدُّهُما لهدف واحد ، يتقاسمان أعباءه . وهذا ما أكَّده تواتر الأيام ، إذ شاركته مسيرته وكانت إلى جانبه في معمعان محنته ، ولما سقط خرجت من فسطاطها ووقفت عند جسده ثم رفعت رأسه وقالت : « **اللّهم تقبَّل منَّا هذا القربان** [1] » ، وقيل إنها كانت قد وطنت نفسها عند إحراق الخِيم أن تقرَّ في الخيمة مع النسوة ، إن كان الله شاء إحراقهن كما شاء قتل رجالهن ، وقد سألت زين العابدين عند اضطرام النار : « **ياابن أخي ما نصنع ؟** » مستفهمة منه مشيئة الله فيهن .

---

(١) الكبريت الأحمر ج ٣ ص ١٣ عن الطراز المذهَّب.

إنها الروح المؤمنة ذاتها التي رفعت هتافها فوق جسد الحسين الطاهر ، وتضرَّعت لله أن يقبله كقربان . . . صرخت أمام يزيد الفاسق :

« أمن العدل ياابن الطُلقَاء تخديرك حرائرك وأماءك وسَوْقكَ بنات رسول الله سبايا قد هُتكت ستورهُنَّ ، وأُبديت وجوههن وصَحِلت أصواتُهن ، تحدو بهنَّ الأعداء من بلد إلى بلد ، ويستشرفهُن أهلُ المناهل والمناقل ، ويتصفَّح وجوهُهن القريب والبعيد ، والشريف والدني ، ليس معهن من رجالهن ولي ، ولا من حُماتهن حمي ، وكيف تُرتجى مراقبة إبن من لفظ فوه أكباد الأذكياء ، ونبت لحمُه من دماء الشهداء ، وكيف يُستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن والإحن والأضغان ، ثم تقول غير متأثِّم ولا مُستعظِم داعياً بأشياخك – ليت أشياخي ببدر شهدوا – مُنحنياً على ثنايا أبي عبد الله سيد شباب أهل الجنة تنكتها بمخصرتك . وكيف لا تقول ذلك وقد نكأْتَ القرحة واستأْصلتَ الشّأفة بإراقتك دماء ذرية محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب . . . أتهتف بأشياخك . . . زعمتَ أنك تناديهم فلْتَردنَّ وشيكاً موردهم . . ولتودَّنَّ أنك شُللتَ وبُكمتَ ولم تكن قُلتَ ما قُلت ، وفعلتَ ما فعلت . اللَّهم خُذْ لنا بحقنا وانتقم ممن ظلمنا ، وأحلِل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حُماتنا . .

فوالله يايزيد ما فريتَ إلا جلدك ، ولا حززْتَ إلا لحمك ، ولتردَنَّ على رسول الله بما تحمَّلت من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمته في عِترته ولُحمته ، حيث يجمع الله شملهم ويلُمَّ شعثهم ويأخذ بحقهم « ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربِّهم يُرزقون » وحسبُكَ بالله حاكماً ، وبمحمد صلى الله عليه وآله خصيماً ، وبجبريل ظهيرا . .

وسيعلم من سوَّل لك ومكَّنك من رقاب المسلمين بئس للظالمين بدلا ، وأيكم شر

مكاناً وأضعف جندا . ولئن جرت عليَّ الدواهي مخاطبتك ، إني لأستصغر قدرك ، وأستعظمُ تقريعك ، واستكثر توبيخك ، لكن العيون عبرى والصدور حرَّى ، ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطُّلقاء وهذه الأيدي تنطف من دمائنا والأفواه تتحلَّب من لحومنا ، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل وتعفرها أمهات الفراعل [1] ، ولئن اتخذتنا مغنماً لتجدننا وشيكاً مغرما حين لا تجد إلا ما قدَّمتْ يداك وما ربك بظلاَّمٍ للعبيد . فإلى الله المُشتكى ، وعليه المعول ، فكِدْ كيدك ، واسْعَ سعيك ، وناصبْ جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميتَ وحينا ، ولا تُدركَ أمدَنا ، ولا يرحضُ عنك عارها ، وهل رأيكَ إلا فند وأيامك إلا عدد ، وجمعُك إلا بددٌ . يوم يُنادي المنادى ألا لعنة الله على الظالمين . . . ؟ فالحمد لله رب العالمين ، الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة ، ولآخرنا بالشهادة والرحمة ، ونسأل الله أن يُكمِلَ لهم الثواب ويُوجب لهم المزيد ، ويُحسن علينا الخلافة ، إنه رحيم ودود وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

هذه البلاغة والفصاحة لا يأتي بمثلها إلا من تربَّى في بيت الطالبين ، وهذه الشجاعة الفائقة لا يجسر عليها بشر حيال يزيد ، وقد جسُرت عليها الحوراء فبلبلت مجلس يزيد وأحدثت في أركانه هزَّة فلم يزد إلا أن قال :

يا صيحةً تُحمد من صوائح
ما أهون النوح على النوائح

ثم أمر بإخراج الحرم من المجلس إلى خربة ، حيث أقاموا فيها ثلاثة أيام يندبون وينوحون على الحسين « ع » [2].

---

(١) العواسل : جمع عسَّال وهو الذئب . والفراعل : جمع فُرعل وهو ولد الضبع

(٢) اللهوف ص ٢٠٧ ، وأمالي الصدوق ص ١٠١ .

وإنها لحكمة إلهية أيضا أن يُسار بالسبي إلى الكوفة ودمشق بهذا الشكل المهين على أقتاب الجمال . . . فيرى الناس في السبايا من الفجيعة ، أكثر مما رأوا أو سمعوا في قتل الحسين ، وهذا ما هدف له الشهيد بخروجه بالنساء والأطفال والرضع ليكونوا شهوداً وألسنة تنطق بمظلمته .

وقد قامت العقيلة زينب بالدور الأكبر في ثورة أخيها الحسين ، بحملها لواء الحرب النفسية التي تمَّمت حرب أخيها العسكرية ، وشكَّلت معها الوجه الآخر لهدف واحد الا وهو إحقاق الحق ، وتقويض الدولة الأموية التي مثَّلت انتهاك السُّنَّة وتحريف العقيدة ، وفساد الحكم في كل زمان ومكان .

ولو لم تقم زينب « ع » بدورها الصعب الذي قامت به ، لما زادت الواقعة ونتائجها عن واقعة ونتائج أية معركة تُدار فيها الأيدي والسُّيوف ، وتصهل فيها الخيل ، والرأي الأمثل في هذه الحكمة ، حكمة خروج الحسين بحرمه وما تلاها من استلام زينب لراية الكفاح ، إنما كان هو الهدف الذي سيتحقق بعده كل أهداف الثورة ، إذ لولا خروج زينب وحرائر وعقيلات آل البيت هذا الخروج الدرامي المفجع ، لماكان للهزَّة الضميرية هذا التوجُّع المؤلم ، ولم يكن ليتسنَّى لها الدخول على ابن زياد في قصر الأمارة لتُعلن أمام الحشد صرختها التي هي في مضمونها صرخة مشتركة مع صوت أخيها الحسين فتقول : **« الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد، وطهَّرنا من الرجس تطهيراً . إنما يفتح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا** [1] » .

ولا كان بإمكانها الوقوف أمام يزيد وهو فوق مُتَّكىء سلطانه وجبروته وإلقاء خطبتها البليغة التي تحمل عَبق الصدق ، فتتآلف لها النفوس ، وتتألَّب لها الضمائر وتتوغَّر معها الصدور على يزيد وطغمته ، فتكون بذلك قد بذرت بذرة الثورة في

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٦٢ ، واللهوف ص ٩٠.

الصدور إلى أن يحين موعد انفجارها .

وسيد الشهداء « ع » كان ينظر إلى المستقبل نظرته إلى كتاب مفتوح ، وكان عالماً بأن خذلان شيعته لن يدوم أبد الدهر ، وكان في خروجه وإخراج الحرم معه إنما يُراهن على حيوية الضمائر الإسلامية التي لن تجد مندوحة ولا أعذاراً في لوم نفسها على التقصير ، سواء عن سكوتها على مباغي الأمويين ، أم في عدم نُصرتها للثائر الحسين الذي قام يحطِّم الوثنية الجاهلية الجديدة التي امتطت الإسلام لتحقيق مآربها ، ومحقَتْ ذريَّة الرسول صاحب هذه الرسالة بإسم خلافة مزيَّفة .

المعجـزة الروحيـة

وهذه معجزة أخرى من معجزات شهادة الحسين « ع » معجزة تتصل بالضمائر بمنفصم وثيق العرى ، فتمَسُّها مسًّا مباشراً ، فتتكهرب وتستيقظ على أمر جلل قد وقع وهي لا مناص لها من التبصُّر في كيفية وقوعه .

وعلى أنوار الشهادة السَّنيَّة يتكشَّفُ لهذه الضمائر ظروف تقصيرها ، وبأنها كانت غافلة نائمة مُخدَّرة بأطماع وقتية ، وعلى صوت الحقِّ الذي رفعته السبايا ، تصحو العيون والقلوب والأسماع ، فترى ما عميت عنه ، وما تغافلته زمناً ، وما امتنعت عن سماعه ردحا .

وهذه المعجزة وماتلاها،بدأت بخطبة زينب الأولى في الكوفة ، وكهربتها للجموع التي أطلقت لعبرَها العنان ، وقد بانت عظمة هذه المعجزة التي حملتها وستُكمِل حملها الكلمات القُدْسية المُحاجَّة التي اختصَّ الله بها أهل بيت النبوَّة ، والتي بدأت في الميدان وعلى لسان الشهيد نفسه حينما دوىَّ صرخته التي

استمرت حتى وقتنا هذا تتردد في الضمائر : « **أما من مغيث يغيثنا . . . أما من ناصر يعيننا . . . ؟** » .

وقد لبّى استجابة الصرخة الحسينية الحرُّ بن يزيد الرياحي الذي توجَّه نحو الشهيد رافعاً صوته نادماً على خروجه لقتاله :

« **أللَّهم إليك انيب فتُبْ عليَّ ، فقد أرعبتُ قلوب أوليائك وأولاد نبيك ، يا أبا عبد الله إني تائبٌ فهل لي من توبة . . . ؟** [1] »

فهذه اللحظات التي تمثل رجعات الضمير من جُبِّ مآثمِهِ ، كان الحسين « ع » يُعوِّلُ عليها كثيراً في إيصال مبادىء ثورته ، وقد حملت زينب « ع » عبء مهمة إيقاظ الضمائر تأهُّبا لرجعتها ، ساعدها في ذلك مشهد السبي المحزن الذي كان يفتِّت أشدَّ القلوب صلابة .

إستجابات فـوريـة

فعن كتاب « **المنتخب** » ، أن عبد الله بن زياد دعا شمر بن ذي الجوشن ، وشبث بن ربعي ، وعمرو بن الحجاج ، وضمَّ اليهم ألف فارس وأمرهم بإيصال السبايا والرؤوس إلى الشام .

وقال أبو مخنف : « **مرَّ هؤلاء في طريقهم بمدينة « تكريت » وكان فيها عدد من النصارى ، فلما حاولوا أن يدخلوها إجتمع القسِّيسون والرُّهبان في الكنائس وضربوا النواقيس حزناً على الحسين ، وقالوا : « أنَّا نبرأ من قوم قتلوا إبن بنت**

---

(1) اللهوف ص ٥٨ ، وأمالي الصدوق ص ٩٧ ، وروضة الواعظين ص ١٥٩ .

نبيهم » ، **فلم يجرؤوا على دخول المدينة ، وباتوا ليلتهم في البريَّة ، وكانوا يُقابَلون بالإعراض والكراهية كلما مرُّوا بدير من الأديرة أو بلد من بلدان النصارى »** .

ولما وصل الركب إلى « **لينا** » وكانت مدينة كبيرة ، تظاهر أهلها رجالاً ونساء ، وشيباً وشبانا ، وهتفوا بالصلاة على الحسين وجدِّه وأبيه ، ولعنوا الأمويين وأشياعهم وأتباعهم ، وصرخوا في وجوه قوَّادِ الركب : « **ياقتلة اولاد الأنبياء أخرجوا من مدينتنا** » .

ولما حاذوا « **جهينة** » بلغهم أن أهلها تجمعوا وتحالفوا على قتالهم إذا وطئوا أرض بلدهم . . . فتراجعوا عن دخولها .

وأتوا حصن « **كفرطاب** » فأغلق أهلها الأبواب في وجوههم ، فطلبوا منهم ماء ، فردَّ عليهم أهل الحصن : « **والله لا نسقيكم قطرة وأنتم منعتم الحسين وأصحابه من الماء** » .

ولما دخلوا حمص كانت واقعة كبرى إذ تظاهر أهلها وصاروا يرددون : « **أكُفراً بعد إيمان ، وضلالاً بعد هُدى** » وهجموا عليهم فقتلوا ٣٦ فارساً رشقاً بالحجارة .

وكأن عقيلة بني هاشم تستقرىء المستقبل وهي واثقة من ارتداد الضمائر ، إذ قالت وهي مسبية : « **ألمستقبل لذكرنا ، والعظمة لرجالنا والحياة لآثارنا والعلو لأعتابنا والولاء لنا وحدنا** » .

فسبحان المُنْطِقِ القادر على إيصال الوحي إلى عقول ما جال بها إلا الحق ، ومُسيِّره على ألسنةٍ ما نطقت إلا بالفصاحة القرآنية ، إذ بلغ الأمر بيقظة الضمائر بعد انتهاء المذبحة بالمقتل وعودة السبي والدفن ، أن صارت حممُها تتأجَّج وتعلو لتُنير كلَّ ما حولها ، وإذا بالولاء لأهل البيت سُنَّة سَنَّها الناس لأنفسهم ، والتبرك بعتباتهم العالية صار فرضاً على كل مؤمن ، وذكرُهم يُحيَى سنة

بعد أخرى وجيلاً بعد جيل ، ومناقبُهم تُعلن من فوق المنابر ، ومزاراتُهم وقبورهم وكلُّ مكانٍ وطئوه صارت محجَّات للملايين من أمة الإسلام تحجُّ إليها ضارعة مستغفرة ، قارعة الصدور ندماً ، ذائبة على آل البيت حُباً ، من كل فجٍّ عميق .

وهذه إحدى معجزات الشهادة وما تلاها من خوارق أنزلها الله تعالى في الضمائر ، فكيف استمرَّت نيران هذه الشرارة التي قدحها سيد الشهداء فوق أرض خلاء لا يراه فيها أحد . . . كيف استمرَّت وتأجَّجت وفردت سَناها فوق رؤوس الخلائق في وقت انطفأت فيه نيران متأججة كثيرة . . . ؟.

أليست معجزة الخالق التي خطَّطت لهذه الثورة بهذه الكيفية . . . وما قول أولئك الذين ما زالوا بعد كل هذا الفيض من الانتصارات الذي احرزته ثورة فرخ النبي ، يتصدُّون لها بمقاييس تقليدية تبعُد بها أميالا عن حقيقة جوهرها . . ؟.

إلا أن هذه الثورة رغم ما تعرَّضت له على مرِّ السنين من مغالطات وتشويه وتحريف . . . ما ازدادت إلا سطوعاً وعُلوّا . وهذا ما تنبَّأت به زينب « ع » فيما قالته لابن أخيها الإمام السَّجَّاد قبل أن يترك الركب أرض كربلاء في الحادي عشر من محرم :

« مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخو تي ؟ فوالله إن هذا لعهد من الله إلى جدك وأبيك . . . إن قبر أبيك سيكون علماً لا يُدرَس أثره ، ولا يُمحى رسمه على كرور الليالي والأيام ، وليجتهد أئمة الكُفر وأشياع الضلال في محوه وتطميسه ، فلا يزداد أثره إلا عُلوّا [1] » .

وهكذا شاءت العناية الإلَهية أن تكون السيدة الحوراء شاهدة على المجزرة التي لم

---

(١) كامل الزيارات ص ٢٦١ باب فضل كربلاء وزيارة الحسين .

يكن فيها خصمان ، بقدر ما كان فيها قاتل ومقتول ، وجزّار وضحيّة ، وأن تكون مواقفها وكلماتها بعد المجزرة ، مواقف وكلمات المُعايِنَةِ المُعانِيَة بكلٍّ أعصابها وإحساسها النسوي الأمومي ، ولم يكُن كزينب أهل لهذه المهمة الصَّعبة تُناط بها ، وهي التي شاهدت وفاة جدِّها الرسول « ص » ، وعاشت مِحنَة أمِّها الزهراء ونَدْبها لأبيها في بيت الأحزان ، وانتهاك حُرمتها ومنع إرْثها وكَسرِ جنبِها وإسقاط جنينها ، وتلطيخِ سُمعتِها وهي تنادي فلا تُجاب .

وهي التي شاهدت قتل أبيها أمير المؤمنين ، ورأت مكان الضربة في رأسه ، وعاينت مظاهر سريان الدم في جسده ، واحترقت بدموعه الطاهرة تفيض من عينيه ، وهو يقلِّب طرفه فيها وبأخويها الحسن والحسين « ع » .

وهي التي شاهدت أخاها الحسن وهو يجود بنفسه مصفرَّ اللون ، يلفظ كبده قطعاً قطعاً من تأثير السم ، ورأت عائشة تمنع من دفنه مع جدِّه وتركب بغلة وتصيح : « **والله لا يُدفن الحسن هنا أبدا** » .

أما مصيبة المصائب وخاتمة الأرزاء التي عاشتها ورأتها ، فكانت فيما عاشته إلى جانب أخيها الشهيد في كربلاء ، وفيما عانته خلال مسار سَبْيِها برفقة العليل والنساء والأطفال . كانت مصائبُ يعجز عن وصفها لسان ، وأرزاء لا يحتملها بشر ، فاقت في قوتها وتأثيرها كلَّ ما مرَّ بها من مِحَنٍ وآلام في تتالي أيامها المتخمة بالأحزان والمصائب .

فكيف عاشت العقيلة هذه التجارب . . وكيف تحمَّلت كلَّ هذه الآلام . . . وكيف صبرت على كلٍّ هذا القدر من البلاء الذي حلَّ بها . . . ؟

المألوف هنا في مثل هذه المواقف أن تُتعتَعَ أشدُّ العقول رزانة ، وتَعمى أشدُّ البصائر رويَّة ، فتتخبَّطُ خبطاً عشواء تدل على اختلال الأعصاب التي لا تبقي على

أي أثر لتعقل أو اتزان .

فهل فقدت زينب « ع » رباطة جأشها ؟ هل ارتجّت أعصابُها فاختلّ توازُنها . . . هل تزعزعت ثقتها بنفسها وبإيمانها وبحكم ربِّها . . . هل جدَّفت أو رفعت رأسها إلى السماء تتساءل لمَ هي دون غيرها يجب أن تتحمل كلَّ هذا . . . هل فقدت حِسَّ الأمومة وإحساس القُدْسية ، والقدرة على التصرف قولاً وفعلا . . . ؟.

أبداً . . . فإن شيئاً من ذلك لم يحدث . . . فابنة علي وفاطمة لم تتزعزع ، حفيدة النبي « ص » لم تفقد إيمانها ، أُخت الحسنين لم تكفر بحكمة الله ، بل ما زادتها المحن والآلام إلا ثبات جنان ورجاحة عقل واعتصاماً بحكمة الخالق ، وإذعاناً لمشيئته .

وارثة مبادىء علي « ع »

ولا عجب . فهي غذيِّـةُ حكمة أبيها أمير المؤمنين ، ووارثة مبادىء آل البيت التي لقَّنها إياها أبوها وهي لمَّا تزل طفلة تحبو ، حيث كانت تسمعه يجاهر بهذا المبدأ الذي حفر في وجدانها الغض :

« إن أشـدَّ الناس بلاء النبيُّـون ، ثم الوصيُّـون ، ثم الأمثل فالأمثل ، وإنما يُـبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة ، فمن صحَّ دينه وحَسُن عمله ،إشتد بلاؤه ، ذلك أن الله لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن ، ولا عقوبة لكافر ، ومن سَـخُـف دينه ضَعُـف عمله ، وقلَّ بلاؤه ، وأن البلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض » .

وإذا كنا قد تكلَّـمنا حتى الآن عن معجزات الشهادة الروحية التي ردَّت إلى

الضمائر إحساسها البشري ، وجعلتها تقف على فداحة تقصيرها تجاه الحسين «ع» ودور زينب «ع» في إزكاء الحميَّـة في الرؤوس ، وإيقاظ النفوس الهاجعة وحمل لواء النفسية التي هي تتمَّـة للحرب التى نفَّـذها أخوها الحسين «ع» فوق ثرى كربلاء . . فإن لبقية عقيلات آل البيت أدوارهن المكمِّلةِ لدور الحوراء في تِبيان الحقيقة ، وإثارة شعور الندم في القلوب .

فها هي فاطمة بنت الحسين «ع» ما أن رأت عمَّـتها زينب «ع» تنتهي من خطبتها في جموع الكوفة . حتى وقفت تخطب في هذه الجموع . وتوضح لها دورها المتخاذل عن نصرة أبيها ، وحقدها على رسالة النبي ، وحذرتهم ألا يشتطوا كثيراً في فرحتهم بما أصابوا من دمائهم ، ونبهتهم إلى توقُّـع اللَّـعنة والعذاب من السماء ، ولعنت الظالمين منهم .

وما أن أتمَّـت خطبتها حتى ارتفعت الأصوات بالبكاء والنحيب ندماً وحزنا ، وصاحت الجموع بصوت واحد : «**حسبُـك يا إبنة الطاهرين فقد أحرقت قلوبنا وأنضجت نحورَنا وأضرمت أجوافَـنا**[1]» .

وتلتها في اللوم والتقريع واثارة الضمائر أم كلثوم ، فقرَّعتهم على نزع الرحمة من قلوبهم ، وحـذَّرتهم من لعنة الدماء الذكيَّـة التي سفكوها ، ومن غضبة الله على قتلهم خير الرجالات بعد النبي .

فضجَّ الجمع بالبكاء ونشرت النساء شعورهن وخمشن وجوههن ولطمن خدودهن ، ودعون بالويل والثبور ، حتى صار الجمع بين باكٍ ولاطم .

---

(١) لقد ثبت علمياً أن مشاعر الغضب والحزن والندم ، تُـبدِّل كيماوية الجسم ، فيشعر صاحبه بالحُـرقة في قلبه ، والاكتواء في حجابه الحاجز ، والتآكل في معدته .

بلاغة السَّجَّـاد « ع »

ولما جيء بعلي بن الحسين على بعير والجامعة في عنقه ، والغلُّ في يديه إلى عنقه وأوداجه تشخب دماً . . بادر الجمع بهذه الأبيات :

يـاأمة السوء لا سقياً لربعكم
يـاأمـة لم تـراع جدنـا فـيـنـا

لو أنـنـا ورسول الله يجمـعـنـا
يوم الـقـيـامـة مـا تـقـولـونـا

تُسيِّرونا على الأقتاب عاريـة
كـأنـنـا لم نشيد فـيكم دينا

وأومأ إلى الناس ، فسكتوا . بينما أخذ «ع» يعرِّفهم من هو قائلاً :

« أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، أنا ابن من انتُهِكَت حُرمتُه ، وسُلبَت نعمته وانتُهِبَ ماله ، وسُبيَ عيالُـه أنا إبن المذبوح بشط الفرات من غير ذحل ولا تراتْ ، أنا ابن من قُتلَ صبراً وكفى بذلك فخرا » .

ثم أخذ « ع » يبيِّن لهم كيف خانوا أباه بعد أن أعطوه من أنفسهم العهود والميثاق والبيْـعة ، وقاتلوه . وسألهم بأية عين ينظرون إلى رسول الله . . بعد قتلهم لعِـترتهِ وانتهاكِ حُرمته . . ؟.

فارتفعت الأصوات ضاجَّـة بالبكاء وقالوا باجمعهم :

« نحن يا بن رسول الله سامعون مطيعون حافظون لذمامك غير زاهدين فيك ولا

راغبين منك ، فَمُرنا بأمرك يرحمك الله فأنَّا حربٌ لحربك ، وسلمٌ لسلمك ، نبرأ ممَّن ظَلَمك وظَلَمنا » .

ولكن الوقت كان قد فات ، ولم يعد ينفع الندم . . فردَّ عليهم السَّجَّاد « ع » :

« هيهات هيهات أيها الغَدَرة المَكَرة ، حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم ، أتريدون أن تأتوا إليَّ كما أتيتُم إلى أبي من قبل ؟ كلا وربُّ الراقصات ، فإن الجرح لمَّا يندمل ، قُتِل أبي بالأمس وأهل بيته ، ولم يُنسَ ثكل رسول الله وثكل أبي وبني أبي [1] **»** .

وكان لهذه الخطب رد فعل قوي في النفوس ، فانفعلت معها انفعالاً عميقاً ، كان كفيلاً ببعث الروح النضالية الهامدة ، في جذوة جديدة ، وهزِّ الضمائر الميِّتة هزَّاتٍ أحيتها ، فكان أن خطت ثورة الحسين الوليدة أولى خطواتها في الدرب الذي طمحت للسير فيه ، ففتحت عيون الناسِ على زيف الحياة الروحية التي كانت تحتويهم ، وبدأ الإطار الديني المغلِّف لحكم الأمويين باسم الإسلام ، يتزعزع ويتشقَّق تمهيداً لانهياره القادم ، وتنبَّهت النفوس إلى الروح الجاهلية التي تغلغلت في أركان الحكم ، وبدأ الشعور بالإثم يتفاعل داخل القلوب . . وبدأت معه أولى خطوات نقد الذات وتقويم المجتمع لنفسه ، والبحث عن مناقبيةٍ جديدة للإنسان المسلم بعد أن فقد إنسانيته ، فجاءت ثورة الحسين « ع » لتنبِّهه إلى فقدان هذه الإنسانية .

وقد ساهمت معركةُ الطَّف وحوادثُ السبي في إيقاد جذوة الإيمان من جديد في وجدان الأمة ، ساعدها في ذلك ما ظهر من وحشية الأمويين في مناجزة الحسين وقتله مع نخبة كريمة من آله وصَحْبه ، وما رافق ذلك من مظاهر البربرية المتمثِّلة في حمل

---

(١) كل هذه الخطب ذكرها إبن طاووس في اللهوف . وإبن نما في مثير الأحزان .

الرؤوس على الحراب إلى دمشق ، وما برهن ذلك على تجرد الأمويين من كلِّ نزعة دينيةٍ وإنسانية .

وكانت اليفظة الروحية لأمة الإسلام هي الأعجوبة الخارقة التي تشكل أساس كلِّ المعجزات التي أتتها الشهادة فوق أرض كربلاء ، والتي شكَّلت فيما بعد المحور الذي دارت عليه المعجزات المتتالية ، الإجتماعية منها والزمنية .

إذ كما هو مُتَّفقٌ عليه في نظريات علم النفس ، أن يقظةَ الضمير وتفتُّحِ البصيرة بعد موات وهمود ، من شأنه أن يقلب حياة الإنسان رأساً على عَقِب ، ويجعله يحطِّم كل ما يحيط به ويذكِّره بهوانه وتقصيره الذي أدَّى به إلى ما وقع له أو به[1] .

ولعلَّ ما زاد في تأجُّج عامل الندم في نفوس المسلمين ، تلك الفرص التي أتاحها لهم الشهيد ، سواء ما كان منها قبل المعركة أو خلالها ، للكفِّ عن قتاله وتلويث أيديهم بدماء آل البيت وتجنيبهم الندم ، كما سبق ذكره في متن الكتاب .

وعندما يبدأ التأجُّجْ - كما عُرف في علم الطبيعة والفيزياء - فإن الحمم تصبُّ فوق بعضها وتُحمِّي ذرَّاتِ بعضها البعض ، فيزداد اللهب وتتضاعف الحرارة .

وكما قيل فإن الإقناع يزداد كلما كان الشاهد أقرب الى المشهود عليه[2] ، وهذه نقطة مُهمَّة ودالَّةٌ على معجزات شهادة الحسين الروحية . فقد كشف همجية مجزرة الطَّفِّ ، الجنودُ العائدون ، وأذاعوا تفاصيلها في طول البلاد الإسلامية وعرضها ، وكان لكلامهم وشهاداتهم أبلغ الأثر في تأجيج نار المشاعر ضد الذين فكَّروا وقاموا بهذه المجزرة المشينة .

---

(١) لسيجموند فرويد رأي في كتابه « سيكولوجية الشذوذ النفسي » ص ١٨٩ يقول فيه : إن يقظة ضمير الإنسان تُحيلُ صاحبها إلى ديَّانٍ رهيب لا يخاف لوم ذاته ومعاقبتها بأقصى العقوبات الممكنة .

(٢) السيد المسيح قال : « من فمك أدينك » .

مهزلة الخروج على الأئِـمة

وعلى الرغم من نشاط فرقة « **المُـرجئة** » التي أنشاها النظام الأموي لتغطية نشاطه السياسي وإسباغ صفات دينية على تصرفاته . . فإن الغضبة التي أشتعل أوارها لم تكن لتهدأ إلا لتثور مجدداً وبشكل أعنف .

وقد أعادت ملحمة كربلاء إلى الأذهان ما أفتى به الفقهاء الموظفون ، من أنه لا يجوز الخروج على الأئِـمة ، وقتالهم حرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين . . ففتحت هذه الأذهان على عمليات التمويه الرسمية التي مـوَّلها حكام بني أمية لوأد كلِّ مطالب عادلة ، والوقوف أمام كل تحريف للسُّـنَّـة ، والسكوت عن مخارف الجور والانتهاكات .

وفي مقابلِ تفتُّـحِ الأذهان على أضاليل فرقة المُـرجئة ومؤسِّسيها الأمويين . . تفتَّحت هذه الأذهان على مبدأ الإمام الشهيد « ع » الذي قاله مخاطباً الوليد إبن عتبه إبن أبي سفيان :

« أيها الأمير أنَّـا بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومختلف الملائكة ، بنا فتح الله وبنا ختم ، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر وقاتل النفس المحرمة ، معلن بالفسق ، ومثلي لا يبايع مثله[1] » .

فهذه الكلمات على بساطتها تدل دلالة واضحة على جواز نقد الخليفة والثورة على أحكامه والخروج عليه ، وتبيِّـن في الوقت ذاته أساليب المراوغة والتحريف التي

---

(١) مثير الأحزان لابن نما الحلّـي.

رفعها الأمويون فوق الرؤوس لإيهام الناس وإخافتهم .

وكان لا بـد للفرد المسلم من المقارنة بين هذا المبدأ الحسيني ، وذلك المبدأ الأموي ، وما كان من نتيجتهما .. كي يخلُص إلى نتيجة واحدة لا مزاحم لها في النهاية ، ألا وهي أن الحكم الأموي حكم مارق كافر يلعب بالسُّـنن ، ويسرق الخلافة ، ويغتصب البيْـعة اغتصابا .

فكيف إذا كان على رأس هذا الحكم خليفة مثل يزيد يجاهر بفسقه ويتحـدَّى الله ورسوله ويزاحم آل بيته على حق الخلافة . فذلك معناه موافقة ضمنية على فسقه ، ومساعدة غير مباشرة على تحـدِّيهِ الله ، وعندما يُعلنُ إمام كالحسين منحدرٌ من معدن النبوَّة : « **أن يزيد رجل فاسق شارب الخمر وقاتل النفس المحرَّمة**[1] **ومعلن بالفسق** » ، فمعنى ذلك أنه إفتاء للأمة الإسلامية بجواز إسقاط هذا الخليفة المزيف والثورة عليه ، لأن معنى المبايعة ، هو بيع النفس للخليفة الذي يرمز إلى الشريعة وجوهر الدين ، وحامي القرآن الكريم ، وولي عهد الرسول المصطفى « **ص** » على المسلمين ، وفي مبايعته إقرار ضمني بالاستماتة في سبيله عملاً بقوله تعالى : « **أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم** » ، فألزم على المسلم طاعة الخليفة لأنها تدخل في طاعته عـز وجـل .

وعندما يكتشف الإنسان المسلم أن بيعه نفسه لخليفة فاحش ، قد كلَّـفه التفريط بعقيدته ، وبيع نفسه للظلم والفحش الذي يمثِّـله هذا الخليفة ، وبالتالي كسب غضبة الله جـرَّاء عصيانه ، فإنه يحتقر نفسه ، ويزدري قلَّةَ تعـقُّله حينما بايع خليفة مزيفاً ، فيتحرك ضميره ويتفاعل احساسه بازدراء نفسه ولومها مع مخافة الله

---

(١) « . . . ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلاَّ بالحقِّ . . . » راجع النص الكامل للآية ٣٣ من سورة الأسرار .

وعدله ، فيثور ويحطِّم أصنامه ويموت دون مبدئه راضياً مؤمنا .

وبدءاً من فَرضية الندم ثم مراجعة النفس والوقوف على حقيقتها وحقيقة الأمور والظروف التي دوَّمتها في دوَّامتها ، وتبيان الحقيقة الساطعة ، مروراً بفترة المراجعة وكمونِ الأفكار والانفعَالات ، ونجاحها في تحويلِ صاحبها من إنسان خامل بلا عقيدة ، إلى إنسان ديناميكي معبّأً بالمبادىء ، فضلاً عن تحرُّك الظروف خارج نفس الإنسان وتفاعلها في نواح أخرى بما يدعم مبدأه الجديد وعقيدته المستيقظة ، مما يزيد من تصميمه على استمرار الاستسلام لهتافه الداخلي الذي يقوده إلى دروب لم يكن يحلم بالمسير بها ، ويفتح أمام بصيرته مغاليق كانت كالسُّدِّ في وجهه . فيندفع بايحاء من فقدان ثقته بما كان ، وانسجاماً مع هتافه الداخلي ، ورغبة منه في تغيير الأوضاع . . إلى الثورة والتحطيم واقتلاع كلِّ زيفٍ من جذوره .

وشهادة الحسين « ع » في كربلاء وما تلاها من حوادث السبي . . نجحت في إيصال الإنسان المسلم إلى بدء رحلة الألف ميل نحو تحرره وتمكين جذور عقيدته في نفسه ، بخطوةٍ واحدة . إذ ما كاد ركب السبي يدير ظهره إلى دمشق عائداً إلى الأرض التي تضم الجُسوم الطاهرة ، حتى بدأ الندم يستشري في ضمير أمة الإسلام ، وبدأت معه عملية مراجعة النفس التي ستشكِّل مِحورَ ما سيأتي بعدها من تغيُّرات وانتفاضات تعم هذه الأمة التي ابتلاها الله بالضعف من بعد قوة ، فيتنادى للتغيير والثورة أقصاها وأدناها[1] .

---

(١) شهادة الحسين « ع » في كربلاء ، بحاجة إلى دراسة علمية ونفسية وروحية وزمنية وافية ، على أعلى المستويات إن في طوايا هذه الملحمة تكمن أسس أخلاقية ، لو أظهرت للبشرية بشكل علمي مدروس ، لتغيَّرت نظريات كثيرة ، ولأعطيَت أجوبة شافية للعديد من المسائل الروحية والزمنية ، وكيفية الربط بينهما . إن نهضة الحسين على الرغم مما قدمته حتى زمننا هذا ، لم تزل تطوي في جوهرها كنوزاً من الكيفيات والدساتير والأساليب والنتائج ، ذات الصلة الماسّة بمختلف الأصعدة الإنسانية ، بشكل عام ، وبالعديد من قضايا الإنسان المعاصر بشكل خاص . فهل تَلقَى دعوتنا لهذه الدراسة تقبُّلاً واقتناعا . . ؟ .

معجزات الشهادة الاجتماعية

ما أن غادر موكب السبي دمشق ، حتى كانت مرحلة الندم والبكاء وقرع الصدور حزناً وتأسّياً وإحساساً بالذنب المتأتّي عن التقصير . قد بلغت مداها ، وفرّخت مرحلة مراجعة النفس والوقوف على حقيقتها وحقيقة الأمور والظروف التي دوّمتها في دوامتها . وكان لابد لها من نموذج للأخلاق أسمى ، إذ من المسلمات التي تعقب عملية إهتزاز القيم والمعايير السائدة ، أن يبدأ الفرد الذي هو ركن المجموع ، بالبحث عمّا ينقصه ، فتبلبله حيرة لا يعرف معها أي شكل من أشكال الاختيار التي تفتّح عليها عقله ، وعَرَضت أمام بصيرته المتيقّظة لتوها ، فيبدأ في البحث عن نموذج أخلاقي يلائم نظرته الجديدة إلى نفسه وإلى الآخرين ، وإلى مخارِفِ الدنيا وزُخرُفها ، وزُهدها ومُختلفِ عناصرها .

وبعد ثورة الحسين « ع » مباشرة ، كان النموذج الأخلاقي للمجتمع الإسلامي ، هو ذاته الذي كانه قبلها ، نموذج فيه من المثالب ما لا حصر له ، فلم يكن غريباً على المسلمين آنذاك ، السكوتُ على البغي ، والخضوعُ للطغي ، بل والمشاركة فيه ، ولم يكن مستهجناً مبدأ المساومة على المبدأ وبيع النفس ، والرضى بخنوع مذل إذا رافقه

استمرار تدفُّق المنافع الدنيوية ، وكان يزيد وحاشيته هم المرآة التي تعكس كل هذا للمسلمين ، بما يغريهم لأن يكونوا على شاكلتهم ومثالهم سواء أكان ذلك بالترغيب ، أم بالتَّرهيب .

وما كان ممقوتاً مرذولاً في صدر الإسلام من تكالبٍ على المنافع وحبّ الذات وإيثار السلامة والدِّعة . . غدا شيئاً مألوفاً ، بل ومُطالبٌ به كهدف وغاية يسعى إليها المسلم على قدميه ، مع علمه بأن هذا المطلب الذي قدسه كغاية بحد ذاته ، يحمل في طياته هجر القيم الإسلامية ، والرنوّ إلى الأخلاق الجاهلية التي جاءت رسالة محمد « ص » فبددتها ، ووطدت مكانها قيماً سماوية .

وبعد الهزّة الحسينية ، صار يطيب للفرد المسلم أن يعيد تذكُّر مبادىء الحسين التي أعلنها مراراً وتناقلتها الألسن فيما سبق ، دون أن تحرِّك في الضمائر أية إشارة لتقبُّلها ، حينما كان مدُّ الأطماع والغيِّ في أقصى حدوده .

أما بعد الهزَّة ، فصار لهذه المبادىء وقع كوقع السحر ، تذكَّر المسلمون معها قولة الإمام الشهيد « ع » حينما أُحيطت به النوازل وقِيلَ له بالنزول على حكم بني أمية :

« لا والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقر إقرار العبيد ، ألا وإن الدعي بن الدعي قد ركَّز بين إثنتين : بين السلة والذلة ، وهيهات منا الذلة ، يأبى الله لنا ذلك ، ورسوله ، والمؤمنون ، وجدود طابت ، وحجور طُهرت ، وأنوف حمِّية ، ونفوس أبيَّة لا تؤثِّر طاعة اللئام على مصارع الكرام[1] » .

وفي التذكُّر عبرة سيما إذا كان الدأب هو البحث عن نموذج جديد للأخلاق يلائم المرحلة الجديدة – ما بعد الثورة – فوعَى المسلم لأول مرة هذا الخُلق الإجتماعي

---

(١) تليها أبيات أنشدها الشهيد لفروة بن مسيك المرادي ، ورواها إبن عساكر في تاريخ الشام ج ٤ ص ٣٣٣ .

السليم ، وتشرَّب معنى الأَنَفَةِ في الأنوف ، والإباء في النفوس الذي معه يفضِّل ، المَصَارِعَ على طاعة اللِّئام .

وبعد أن كان الفرد المسلم يصمت أمام تغيُّر الدنيا وتنكُّرِها وإدبار معروفها ، ويرضى بالصبابة كصبابة الإناء التي بقيت منها ، ويُسرُّ بخسيس العيش كالمرعى الوبيل ، ويرى الحق لا يُعمل به ، والباطل لا يُتناهى عنه . . فلا يرى في هذه الحياة إلا سعادة ، والبقاء مع الظالمين إلا سلوى . . صار بعد تفجُّر أخلاقية الثورة ، يرى في كلِّ ما كان يرضى به من هذا ، إنكاراً لدوره كمسلم ، وإهداراً لكرامته كإنسان في هذا المجتمع . وما لبث أن صار يردِّد مع إمام الثوار :

« موتٌ في عز خيرٌ من حياةٍ في ذل »

وصار يُحسُّ مدى خواره وذهاب نخوته عندما بدأت أخبار المعركة تتناهى إلى علمه فيُلِمُّ بتفاصيلها ، ليُحسَّ بعدها برعدة الإحساس بالذنب ، ويقدِّر مدى تكالبه على الدنيا ، ورضاه بالزيف ، وبيعه لكرامته التي هي أثمن ما لدى الإنسان بحيث يفقد بفقدانها معنى وجوده .

شعر بالضِّعة حينما علم بموقف زهير بن القين عندما طالب الإمام الشهيد صَحْبه بالانصراف وتَركِه لمواجهة مصيره وحده ، وكيف أجابه : **« سمعنا يا ابن رسول الله مقالتك ، ولو كانت الدنيا لنا باقية ، وكنَّا فيها مخلَّدين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها »** .

شعر بالخجل حيال قولة بدير بن حضير : **« يا ابن رسول الله لقد منَّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك ، تقطع فيك أعضاؤنا ، ثم يكون جدك شفيعنا يوم القيامة »** .

أحسَّ بتخاذله وتواكله حيال قول نافع بن هلال للشهيد : **« سر بنا راشدا معافى ، مُشرِّقاً إن شئت أو مغرِّباً ، فوالله ما أشفقنا من قدر الله ، ولا كرهنا لقاء**

ربنا ، وإنّا على نياتنا وبصائرنا نُوالي من والاك ، ونُعادي من عاداك » .

ما عادت نفس هذا المسلم تملك إلا أَن تصغُر في عين ذاته حينما يقارن بين موقفه وبين موقف زهير بن القين في ميدان الطَّف حيث لا شيءَ إلا الموت : **« والله لوددت أني قُتلتُ ثم نُشرتُ ثم قُتلت ، حتى أُقتل كذا ألف قتلة وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك »** .

هذا المسلم المدجَّن – أموياً – شعر بعدم حفظهِ غيبةَ رسول الله « ص » وآله بالشهيد الحسين ، عندما نُميَ إليه ما قاله سعد بن عبد الله الحنفي لسيد الشهداء : **« والله لا نخليك حتى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسول الله « ص » وآله فيك ، والله لو علمت أني أُقتل ثم أُحيا ثم أُحرق حياً ثم أُذَرُّ ، يُفعلُ ذلك بي سبعين مرة ، ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك ، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة . . ؟ »** .

وحيال قولة مسلم بن عوسجة أحسَّ هذا المسلم بالنقص الغَيْري :

« أنحن نخلي عنك ولمّا نعذر إلى الله في أداء حقك . . ؟ أما والله لا أفارقك حتى أطعن في صدورهم برمحي ، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » .

ويتساءل المسلم ما الذي منعه من الوقوف كمثل وقفة بني عقيل لما أذن لهم الشهيد بالذهاب والاكتفاء من القتل بمسلم إذ قالوا :

« فما يقول الناس وما نقول لهم ؟ أنّا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ، ولم نرمَ معهم بسهم ، ولم نُطعن برمح ، ولم نضرب بسيف ، ولا ندري ما صنعوا . لا والله لا نفعل ، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ، نقاتل معك حتى

نرِدَ موردك ، فقبَّح الله العيش بعدك[1] » .

الأخلاق معدن الثورات

وأخلاق الثوار هي المعدن الأصيل في كل حركة ، ومثل هذه الأخلاق هي التي منعت العباس « ع » من الشرب حينما تذكر عطش الحسين ومن معه ، فقذف بالماء وهو يقول :

يانفس من بعد الحسين هو ني
و بعده لا كنت أن تكو ني
هـــــذا الحسين وارد المنون
وتشربين بـــــــارد المعين
تالله ما هذا فعال ديني[2] .

وهي الأخلاق التي دفعت بالحسين الشهيد وهو مطوَّق بألف فارس وعلى رأسهم الحُر الرياحي ، وقد جاؤوا لمناجزته وإقصائه إلى المدينة أو للقدوم به إلى الكوفة ، كي يأمر أصحابه بإسقاء أعدائه وترشيف خيلهم عبَّتين أو ثلاثاً أو أكثر[3] .

هي أخلاق الثوار التي لا يسمو فوقها أخلاق ، والتي دفعت بالشهيد العظيم لأن

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٣٨ ، والكامل ج٤ ص٢٤ ، والإرشاد المفيد ، وأعلام الورى ص١٤١ ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ص٢٠٢

(٢) رياض المصائب ص٣١٣

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٢٦

يحني السِّقاء بيده ليروي علي بن الطعان ويسقي فرسه ، وهو المحارب الذي جاء مع الحُر لمقاتلته .

وإذا كان للأخلاق مجاذب مغناطيسية قوية ، فإنها تبلغ لدى الثوار الذين يباركونها بالدم ، مجاذب أقوى لا يقدر مطلق إنسان على الوقوف حيال قوة جذبها ، وهذا ما دفع بالحُر الرياحي لأن يترك قيادة الألف فارس وينضم إلى جيش الحسين قليل العدد وهو يُعلن توبته له ، ويطالب بالشهادة دفاعاً عنه وعن مبادئه .

وجَذْبُ الأخلاق ما استطاع جون مولى أبي ذرٍّ الغفاري ، مقاومته ، فتقدم مستأذناً الحسين للقتال ، وهو المولى الأسود الذي ما تبعهم إلا طلباً للعافية بينهم ، ولما رفض الحسين وقع العبد الأسود على قدميه يقبلها ويقول :

« أنا في الرخاء ألحس قِصاعكم ، وفي الشدَّةِ أخذلكم ، إن ريحي لَنَتِنٌ وحسبي لَلَئيم ولوني لأَسود ، فتنفَّس عليَّ بالجنة لِيَطيب ريحي ويُشرَّف حسبي ويبيضَّ لوني ، لا والله لا أفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم ».

فأذن له الحسين فتقدم وقاتل،فقتل خمسة وعشرين قبل أن يُقتل[1]

بين مبادىء وأخلاق

فمسلم ما بعد ثورة الحسين « ع » غدا صفحة بيضاء مفتوحة تنتظر من يخطَّ عليها سطراً جديداً ، وفي بحثه عن النموذج الأخلاقي ، لم يكن أمامه مناص من المقارنة بين خلقي الحسين ويزيد ، وبين تلك المبادئ التي لقَّنها أبو كلٍّ منهما لابنه . وفي مرحلة

---

(١) مثير الأحزان لابن نما ص٣٣ ، وتاريخ الطبري ص٢٣٩ .

تفهُّم الحقيقة التي دوَّمته في دوامتها ، صار يسأل ويسمع ويتحدث ويتذكر . . تذكَّرَ مبادئ الطرفين من المتقاتلين ، وعاود تذكُّرَ مبادىء جيل الآباء الذي سبقهم ، وفي غمرة التذكُّر وعودة الوعي ، تذكَّر وصيَّة علي عليه السلام لإبنه الحسين « ع » ، في التقوى والأخلاق ومخافة الله والناس فيه ، حيث قال له :

« يابني أوصيك بتقوى الله عزَّ وجلَّ في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الرضى والغضب ، والقَصدُ في الغنى والفقر ، والعدلُ في الصديق والعدو ، والعمل في النشاط والكسل ، والرضى عن الله تعالى في الشدة والرخاء .

يابني ما شر ، بعده الجنة ، بشر. ولا خير ، بعده النار ، بخير. وكلُّ نعيمٍ دونه الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار ، عافية .

إعلم يابني أن من أبصر عيب نفسه شغل عن غيره ، ومن رضي بقسم الله تعالى لم يحزن على ما فاته ، ومن سلَّ سيف البغي قُتِلَ به ، ومن حفر حفرة لأخيه وقع فيها ، ومن هتك حجاب غيره إنكشفت عورات بيته ، ومن نسي خطيئته إستعظم خطيئة غيره ، ومن كابد الأمور عطب ، ومن اقتحم البحر غرق ، ومن أُعجب برأيه خلَّ ، ومن استغنى بعقله زلَّ ، ومن تكبر على الناس ، ذُلَّ ، ومن سفَّه عليهم شُتِم ، ومن دخل مداخل السوء اتُّهِم ، ومن خالط الأنذال حُقِّر ، ومن جالس العلماء وُقِّر ، ومن مزح استُخفَّ به . ومن اعتزل سَلِم ، ومن ترك الشهوات كان حراً ، ومن ترك الحسد كان له المحبة من الناس .

يابني عز المؤمن غناه عن الناس ، والقناعة مال لا ينفذ ، ومن أَكثَرَ ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن علم أن كلامه من عمله قلَّ كلامه . يابني الطمأنينة قبل الخبرة ، ضدُّ الحزم إعجاب المرء بنفسه ، وهو دليل على ضعف عقله ، يابني كم من نظرة جَلَبت حسرة ، وكم من كلمة جلبت نقمة ، لا شرفٌ أعلى من الإسلام ، ولا

كرمٌ أعلى من التقوى ، ولا معقلٌ أحرز من الورع ، ولا شفيعٌ أنجع من التوبة ، ولا مالٌ أذهب للفاقة من الرضى بالقوت ، ومن اقتصر على بلغة الكفاف تعجّل الراحة وتبوّأ خفض الدعة ، الحرصُ مفتاح التعب ومطيّة التعب وداع إلى التقحم في الذنوب ، والشرُّ جامع لمساوئ العيوب . وكفى أدباً لنفسك ما كرهته من غيرك ، ومن تورط في الأمور من غير نظر في الصواب فقد تعرض لمفاجأة النوائب ، التدبيرُ قبل العمل يؤمنك الندم ، من استقبل وجوه العمل والآراء عرف مواقع الخطأ ، الصبر جِنَّةٌ من الفاقة ، في خلاف النفس رشدها .

يابني . ربك للباغين من أحكم الحاكمين وعالم بضمير المضمرين ، بئس الزاد للمعاد العدوان على العباد ، في كل جرعة شَرَق ، وفي كل كلمة غَصَص ، لا تُنالُ نعمة إلا بفراق أخرى ، ما أقرب الراحة من التعب ، والبؤس من النعيم ، والموت من الحياة ، فطوبى لمن أخلص الله تعالى علمه وعمله وحبه وبغضه ، الويل الويل لمن بُلي بحرمان وخذلان وعصيان ، لا تتم مروءة الرجل حتى لا يبالي أيَّ ثوبيه لبس ، وإلا أيَّ طعاميه أكل(١) » .

هذه الوصية التي تضمنت كل هذه المبادئ الحياتية ، من خلقية وإجتماعية ودينية ، كانت بمثابة الهَدي الذي قاد خطوات الحسين فيما بعد على طرق الحق والخير ونصرة المظلوم . وإذا تذكَّرها مسلم ، وطافت فوق مكنونات سويدائه ، فبماذا ستذكِّره . ؟ وإذا ذكَّرتهُ . كيف ستكون مقارنته بينها وبين وصية معاوية لإبنه يزيد حينما حضرته الهَلكة فدعاه ليقول له :

« يابني إني كفيتُك الرحلة والتّرحال ، ووطأتُ لك الأشياء ، وذلّلتُ لك الأعداء وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، وإني لا

---

(١) راجع كتاب الإعجاز والإيجاز لأبي منصور الثعالبي ص٣٣ ، وكتاب ينابيع المودة ص٥١٩ .

أتخوّف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتبٌ لك إلا أربعة نفرٍ من قريش : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن ابن أبي بكر .

فاما عبدالله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يُخرجوه ، فإن خرج عليك فظفرت به ، فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيما . وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليس له همة إلا في النساء واللهو ، وأما الذي يجثم لك جُثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه ، فقطّعه إرَباً إربا » .

وصيتان الفرق بينهما شاسع كالفرق بين الظُلمة والضياء ، فرجل يوصي إبنه بالقناعة وذكر الله ، وآخر يوصيه بالطمع والتكالُبِ على الدنيا . ورجل يوصي إبنه باستقبال وجوه العمل والآراء تفادياً للوقوع في الخطأ ، وآخر يبلغه بالاسترخاء بعد أن كفاه الرحلة والتِّرحال .

وصيَّة رحومة عطوفة أخلاقية تدعو إلى خشية الله تقبّلها شاب من أبيه فغَدَت له نبراساً ينير طريقه ، فمشى على هَـدْيِها حتى غالبتهُ الحتوف وضيَّقت عليه النوازل . ووصيَّة مغرورة متراخية تقطُر لؤماً ولا أخلاقية قدَّمها طاغية مريض لإبن فاسق يُنبئُه فيها بصفاقة ما بعدها صفاقة ، بأنه ذلَّل له الأعداء ، وأخضع له أعناق العرب .

فشتَّانٌ بين وصيتين ، إحداهما تنطق بالرحمة ، والأخرى بالظلم ، وشتَّان بين كلمة علي « ع » « **ربك للباغين من أحكم الحاكمين** » ، وبين كلمة معاوية « **وذلَّلت لك الأعداء وأخضعت لك أعناق العرب** » .

شتَّان بين قولة رجل لإبنه : « **ومن سلَّ سيف البغي قُتل به** » ، وبين قولة آخر لإبنه : « **إن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطِّعه إرَباً إربا** » .

هذا الشتّان ، هو الفارق الذي عناه علي « ع » لابنه الحسين حينما ردّد على مسمعه : « **ما أقرب الراحة من التعب ، والبؤس من النعيم**[1] ، **والموت من الحياة** » . فالراحة قريبةٌ من التعب ، ولكنهما على طرفي نقيض . والبؤس قريبٌ من النعيم ، ولكن أين هما من بعضِهما . والموتُ قريب من الحياة ، ولكن الموت هو النقيض الصارخ للحياة .

إنها حِكَم إعجازية قيلت في كلمات إيجازية مكثَّفة ، وهي لا تخرج على ما أثبته علم النفس من أن كلَّ أمر قريب من نقيضه لا يفصله عنه إلا شعرة ، هذه الشعرة هي موقف الشخص من الأمرين اللذين يواجهانه ، تماماً كموقف شخصين عُرضت أمامهما كأسٌ مملوءة لنصفها ماء ، فيرى أحدهما أنها فارغة حتى النصف ، بينما يراها الآخر ملآنة حتى النصف . وقد أكَّدت نظريات الفلسفة أن العقل البشري يتشرَّب المبادىء في فترة الطفولة ، ثم خلال فترة الكمون التي تعقب فترة الطفولة ، ثم في فترة الشباب المبكر .

فالطفولة أشبه بالإسفنجة الماصَّة التي تخزن كلَّ تجارب ومبادىء الإنسان في عقله الباطن ، وتأتي فترة الكمون ، وهي الفترة التي يُعرِّفها علم النفس بفترة تناسي كل المخزونات في العقل الباطن ، فلا تلبث هذه المخزونات أن تُعلن عن نفسها بلا حسٍّ إرادي من صاحبها ، وتكوِّن مجمل أفكار ومبادىء وتصرفات الشخص في فترة شبابه وما يليها حيث توضع هذه الأفكار والمبادىء موضع التنفيذ ، من وحي عقله الباطن ، أي من منطقة الغريزة التي لا سُلطة للإنسان عليها ، والتي لا يُمكن له من تفهُّم دوافعها وبواعثها ، فيتصرَّف بإيحاء منها ، وكثيراً ما يقف ليسأل نفسه

---

(١) في كتابه « العالم كإرادة وتصوُّر » يكشف الفيلسوف « أرثر شبنهاور » عن هذا التقارب النفسي والحسي بين الراحة والتعب ، والبؤس والنعيم . في عرضه لعلم الأخلاق القائم على الإنسانية الرؤوفة الشفوقة .

بعدها : « **لمَ فعلتُ هذا وذاك من الأمور**[1] . . ؟ »

والحسين « ع » لا يختلف عن غيره في مروره خلال أدوار هذه المرحلة ، وكذلك يزيد ، وقد تشرَّبا كلاهما أفكار ومبادىء والديهما ، وأتخذاهما قُدوة في مُقبلِ الأيام ، كذلك كان للبيئة أثرها في تكوين نفسيتيهما ، فمضى الحسين « ع » في كل مراحل حياته يعمل بوحي من بيئته الأدبية الإسلامية التي رضع أخلاقياتها مع حليب طفولته ، فلم يسمع أي إنسان عن الحسين طيلة حياته كلمة ، أو يعاين له موقفاً يدل على عكس السموِّ والنُبل والأخلاق والحرصِ على الدين .

وفي المقابل لم يسمع أيُّ إنسان عن يزيد طيلة حياته كلمة ، أو يعاين له موقفاً يدل على عكس الخسَّةِ والعبث والظُّلم والحرص على الدنيا .

وفي ميزان « **المقارنة** » الذي نصبه الإنسان المسلم بعد ثورة الحسين « ع » ، وضع في كفَّتيه كلَّ ما يتَّصلُ بشخصي الحسين ويزيد ، ثم ابتعد قليلاً وألقى نظرة فاحصةً مقارِنةً حيادية تبغي الحقَّ الذي أخذ يلحُّ في ضميره .

رأى في كفَّةِ الحسين شمائلَ النبوَّةِ ومواقف الرجال الأفذاذ ، وسمع من جانبها مبادىء الحقِّ والعدل .

رأى في كفته « ع » ميراثاً فكرياً محمدياً ، لا قَبَلياً ولا إقليمياً ، خالٍ من التعصب إلا فيما يتعلق منه في مسائل العقيدة .

رأى في كفَّته سرَّ النبوَّة ، سرَّ الجدِّ والسِّبطِ في آن معاً ، وتخيَّل الرسول يقبل سِبطه في شفتيه ويردد : « **حسين مني وأنا من حسين** » .

---

(١) وهذا ما يُسمَّى في علم النفس « الأفعال اللا إرادية » .

ثم رأى هذا الطفل رجلاً يرفع راية الإسلام فوق رأسه ، وتخيَّله يُعلن بملء فيه : « **من قَبِلني بقبول الحقِّ فالله أولى بالحق** » .

ورآه متخيِّلاً يبتعد عن مجلس أبيه علي « ع » ونفسه مُترعة بقولة أبيه التي كان يسرُّها في أذنه كوصية : « **من تكبَّر على الناس ذُل** » ثم رآه في مكان آخر يقول لبعض الناس : « **أنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ، نفسي مع أنفسكم ، وأهلي مع أهليكم ، فلكم فيَّ أُسوَة** » .

رآه في مواقع العمل في المبدأ ، فأُعجب كيف عمل به بهذه الأمانة ، ووضع نفسَهُ أُسوَة مع غيره .

رآه كأسد جائع إلى إحقاق الحق ، وقد قرَّر الزحف بأسرته الصغيرة ، قليلة العدد والعُدَّة في وجه كَثْرة العدو ، وخِذلان النصر . وسمعه يردِّد :

فإن نهزم فهزامون قدماً
وإن نغلب فغير مغلبينا

وما أن طبنا جبن ولكن
منايانا ودولة آخرينا

إذا ما الموت رفع عن أناس
كلاكله أناخ باخرينا

فافنى ذلكم سروات قومي
كما افنى القرون الغابرينا

فلو خُلِّدَ الملوك إذن خُلِّدْنا
ولو بقي الكرام إذن بقينا

فَقُلْ للشامتين بنا افيقوا (١)
سيلقى الشامتون كما لقينا .

ورأى في كفة الشهيد كيف تحرَّك في وجه معاوية حينما كان يعد إبنه للخلافة ، وتخيله جالساً فوق الرمال جلسة متواضعة زاهدة وهو يخطُّ رسالة لمعاوية يطالبه فيها بأخذ يزيد فيما أُخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش ، والحمام السبق لأترابهن ، والقِيان ذوات المعازف ، وضرب الملاهي وترك ما يحاول من إيهام الناس فيه ، كمن يقدحُ باطلاً في جور وحنقاً في ظلم .

رآه يرفض البيعة ليزيد بكلمته الشهيرة « **ومثلي لا يبايع مثله** » ورآه يتمرَّد على طاعة إمام مزيف .

رآه وهو يخرج من المدينة إلى الكوفة ، ورأى مواقفه الشجاعة في مواقع الخطر ، وسمع أقواله وكلماته الأخيرة أمام أشداق الموت . . فلم يجِد فيها أدنى اختلاف عن تلك التي عَرَفَها منه وهو آمن مطمئن في المدينة بعيداً عن منازل حتفه .

ثم رآه فوق ثرى الطَّفِّ رابط الجأش قوياً ، يشِعُّ وجهه بنور سماوي بينما يتساقط حوله خُلُصُ صَحْبه وأهل بيته ، وتُنتهك حَرَمه على مرأى منه .

رآه يقف كالأسد الهصور وحيداً يصيح في وجه أعداء الدين يدعوهم للبِراز وهو يردِّد :

---

(١) إختلفت المصادر في نسبة هذه الأبيات ، فنسبها إبن هشام في السيرة ، لفروة بن مسيك المرادي ، ونسبها الفرزدق إلى خاله العلاء ابن قرظة ، أما المرتضى في الأمالي فقد نسبها إلى ذي الإصبع العدواني ، وفي عيون الأخبار لابن قتيبة ، وفي شرح الحماسة للتبريزي إنها للفرزدق .

أنـــــا الحسين بن علي
آلـــيت أن لا انـــثني
أحـــمي عـــيـــالات أبي
أمضي على دين الـــــنبي[1]

ورآه وهو يقبِّل ولده الرضيع ويودِّعه قبل أن يلقى حِمامه ، ثم وهو يرفعه فوق يديه على مرأى من وحوش بشرية تحجرَّت قلوبها ، ورأى حرملة بن كاهل الأسدي يرمي الرضيع بسهم فيذبحه وهو بين يدي أبيه .

رآه . . ورآه . . ورآه . . في كل موقف وفي كل ميدان . . رآه كما يرى الإنسان البرق فلا يلحقه ببصره ، رآه في الميدان ممدَّداً وشمَّر بن ذي الجوشن الكلب الأبقع ينيخُ على صدره ويقبض على شيبته المقدسة ويضربه بالسيف إثنتي عشرة ضربة ، ثم يحتزُّ رأسه الشريف .

وتتوالى المشاهد بعد ذلك أمام ناظري المسلم ، مُنبعثة من كفَّة الحسين « ع » ، فيرى رأسه فوق رمح ، ويرى موكب السبي الذي يفتِّت القلوب ، ويعبر في مجاز خياله منظر الرأس الشريف في طبقٍ عند أقدام طاغية ، وقضيبٌ ينكتُ شَفتيه .

ومع ما كان يراه ، كان يسمع صوت العقيلة زينب يذكِّره ببيعة نفسه لشيطان أطماعه الدنيوية ليشتري بثمنها مكاناً مُقيماً في الجحيم .

وحينما يصل هذا المسلم إلى هذا الحد من الرؤى المنبعثة من كفَّة الشهيد « ع » ، ينفطر قلبه توجُّعاً وتدمع عيناه ندماً ، فيقرع صدره ويضرب خدَّيه ، وما يلبث أن

---

(١) مناقب إبن شهراشوب ج٢ ص٢٢٣

يلتفت نحو الكفَّة الثانية . . فماذا يرى . . ؟.

في كفَّــــة يــزيد

يرى يزيد جالساً بين ندمائه يُعاقر الخمرة ويُعابث النساء وأمامه كلاب مُسرجة بحُللٍ من ذهب ، وبعض الجواري ممن تحلَّيْن باللآلئ يرُحن ويغدون بصوانٍ من ذهب خالص ، وأمام يزيد صينية ملأى باللؤلؤ الناصع ، وعند رجليه شاعر معروق يقول فيه قصيدة ركيكة المعنى والمبنى . . وهو منصرف عنه يقهقه بصوت ماجن ، وأصابعه المحشوَّةِ بالخواتم تعبث بصدر جاريةٍ رومية . . . وينتهي الشاعر من قصيدته فيتنبَّه يزيد لذلك ، فيعتدل ليُنشد بدوره :

أقول لصحب ضمَّتِ الكأس شملهم
وداعي صبابات الهوى يترنم
خذوا بنصيب من نعيم ولذة
فكلٌ وإن طال المدى يتصرِّمِ (١)

وهو في مجلس شرابه وندمه . . . إذ بأحد الخدم يقتحم عليه قصفه ويسرُّ بأذنه ببضع كلمات يتغير على أثرها لون وجهه . . ويهب لا مبالي ، وقبل أن يغادر يطلب من وكيل جلسته أن يحشوَ فم الشاعر المعروق لؤلؤاً ، تكريماً له . . . ثم يختني عن الأنظار ليظهر أمام أبيه المحتضر .

---

(١) راجع حياة الحيوان للدميري ج ٢ ص ٢٧٠

وفي صمت يتقبّل منه وصيّته الأخيرة ، لينطلق بعدها في عمليات لا حدّ لها من التهوُّرِ مخالفاً بذلك وصية والده في بعض فقراتها .

رأى المسلم يزيد خلال ثلاث سنين ونصف ، قاتلاً مُفضحاً ، بدأ ولايته بقتل الحسين ، وفي سنته الثانية أباح المدينة ثلاثة أيام بعد أن نهبها ، وقتل فيها سبعمائة من المهاجرين والأنصار ، وعشرة آلاف من الموالي والعرب والتابعين ، وافتضّ ألف عذراء [1] .

رآه يداعب قرده « **أبا قيس** » ويُلبسه الحرير ويطرِّزه بالذهب واللآلئ ويُركبه أتاناً في السباق ويجهد كي يجعله سبّاقاً على الجياد . . . ويقول فيه :

تمسَّك أبا قيس بفضل عنانها
فليس عليها إن سقطت ضمان

ألا من رأى القرد الذي سبقت به
جياد أمير المؤمنين أتان [2]

ورآه متثاقلا متمارضاً ، بينما جيش أبيه يتجه إلى القسطنطينية ، وسمعه حينما ضرب الجوع والمرض هذا الجيش في منتصف الطريق ، ينشد هذه الأبيات التي تدل على ختله وخداعه :

ما أن أبالي بما لاقت جموعهم
بالفرقدونه من حمَّى ومن موم

---

(١) الذهبي في سير أعلام النبلاء ، ورسالة الجاحظ ص ٢٩٨ الرسالة الحادية عشرة في بني أمية – عن المقتل للمقرم –

(٢) أمالي الزجاجي ص ٤٥

إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً
بديـر مِران عنـدي ام كلثوم[1]

ورأى معاوية حينما بلغه هذان البيتان يقسم ليلحقن إبنه أمير المؤمنين المزمع ، بالجيش تفادياً للفضيحة ودرءاً لشماتة المسلمين ، بعد شيوع هذا القول في مختلف الأوساط .

ورأى يزيد يطلب من إبن زياد بثَّ عيونه خلف الحسين خلال توجُّهه إلى العراق ، وحبسَ الناس على الظِّنة وقتلهم على التُّهمة .

ورآه في حضن أمه ميسون بنت عبد الرحمن بن بجدل الكلبي ، بعد أن ولدته بالحرام من عبد لأبيها مكَّنته من نفسها فحملت به .

ورآه على شاكلة جده أبي سفيان عدو الله والإسلام الذي قاد الحرب ضد القرآن في بدرٍ وأُحدٍ والأحزاب .

ورآه على شاكلة جدته هند المغرمة بحبِّ السود ، والتي أنجبت والده معاوية بعد زواجها من جده بثلاثة أشهر . . . والتي أكلت كَبِد حمزة عم الرسول ، ولُقِّبت بآكلة الأكباد .

رآه على شاكلة أبيه معاوية الذي حارب علياً في صفين ، وقتل عمار ابن ياسر ، وسمَّ الحسن ، ومالك الأشتر ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

رآه ينشد « **ليت أشياخي ببدر شهدوا** » حينما رأى رأس الحسين على سنٍّ رمح ، وسمع قهقهته وهو ينكت ثنايا الرأس الشريف بالقضيب .

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٩٧

رآه يشرف من قصره على موكب السبي المشدود بالحبال على أقتاب الجمال ، ورأى الإمام زين العابدين وفي عنقه الأغلال ، ورأى رؤوس شهداء الطَّف فوق أسنَّة الرماح .

رآه يأمر . . . فيتحول أمره إلى إبادة لذريَّة الرسول ، ويأمر . . . فيُحتز رأس ريحانة الرسول ، ويأمر فيُوطأ جثمانه الطاهر بحوافر الخيل .

رأى . . . ورأى . . . ورأى . . . حتى كادت المشاهد تختلط ببعضها مع ما فاض في مآقيه من دمع ، وبين كفتي الحسين ويزيد أخذ بصره يتابع بحدَّةٍ وسرعة كثافة الرؤى والأحداث ، فغدت هذه الرؤى كشريط ذكرى وتذكُّر يعرض أمام ناظريه ، بما لا يجعله يقف طويلاً عندها ، بعد أن بلغت روحه التراقي ، ولم يعد بإمكان مشاعره المثلومة أن تركِّز على ما يُعرض أمامه ، وما يراه بصره خلال تنقُّلِه بين كفتي الخصمين . .

رأى الحسين . . ورأى يزيد . . ورأى معاوية . . . ورأى علياً ورأى زينب . . وها هو الشريط يتسارع أمام عينيه . . . وها هو :

الحسين طفلاً بين يدي جدِّه . . وجدُّه يقول : « **أللَّهم أَحبَّه فإني أُحِبُّه** » . .

علي يقول لإبنه الحسين : « **من سلَّ سيف البغي قُتل به** » . .

يزيد يرقِّص القرد كقرَّاد . .

الحسين يهتف : « **قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لابد منه** » . .

يزيد يهتف : « **أسقني شربة تروي مشاشي** » . .

معاوية يأخذ البيعة بحد السيف . .

زينب تصرخ : « **يا جداه يارسول الله أنا ناعية إليك ولدك أخي الحسين** » . .

يزيد بين القِيان والجواري . .

يزيد بين نساطرة الشام . .

الحسين يهِبُ مال بيته للفقراء . .

يزيد يحشو فم شاعر باللؤلؤ . .

علي . . « **ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه** » . .

زينب تهتف بوجه يزيد : « **فوالله ما فريتَ إلا جلدك ولا حززتَ إلا لحمك** » . .

يزيد يقول لعلي بن الحسين : « **ما أصابكم من مصيبة فبما كَسَبتْ أيديكم** » . .

معاوية يدسُّ السم لخصومه السياسيين . .

الحسين مقطوع الرأس في كربلاء . .

يزيد يأمر بمنع الماء عن الحسين . .

يزيد يُشير إلى الرأس الشريف ويسأل : « **أتدرون من أين أُتي هذا . . ؟** » .

الحسين بين أمه فاطمة الزهراء وأبيه علي . .

يزيد بين أمه ميسون وأبيه معاوية . .

معاوية يحتضر ويكذب بأن الرسول « **ص** » كساه قميصاً وقلَّم أظفاره يوما .

الحسين يهتف : « **ألا من ناصر . . ألا من معين . . ؟** » .

الحسين يستعطف قوماً غلظت قلوبهم لجرعة ماء لرضيع . .

معاوية في غَبَش الرؤيا ، خفيٌّ المعالم . . غامضُ المبادىء والمواقف . .

الحسين المقتول سِبط الرسول الكريم . .

يزيد القاتل إبن معاوية الثعلب . .

علي جامع الفضائل وحامل راية الإسلام من يد النبي . .
معاوية يغتصب الخلافة لإبنه عُنوةً . .
آل البيت أحقُّ بالخلافة من بني أمية . .
يزيد شارب الخمر معلن بالفسق . .
الحسين سيد شباب أهل الجنة ، وطالب الإصلاح في أمة جدِّه . .
يزيد جعل الخلافة الإسلامية بيد السُّفهاء والقِيان والفهَّادين والغِلمان . .
الحسين استشهد مع عِترة النبي دفاعاً عن عقيدة الإسلام .

* * * *

وفي مثل هذه المواقف التي وجد المسلم بها نفسه ، تعصف به رياح الشك والندم فيما كان . . . وقف متأمِّلا على مفترق عدة طرق ، وقف بعد أن أجَّجت ضميره عصفة إثر عصفة من عواصف المثل الثوريَّة الجديدة ، فدفعته إلى التساؤل بينه وبين نفسه ، وكان يسمع إجابات داخلية تربِّتُ حيناً ، وتدغدغ حيناً آخر ، وتدقُّ مرارا . .

وقف يسأل على مفترق طرق ، قبل أن يقرِّر سلوك إحداها ليصل إلى مايعزم عليه ، وإلى الهدف الذي يتبدَّى له أصلح من غيره نتيجة ما يتجمَّع في قناعاته ، وما يتولَّد من أفكاره ومبادئه ، وما تفرزه الأحداث والخضَّات التي أصابته في الصميم . .

سأل نفسه :

– من أنا . . . ؟ ؟

أجابته نفسه :

- أنت مسلم ما بعد الثورة
- **وما كنته قبلها إذن . . . ؟**
- لم تكن شيئاً . . فقد بعتني للشيطان وقبضت الثمن . .
- **كيف . .**
- رأيت الباطل فسكتَّ عنه
- **لم أكن أعرف أنه باطل !**
- بل عرفت . . ورأيتَ الحقَّ يُداسُ فلم تَرفع إصبعاً . .
- **لم ألحظ هذا الأمر . . !**
- بلَى . . لحِظته وتعاميْتَ
- **لم يصل إلى مسمعي . .**
- بلَى . . وصل وتصاممْتَ
- **ما كان عليَّ أن أفعل . . ؟**
- أن تهبَّ وتقتلعَ
- **اقتلعُ ماذا . . ؟**
- الزيف . . الظلم . . الضنك . . إنتهاك العقيدة . .
- **ومن أين لي القدرة وأنا الضعيف . . ؟**
- لستَ ضعيفاً . . بل قوياً . . تعاميك وصممك قوة . .
- **وهل أقدر على الطغاة . . . ؟**
- أجل . . بنصرتك رافعي لواء الحق . .
- **ومن هم هؤلاء . . . ؟**
- الحسين
- **وأين كنت سألقاه لأنصره . . ؟**
- في قلبك وداخل مأوى عقيدتك

– **لو أدركته لنصرته . .**

– مادمتَ سكتَّ عن يزيد فلن تنصر حسينا .

– **وهل نُصرتي كانت ستفيده . . . ؟**

– عندما تنصرُهُ تُضيفُ لسيوفه سيفاً جديدا

– **لا أُكذِّب . فلم أعِ ذلك في حينه . .**

– ألم أقل لك بأنك تعاميتَ وتصاممْتَ . . فلم تعد ترى ولا تسمع . . . ؟

– **ولكني مسلم . . وطاعة الخليفة واجبٌ علي . .**

– الخليفة الذي قتل سِبطَ النبي بإسم إسلام جدِّه . . . ؟

– . . .

– لقد اشتريتَ دنياك بآخرتك .

– **أنا نادم . . بعد أن علمتُ بما جرى . .**

– وما يفيدُ ندمك الآن أيها المسلم . . ؟

– **ألا يفيدُ بشيء . . ؟ ألا يمكنُني فعل شيء . . . ؟**

– بلَى . . يمكنك مقايضة دنياك بآخرتك . .

– **أنا مستعدٌ لهذه المقايضة . . علَّ أن يرتاح ضميري . .**

– اذن فهل تُقرُّ بأنك لم تنصر الحسين . . . ؟

– **أُقِـــر . .**

– وبأنك نصرت يزيد بسكوتك على مخازيه . . . ؟

– **أُقِـــر . .**

– وهل لديك فكرة عن كيفية إراحة ضميرك . .

– **بأن أنصرَ الحسين . . . وأناجز يزيد . .**

– ولكن الحسين قُتل ولم يبق إلا مبادئه وشعارات ثورته .

– **سأسير إذن على هذه المبادىء منذ الآن فصاعدا . .**

– وهل بمِكْنتِكَ وأنت خارج للتوِّ من معمعةِ تخاذلك . . ؟
– يانفسي . . . إرحميني . . . كنت ضالاً فاهتديت . . . وكنت ظماءاً فشُفيت .
– لثورة الحسين شعارات لا يحتملها إلا المؤمن
– أنا مؤمن . . . أنا مؤمن . .
– وكيف ستبرهن على إيمانك . . . ؟
– بكوني مسلماً . وبعملي بمبادىء الحسين منذ التَّو
– لايكفي هذا . . فقد كنت مسلماً حينما خذلت الحسين . .
– يانفسي . . رُحماك . . أشيري بما يتوجب علي فعلَهُ وسأفعلُه . .
– أولاً . . . أن تُلزِم نفسك بكلٍّ كلمةٍ نطق بها سيد الشهداء
– سأفعل . . . سأفعل . .
– وأن تعمل بكلٍّ مبادئه مهما لحقك من أذى . .
– لم تعُد تهمني حياتي . . . بل راحة ضميري كمسلم . .
– وأن تبدأ منذ الآن بهدم أصنام مجتمعك وأخلاقك . .
– سأهدُمها . . . وأُفتّتها . .
– وأن تنصر الحسين . .
– تقصدين مبادئه التي أعلنها . . ؟
– أجل . . وقصدي أن ترعى بنفسك ما زرعه في داخلك . . . وتتمِّم ما بدأه فيك . .
– هلاَّ أخبرْتني بما زرعه لأكون على بيِّنة . . . ؟
– زرع فيك حبَّ الخير ، وعشقَ الحقِّ ، وسلامةِ العقيدة ، والثورة على الظلم ، والتصدِّي لمُحرِّفي السُّنن ، وزارعي الفتنة ، ومحقِّري الرسالات السماوية . .
– يا ويلي . . . يا ويلي من لقاء وجه ربي . . . كلُّ هذا كان ونحن عنه

غافلون . . . ؟

– أجل . . ولهذا ثار الحسين . . . ولهذا قُتل مع ذريَّة الرسول . .

– كفى يا نفسي . . كفى . . أكاد أذوب حسرة

– وأنتَ ساكتٌ عن كل ذلك . .

– آه . . إني حزين ونادم ، ليتني افقتُ قبل ذلك . . كنتُ نائماً مخدراً قبل أن رأيتُ رأس سِبطِ الرسول على سنٍّ رمحٍ كرأس قاطع طريق أو مجرم . .

– أتعرف من فعلَ ذلك . . . ؟

– أعرف . . . أعرف . . . يا ويلك يايزيد من انتقامي . .

– لقد قَتَل إبن فاطمة الزهراء وإبن علي وحفيد محمد وشقيق زينب ووالد سكينة والسَّجَّاد . . هؤلاء أخيار الله من عِترة نبيك الذي هداك إلى رسالته . .

– سحقاً لك يايزيد وسحقاً لي ولكل من سكت عنك . . . ولكن صبراً . . فلن تفلت من انتقامنا .

– لو قلتَ هذا مع حسين لما تحمَّلت وزر دمه الطاهر

– ليتني قلته معه

– كنت خنوعاً وقتها . . ذليلاً ، مساوماً على إنسانيتك لشيطان أطاعك . . . مؤثِّراً السلامة على سلامة دينك . . . فقُبحاً لك . .

– . . .

*** صوتُ بكاءٍ ونشيجٍ ولطمٍ على الخدود . .**

– عشرون عاماً بعد مقتل أمير المؤمنين علي ، وأنت صامتٌ حيال التَّقتيل والظلم وسرقة الأموال واستباحة الأعراض ، وتحريف السُّنَّة . .

– . . .

*** صوت البكاء يعلو ويزداد لطم الخدود**

- كنتَ مغرماً بعشق ذاتك حتى بلا الله خيارك ، فوجدتَ نفسك كاذباً في موطن
إبن بنت نبيك ، فبخُلتَ عنه بنفسك حتى قُتل أمام عينيك ، وأنت لاتمدُّ لنصرته يداً ، ولا تجادل عنه بلسانك ، ولا تقوِّيه بمالك . . . فما عذرك عند ربك . . ساعة لقاء نبيك . . . ؟

- . . .

*** عويل وصراخ كصراخ الذبيح وقرع على الصدور**

- لقد وَنيتَ ، وتربَّصتَ ، وانتظرتَ حتى قُتل فيك ولدُ نبيك وسلالته وبضعة لحمه ودمه ، وريحانته ، وسيد شباب أهل الجنة ، فحقَّ عليك سُخط ربك . .

- كفى يا نفسي فانا راغب في الموت تكفيراً عن إثمي . . . فارشديني

- لا عذر لك أمام نبيك يوم القيامة ، إلا عندما تقتل قاتلي إبن نبيك ، فلا ترجع إلى أهلك وأطماعك الدنيوية حتى تُرضي الله ونبيه ، بالانتقام من قاتلي شهيد كربلاء .

- لن يهدأ ضميري حتى أقضي بما تشرين

- إذن هيَّا . . أَصلح مجتمعك وأخلاقك . . . وطهِّرهُما . .

- وهل سأكون وحدي . . . ؟

- عندما تخطو وحدك ستلتقي خطواتك بخطواتِ مسلم آخر على الدرب .

- والى أين يقودنا الدرب . . . ؟

- إلى عرش يزيد . . وإلى صرح كلِّ طاغيةٍ وظالم

- واذا سقط يزيد . . هل يصلُح الإسلام . . . !

- ثورة الحسين لم تقم لإسقاط عرش يزيد . . بل لدكِّ عروش البغي في كل زمان

ومكان .

- **لم أفقه شيئاً . . . !**

- ستفقه كلَّ ذلك بعد أن تُؤدِّي ضريبة دينك وعقيدتك . . . وتُكفِّر عن إثمك ، وتُبرهن عن ندمك بخِذلانك الحقَّ والسكوتَ عن الباطل ، عندها ستتفتَّحُ بصيرتك وتفهمُ كلَّ شَيء . .

- **ومبادىء ابن النبي الأكرم . . . لن تستعصي على ضميري اللَّهوف إلى تشرُّبها . . . ؟**

- أجل . . لن تستعصي بعد أن تفعل ما أمرتك به . .

- **وهذا المفترق . . . بأيِّ طريق أسلك منه لأصل إلى خلاص نفسي . . . ؟**

- أُسلك هذا الطريق الذي قلَّ السالكون به ، لأنه طريق الحق الذي عناه أمير المؤمنين علي .

- **وهذا الطريق سيُمكِّنني من إراحة ضميري والتكفير عن تقصيري وإعادتي إلى حظيرة نبيِّي محمد . . . والانتقام من قاتلي سِبطه وذرية بيته . . . !**

- أجل . . وسيستردَّني من الشيطان الذي بعتني له . . أنا نفسك . .

- **وما إسم هذا الطريق . . . !**

- طريقُ الحسـين .

معجزات الشهادة الزمنية

فيالك حسرة ما دمت حياً
تردد بين حلقي والتراقي

فلو فلق التلهف قلب حي
همَّ اليوم قلبي بانفلاق

فقد فاز الأُلى نصروا حسيناً
وخاب الآخرون إلى النفاق[1]

هكذا كان يقول لسان حال مسلم « ما بعد الثورة » فهو بعد خذلانه لبطل الطَّف صار يحسُّ نقيصةً تفري ضعفه الباطني ، جعلته يتفرس طويلاً في خيالات أولئك الأشاوس الذين قضوا فوق ثرى كربلاء دون الحق الذي رفع رايته أسد الحق وسار بها إلى حيث المصارع والحِمام وهو عالم بما ستؤول إليه حركته .

---

(١) أبيات قالها عبيد الله بن الحر الجعفي ندماً على قعوده عن نصرة الحسين « ع » .

وحركة الحسين « ع » كان لها هدفان لا ثالث لهما ، الأول : إحداث رجَّة عنيفة في كيان الأمة الإسلامية ، وهذا هدف مبدئي وليس مرحلي أو نهائي .

والثاني : وضع الأسس النهائية والمبادىء الضرورية لحفظ كيان العقيدة إلى الأبد ، محاذراً بها أن تزل أو تضعف أو تضمحل على يد أفراد أو سلاطين ، وهذا هو هدفها الجوهري والرئيسي والأساسي .

وليس في سدى الحركة أو لحمتها ما ينبىءُ عن هدف ثالث ، وكل الذين وضعوا لهذه الحركة هدفاً ثالثاً ، إنما كانوا يرتدُّون بها من حيث لا يدرون ويقصدون ، إلى مسار آني مرحلي لا يملك من مبررات وجوده إلا الوقت الزائل بزوال أسبابه .

فما ذهب إليه إذاً مؤرِّخو الحركة من إسناد هدف إسقاط عرش يزيد أو حكم بني أمية لثورة الحسين كهدف بحد ذاته قامت الثورة لأجله ، كان في معظمه إسناد لا يتكىء على الحقيقة الجوهرية للثورة .

فسقوط عرش يزيد كان واحدة من معجزات الثورة الزمنية أي تلك المتعلقة بأشكال الحكم القائمة ، أو بالأفراد الذين يسوسون الأمة في تلك المرحلة ، وإذا كان لهذه المعجزة من سبب وهدف فليس إلا لأنها متمِّمة للمعجزتين - الروحية والاجتماعية - اللتين كانتا الهدف الأسمى لثورة الشهيد .

وبتحديد أدق كانت المعجزة على مستوى ضمير أمة الإسلام ، هي الهدف الأوحد لثورة الحسين ، الذي به قُوِّمت الأمة وعقيدتها ، والتي شكَّلت أساس كل المعجزات الأخرى التي لابد وأن تتحقق من أجل استكمال صورة المعجزة الروحية بتمامها ، فتصبح لها سنداً وعضداً وعاملاً مكملا .

فإذا نظرنا إلى ما ذهب إليه البعض في إسناد هدف إسقاط عرش يزيد بالذات إلى حركة الحسين ، وإذا قمنا بدراسة متعمقة لأفكار ومبادىء ومواقف هذه الثورة

منذ انبعاثها شرارة صغيرة حتى اكتمالها حريقاً هائلاً يأكل هيكل الأمة الإسلامية المنخور ليشيد على أنقاضه هيكلاً سليما ، لما وجدنا أيّة إشارة لكون الحركة تضع مشكلة إسقاط عرش يزيد كهدف ، سواء كمرحلي ، أو مبدئي ، أو نهائي ضمن أهدافها .

فالثورة لم تكن ثورة لفردية مجتمع أو لشريعة حكم ، بل كانت ثورة الإنسان وشرائع الفطرة الدينية السليمة ، ما دام الإنسان هو المستفيد منها ، فلا يحيد عن سُنَّته مهما تبدَّلت وتنوَّعت شرائع الحكم والمجتمعات، له في هذا الناموس مرشداً « **فأقِم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**[1] » .

إن الرمز العميق في ثورة الحسين لآية تنحت في الفطرة الإلهية الأزلية التي لا زمان ومكان وأحكام تقيدها ، فإذا كان ثمة من تبدُّل أو إكمال لهذا الرمز في بعض مواقع وظروف ، فليس معنى ذلك صيرورته رمزاً ظرفياً أو زمنياً صرفاً ، بل إن الظرفية والزمنية تنجرفان أمامه أو تلتصقان به بحكم مروره فيهما أو فوقهما .

وعندما جاءت هذه الثورة لم تطلب من الإنسان أن يأخذ بجزئياتها وتفاصيلها ، بل دعته للنظر إليها بمنظور شمولي ، وأن يقف بعيداً عنها مسافة كافية ليتبينها جيداً ، فهي شكَّلت الإطار والصورة معاً ، ومن الإغماط لها كثورة قدسية أن ننظر إليها كصورة فحسب أو كإطار وحده .

فلو نظرنا إليها بهذه السطحية لكنا كمن يخضب الفطرة الإلهية بالصنعة البشرية ، ولوجب علينا أن ننظر على مقياسها إلى موقعة كربلاء ، نظرة مادية صرفة

---

(١) الآية « ٣٠ » من سورة الروم

تقودنا إلى اعتبارها موقعة عسكرية ليست إلاَّ .

فهي في شكلها المادي الصرف ، موقعة عسكرية صرفة ، هزمت فيها الكثرة القلة ، وفي مضمونها لا تحتوي على أدنى شبه بالمعارك العسكرية .

وكرمز روحي ، وكعبرة زمنية موحى بها من السرِّ الإلهي ، كانت معركة كربلاء من جانب الحسين ، رمزاً لوقفة الحق على ضعف وسائله ، لا لحمته ، ومن جانب يزيد ، كانت رمزاً لجولة الباطل الذي يفوز بوسائله ، على بطلانها .

فمن هذه النقطة بالذات يتاح لنا النظر إلى إكمال المعجزة الروحية الأساسية للثورة ، بمعجزة زمنية تتجلى في سقوط عرش يزيد بواسطة ذلك الحق ضعيف الوسائل ذاته الذي كانت له الغلبة عليه في كربلاء . . بأنها عكس لدورة الحق والباطل ، وتبيان للقوة الحقيقية لكل منهما . . وفي هذا سر فوق بشري تقدمه العناية الإلهية لمن شككت نفوسهم ، وتهاوت عزائمهم أمام نجاح جولة الباطل ، كما حدث للضحَّاك بن عبدالله المشرقي الذي لازم الحسين منذ بدء ثورته ، ولما لم يبق فوق أرض المعركة إلا إثنان كان هو ثالثهما . . استأذن الحسين بالذهاب تاركاً إياه أمام قوة الباطل ، نافذاً بجلده مستشعراً ضعف وسائل الحق التي يحارب بها .

وفي موقف الضحَّاك عكس لموقف الحُر بن يزيد الرياحي ، الذي انضم إلى الحسين عن وعي تام بغلبة الباطل على الحق ، فترك صف الباطل المنتصر ، وانضم إلى صف الحق المتهيىء للهزيمة .

وفي قولة الرسول الأعظم : **« أنا وأهل بيتي شجرة في الجنة وأغصانها في الدنيا فمن تمسك بنا اتخذ إلى ربه سبيلا »** ، دلالة كافية على حتمية التمسك بالشريعة التي هي سبيل إلى الرب ، لا لغاية زمنية أخرى .

إلاَّ أن معجزة الشهادة الزمنية فرضتها حتمية الشهادة بذاتها ، فالحسين عندما ثار

لم يقل : إني خرجت لإسقاط يزيد أو دكّ عروش بني أمية . . بل قال : « **وإني لم أخرج أشِراً ولا بَطِراً ولا مفسداً ولا ظالماً ، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي** » .

خرج لطلب الإصلاح في أمة محمد ، ولإحقاق الحق في المجتمع الإسلامي [١] ، ولرفع الظلم والضنك عن كاهل الفرد المسلم ،ولإحلال مناقبية أخلاقية جديدة تحل محل تلك المناقبية المدجَّنة التي ربضت في النفوس ، ولذبٍّ أذى المنتهكين عن العقيدة الوليدة ، كان هذا هدفه ، وكان ضمير الأمة مرمى كرته .

لم يكن عرش يزيد إذاً كهدف بحد ذاته سعى الحسين بثورته إليه ، بل كان هدفاً مكملاً لهدف أسمى لا دخل له بالعروش الزمنية بقدر ما كان دخله بأنماط الحكم في كل زمان ومكان ، وبأنماط الشخصية الإسلامية ، وبأساليب أخذها للسُّنَّة والعمل بها ، كما لم تكن موقعة كربلاء معركة عسكرية إنتهت في العاشر من محرَّم بانتصار وانكسار ، بل كانت رمزاً لموقف أسمى لا دخل له بالصراع بين القوة والضعف ، بين العضلات والرماح ، بقدر ما كان ذا صلة بالصراع الحقيقي بين قوة وضعف النفوس ، بين الشك والايمان ، بين المسلم وعوامل إبعاده عن عقيدته .

وهو رمز يصلح لكل مو طن وُجد فيه حاكم ظالم ، ولكل زمن إهتزت فيه العقيدة ، ولعل أفضل ما يصور كون هذا الرمز ناموساً لكل العصور والأكوان ، هذا البيت من الشعر :

كأن كل مكان كر بلاء لدى
عيني وكل زمان يوم عاشوراء

---

(١) راجع نصوص الآيات الكريمة التالية :

١٨١ من سورة الاعراف ، ١١٠ من سورة آل عمران ، و١٥٦ - ١٥٧ من سورة الاعراف

ولكن القوة لا تعمل إلاَّ في حدود القوة ، ولا تجد فرصتها إلاَّ في مسالكها ، أما الشعور فبمكمن لا يتصل به طغيان طاغية ، ولا تحامل باطل ، وفي هذا المكمن زرعت بذرة ثورة الحسين ، وامتدت فروعها فصارت فيئاً يستظله المضطهدون والمظلومون فيجدون في فيئه الراحة والسكينة .

والثورة قدمت طوق النجاة للمسلم الذي يريد الفوز بمرضاة الله ، فصار واحداً من أولئك الذين عناهم الرسول الأعظم بقوله : « **مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق** » .

وليس المقصود في هذا القول الكريم ، من ركبها ركوباً مادياً في حينها ، أو تخلف عنها تخلفاً مادياً في ساعتها . . بل يشمل هذا المغزى كل الأجيال التي تولد مؤمنة تستلهم سيرة أهل البيت وتسير على هديها . فتكون كمن تركب سفينتها لتنجو في أي وقت صحت عزيمتها .

وثورة الحسين « ع » هي السفينة التي مخرت عباب الباطل ، ولم تزل في اليمّ حتى الآن ، في رحلة بدأت أزلية وتنتهي سرمدية بانتهاء الدهور .

وعجباً أن تكون هذه السفينة في العباب كل هذه القرون ، لم تزدها حمولتها التي تثقل يوماً بعد آخر وسنة بعد أخرى . . إلا خفة ومضاء .

وفي رغبة الإنسان ، أي إنسان كان ، أن يركب هذه السفينة،معناه حملٌ لراية الكفاح التي رفعها الحسين ، وهي راية للمسلم كما لغيره . فالرسول الأعظم « ص » لم يحدد هوية من يركب السفينة بالمسلم فحسب بل بـ « **من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق** » ، وفي هذا التعميم شمولية لبني الإنسان عامة .

والمعنى المجازي في قولة الرسول ، ينفي الحرفية الكيفية عن القولة . فركوب سفينة آل البيت يتجلى في رغبة العمل بمبادئ ثورة الحسين ، والغرق بعيداً عن السفينة معناه

السكوت عن الظلم وتحريف العقيدة والعمل بروح بعيدة عن روح ثورة الشهيد ، أما السفينة فهي المبادىء ذاتها التي نادى بها الحسين ، فكان لها وقعاً صارخاً في الضمائر جعلها تهب دفعة واحدة من سباتها العميق .

وعلى الرغم من تقادم العهد منذ قيام الثورة . . فإن الإنسان يسترجعها حارة أمامه إذا ما نزعت نفسه إلى أخلاقياتها ، متى دعته الحاجة وحلت به المصائب وأناخت على خُلُقه مظالم حكامه ، فتعود إليه كما لو كانت متفجرة لتوها ، فيشارك فيها مكافحاً بصبره على بلائه ، ووقوفه في وجه الظالمين ، وبرفضه لمنطق الهدم ، فيكون بمقياس المعنى النبوي المقصود،مشاركاً ثائراً كالقاسم ، وأخيه ، والعباس وإخوته ، وآل عقيل ، وعابس ، والحجاج ، والسويد ، وبرير ، والحُر ، وكل الذين جاهدوا جهاداً مادياً إلى جانب الحسين وسقوا غرسة الشهادة في صحراء كربلاء بدمائهم الزكية .

وقد أخرج ابن ماجه وأبو يعلى عن الحسين « ع » قال : سمعت رسول الله « ص » يقول : « **ما من مسلم تصيبه مصيبة وإن قدم عهدها فيحدث لها استرجاعاً إلاَّ اعطاه الله ثواب ذلك** » .

وفي عصر الضنك والظلم والتحريف هذا الذي نعيشه ، ما أحرانا لأن نتشرف بالأخذ بالمبادىء الحسينية ، ونجعلها لنا قانوناً حياتياً وأخلاقياً . فكم من يزيد الآن فوق سطح هذه الكرة الأرضية . . ؟ وما أدرانا أن يكون أحدنا ابن زياد ، أو ابن سعد ، أو الشُمر من حيث لا يدري إذا كان في ممارساته العصرية ما يقربه من بعيد أو قريب لهؤلاء الشاطين المردة (١) . . فيكون كابن زياد عصره بعزوفه عن مبادىء

---

(١) في كثير من الأحيان نواجه نوعيات شيطانية متلبسة هيئات بشرية . نتأكد معها بأن يزيد وشمر وابن زياد وغيرهم يتكررون مجدداً في كل عصر وزمن ، ينتهكون الحق ويحلون الحرام ويحرمون الحلال . بينما ليس ثمة حسين واحد..فلنتأمل في هذا .

الحسين ، وكابن سعد زمانه بتهاونه مع الظالمين ، وكشُمَّر مكانه في عمله ضد مبادىء الحق والعدل . . فيقتل الحسين من جديد في كل مرة يقف فيها مع الباطل والزائف . ؟ .

فمبادىء الثورة الحسينية ليست شكلاً للحفظ فقط ، تأخذ شاكلتها كأنها مذهب صوفي أو تعليم نظري ، بل هي شيء كالاستحواذ تتمدد في القلب وتختلط في الفكر ، فيغدو صاحبها قلباً وفكرا .

لذا فإن أول ما مسَّت هذه المبادىء من نفس الإنسان ، مسَّت شعوره الإنساني وقلبه وفكره ، فايقظت هذه المكامن ، فأحس بشعوره ، بالندم . وبقلبه ، بالتوبة . وبفكره ، بضرورة التغيير .

وإذا كنت قد أسهبت في هذه المقدمة قبل الخوض في معنى معجزات الثورات الزمنية التي اجترحتها شهادة الحسين ، فذلك لأبين مدى ما تفعله طفرة الإيمان الصادق في قرارة النفس البشرية ، ولأوضح على أن من معجزات الشهادة الأخرى. أنها لا تقنع من أمرها بما حققته على مستوى ضمير الأمة وروحيتها ومجتمعها ، بل هي تكمل ذلك كله بتغيير الإطار الذي غيرت في داخله هذه الصور الثلاث ، ووجهتها الكمال تبغي من ورائه رفع الحقيقة بكامل جوانبها أمام الأعين ، فلا تترك مجالاً لمشكك ولا فرصة لمتخرص .

وفي كمال الشهادة لحظة جلوة العقول والأنفس والضمائر . آخر مرحلة من مراحل معجزاتها ، حينما تُرفع آخر غلالة شفافة فتبدو الحقائق أشدَّ وضوحاً ، فتُنيلُ القائمين على أخذها شعوراً بالرضى عن ذواتهم .

ونعمَ الرضى إذا كان فيه ما يستوجب الشهادة مجدداً ، فمعجزة الشهادة قد تتطلب شهادة أخرى ، أو شهادات متواترة تفعل فعل النار فوق الحديد لا تنفك

تتأجج حتى يحمى الحديد ويصير قابلاً للمعالجة .

وكما بدأت الإستجابات الفورية لثورة الحسين على مستوى الشعور بالهزة المبدئي ، ثم تلتها مرحلة التبصر في النفس والظروف والدوامات ، إلى أن وصلت إلى فترة الإنفجار بعد أن مرَّت بمرحلة كمون نفسي وضميري ، فإن شكل الإستجابات للتغيير الزمني إتخذ نفس مسار أصداء الثورة الأولى .

وهكذا خفَّ المتنادون من كل مكان وفي أحداقهم بقايا الكابوس الذي ران ثم عبر ، وتوافدوا إلى مصدر النداء يذوبون في مجهوله دون معرفتهم بكنهه إلى حيث يعالجون فيه داء ضمائرهم في انتفاضة تعيد لها العافية ، وإلى حيث يجددون ثوابهم مع الله على نصرة حسينه في مبادئه ، بعد أن خذلوه في خروجه المادي للثورة .

وكان أول الملبِّين لنداء المجهول جماعة أطلقت على نفسها « **حركة التوابين** » حيث تلاقت وتشاورت وخرجت بنتيجة أنها قد أخطأت بترك الحسين دون نصرة ، ورأى أنصار هذه الحركة أنه لا مندوحة لهم من التكفير عن مقتل سبط النبي وذلك لا يحققه إلا قتل قتلته ، وفزعوا لهذه الغاية إلى خمسة من وجهاء الشيعة بالكوفة وهم : سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجبة الغزاري ، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي ، وعبد الله ابن وال التيمي ، ورفاعة بن شداد البجلي .

وقد تداول الفزعون والمفزوع لهم بأمر ماكان من غرامهم بتزكية أنفسهم حتى بلا الله خيارهم ، فوجدوا أنفسهم كاذبين في موطنين من مواطن ابن بنت نبيهم « ص » بعد أن بلغتهم كتبه ، وقدمت عليهم رسله ، وأعذر اليهم يسألهم نصرته عوداً وبدءا ، وعلانية وسرا ، وماكان من موقفهم حيث بخلوا عنه بأنفسهم حتى قتل إلى جانبهم ، فلا هم نصروه بأيديهم ، ولا جادلوا عنه بألسنتهم ، ولا قووه بأموالهم .

وفي جلسة المقارعة هذه مع الضمائر ، صاح في الجمع سليمان بن صرد الخزاعي

الذي تولى منصب الزعامة ، قائلاً :

ألا انهضوا ، فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل والابناء حتى يرضى الله ، وما أظنه راضياً حتى تناجزوا من قتله أو تبيروا ، ألا لا تهابوا الموت فوالله ما هابه أمرؤ إلاّ ذُل ، كونوا كالأُول من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم : « **إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم** » .

وكانت صيحة سليمان بن صرد بمثابة إشارة البدء لانتفاضات لم تكن لتهدأ أو تخمد بالقوة حتى تتأجج في مكان آخر .

وكانت « **ثورة التوابين** » أول ردة فعل لاستيقاظ الضمائر في أمة الإسلام تنادى لها شيعة المدائن والبصرة ، وجمعت أنصاراً لها نفراً بعد آخر ، ولم تكد تمضي باستدعائها فترة وجيزة حتى مات يزيد ، فاتخذت الدعوة شكل الجهر بعد أن كانت سرية .

حتى إذا ما انقضت أربع سنين على تنادي التوابين للثورة ، وخمس على استشهاد الحسين « ع » ، حتى هبُّوا هبَّة ضمير واحد ورجل واحد يتناوحون ويبكون ندماً في ليلة جمعة على قبر الحسين « ع » ، ليندفعوا بعدها نحو الشام حيث أعملوا التقتيل في جيوش الأمويين حتى أبيدوا عن آخرهم[1] .

والتهبت نار الثورات بعد حركة التوابين التي اعتبرت حركة فجرها الشعور بالتقصير والندم والرغبة الصادقة في التكفير ، فلم تكن لتهدف وهي بهذا المنطلق إلا للانتقام ، وقد شاركهم نفر من غير الشيعة آملين في تغيير الحكم الأموي البغيض .

---

(١) الطبري ٤/ ٤٢٦ - ٤٣٦

وإذا كان لهذه الانتفاضة من تأثير فإنها أفلحت في شحن جماهير الكوفة وإيغار الصدور ضد الحكم الأموي ، وهذا ما ترجم بعد تفشي خبر موت يزيد،الى ثورة على العامل الأموي في الكوفة عمرو بن حريث وإخراجه من قصر الإمارة ، وتنصيب عامر بن مسعود الذي بايع لابن الزبير ، وفي تنصيبه انحسر سلطان الأمويين لفترة من الزمن عن أرض العراق .

وبانحسار ثورة التوابين بدا أن جرائر يوم عاشوراء بدأت في تصفية حساباتها والأخذ بحقها وثاراتها .

ثـــورة المدينـــة

دأبت العقيلة زينب « ع » منذ وصلت إلى المدينة بعد مقتل أخيها الحسين « ع » على إلهاب الخواطر وشحن النفوس للثورة والتأليب على حكم يزيد ، مما دفع بعمرو بن سعيد الأشدق والي يزيد على المدينة لأن يكتب لسيده عن نشاط زينب معتبراً وجودها بين أهل المدينة مدعاة لتهيج الخواطر ، ووصفها له بأنها فصيحة عاقلة لبيبة [1] .

كان وجود العقيلة زينب في المدينة أحد الأسباب الرئيسية ، ولكنه لم يكن السبب المباشر للثورة ، فقد تولّد هذا السبب بعد أن وفد إلى دمشق وفد من أهل المدينة وأشرافها بأمر من عثمان بن محمد بن أبي سفيان والي يزيد ، وقد أكرمهم يزيد أيما إكرام . . . ولكنهم ما أن عادوا من لدنه حتى أعلنوا استنكارهم لحكم يزيد وجاهروا بشتمه ولعنه وقالوا : « **قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب**

---

(١) هذه الرواية ذكرت في « أخبار الزينبيات»واوردتها بنت الشاطئ في « بطلة كربلاء » .

الخمر ، ويضرب بالطنابير ، ويعزف عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسمر عنده الخرَّاب ، وأنّا نشهدكم أنّا قد خلعناه » .

وقام عبد الله بن حنظلة الانصاري وكان زعيمهم وقال : « **جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلا بنيَّ هؤلاء لجاهدته بهم ، وقد أعطاني وأكرمني ، وما قبلت عطاءه إلا لأتقوّى به »** .

وهبت المدينة واشتعلت ثورتها ، فسلط يزيد على الثوار رجلاً اشتهر بحبه للدماء وهو مسلم بن عقبة المري ، وطلب منه أن يسوم الثائرين البيعة سوماً ، فاستباح المدينة ثلاثة أيام وهتك الأعراض وقتل الألوف من الأنصار والمهاجرين وافتض أكثر من ألف عذراء .

كل ذلك من أجل أخذ البيعة التي أعلنها : « **إنهم يبايعون أمير المؤمنين على أنهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم ما شاء** [1] » .

وقد وصف ابن كثير المفاسد التي أنزلها مسلم بن عقبة بأهل المدينة بقوله : « **من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ويوصف** » ولم يكتف بالقتل بل عمد إلى التنكيل وإثارة مخاوف قتلاه قبل قطع رؤوسهم بالسيف . ويحكى أنه لما جاؤوه بمعقل بن سنان أحد أصحاب رسول الله ، هشَّ له وأطعمه ثم سأله : « **أعطشت يا معقل . . ؟ حوِّصوا له شربة من سويق اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين** » فلما شربها قال له بلؤم : « **أما والله لا تبولها من مثانتك أبداً ، وضرب عنقه »** .

وقد مات هذا الجزار وهو في طريقه إلى مكة ليكمل ما بدأه من وحشية وإجرام في المدينة ، فدفن في الطريق . ولكن بعض الغاضبين من أهل المدينة تعقبوه واستدلوا على قبره حيث نبشوه وأحرقوا جثته .

---

(١) الطبري « ثورة المدينة » ٣٦٦/٤ ـ ٣٨١

ثورة المختار الثقفي

ولعلها أقوى الثورات وأعنفها وأمضاها نتائج ، إذ استطاعت أن تطيح بمعظم الرؤوس التي شاركت فعلياً في قتل الحسين ، ولقد جعل لها شعاراً بهذا المعنى « **يا لثارات الحسين** » وربطها بمحمد ابن الحنفية إبن علي بن أبي طالب ، وهذا ما جعل الثائرين يلتفون حوله وقد اطمأنوا إلى عدل ثورته وتمامها .

ولقد وقع عبد الله بن مطيع عامل بن الزبير بالكوفة في خطأ قاتل حينما أقدم على محاربة الثائرين مع المختار بنفس الرجال الذين تولوا قتل الحسين ، بعمر بن الحجاج ، وشمر بن ذي الجوشن ، وشبث بن ربعي وغيرهم ، مما أثار في نفوس الثائرين كوامن الإنتقام ، وذكرهم بالجريمة النكراء التي اقترفها هؤلاء في كربلاء ، فكان هذا كافياً لإثارة عنفهم الذي تبدى فيما بعد .

وكما وقع ابن مطيع بمقتل ، أنصف المختار بتوليه الحكم في طبقة « **الموالي** » وهم المسلمون غير العرب الذين كان عليهم واجبات المسلمين ، ولم تكن لهم حقوقهم ، وكان الأمويون يضطهدونهم . وقد أثار إنصاف المختار لهم حفيظة الأشراف وسادة القبائل فتكتلوا ضده وأجمعوا على حربه .[1]

وكان تكتلهم سبباً حفز المختار للتعجيل في تتبع قتله الحسين وآله في كربلاء ، فتعقبهم وأعمل فيهم القتل ، ولم يترك منهم من أحصى عليه ضربة أو كلمة في كربلاء وما قبلها وما بعدها[2] .

وكان عنيفاً مع أولئك الذين شاركوا في مجزرة كربلاء،فلم يترك ضارباً أو متكلماً أو

---

(١) الطبري ٥١٧/٤

(٢) ذكرت عدة مصادر ومنها الطبري ان المختار قتل في يوم واحد مائتين وثمانين رجلا .

ناهباً إلاَّ وأوقع عليه عنفه ، فقتل عبيد الله وأحرقه ، وقتل شمر بن ذي الجوشن وألقى أشلاءه للكلاب ، وطارد المئات والألوف من جندهم وأتباعهم، فأغرقهم بالنهر ، ولم ينج من غضبته عمرو بن الحجاج وشبث بن ربعي وغيرهم .

وكانت هذه القسوة التي تبدت في ثأر المختار إحدى حكم معجزات الشهادة التي أداها سيد الشهداء ، فكانت العدل الكامل في ثوب الإبادة ، وكانت قصاصاً بآثمي العاشر من محرم استحقت الثناء والمباركة .

وكان قصاصاً اتخذ له من أولئك الآثمين في محرم وقوداً ، وجعل من جُوَف الكلاب قبراً للكلب الأبقع شمر الذي رآه الحسين في منامه يشد عليه أكثر من غيره . فسبحان القادر مسيِّر الأحوال ، وموحي القصاص ، ومدبرِّ العدل .

ثورة مطرف بن المغيرة

ولم تنقض سنوات معدودة على ثورة المختار ، حتى كان مطرف بن المغيرة بن شعبة يثور على الحجاج بن يوسف ويخلع عبد الملك بن مروان والي الحجاج على المدائن .

وقد كتب إلى أنصاره يدعوهم إلى كتاب الله وسُنَّة نبيِّهِ وإلى جهاد من عَنِدَ عن الحق ، واستأثر بالفيء ، وترك حكم الكتاب ، وذلك ليظهر الحق ويمنع الباطل .

ولابد للمتبصر في دعوة مطرف من ملاحظة استمدادها روح كربلاء .

ثورة إبن الأشعث

وتستمر روح كربلاء في التفاعل بين المجتمعات ، وتمتد نارها إلى تحت

العروش ، فلا تستكين الجماعات حيث تصلها هذه الروح ، ولا تبقى عروش حيث تصلها النار .

فبعد أن قمعت ثورة المدينة وانتفاضة الكوفة ، تأججت في سنة ٨١ للهجرة ثورة بقيادة إبن الاشعث هزت الحكم الأموي الذي كان على رأسه الحجاج ، ودامت حتى عام ٨٣ بعد أن أحرزت انتصارات ضخمة قبل أن يقضي عليها الحجاج بجيوش سورية (١) .

ثورة زيد بن علي بن الحسين

وقد بدأها في سنة ١٢٢ هـ على هدي ثورة جده ، مقتبساً روحها في كربلاء وقد رفع لها شعاراً « **يا أهل الكوفة أخرجوا من الذل إلى العز ، ومن الدنيا إلى الدين** (٢) » ، وقد استجابت لدعوة حفيد الشهيد الحسين جماهير عريضة في طول البلاد الإسلامية وعرضها ، فبويع على الثورة في الكوفة ، والبصرة ، وواسط ، والموصل ، وخراسان ، والري ، وجرجان ، وكان مقدراً لهذه الثورة أن تكون أكبر الثورات المتفجرة من شرارات كربلاء لولا أن تم إعلانها قبل موعد استكمال تجهيزها ، وفي توقيت مختلف عن التوقيت المتفق عليه بين زيد وبين أهل الأمصار التي لبت دعوته .

وقد تعرضت هذه الثورة لأخطار عدة بسبب الجيش الأموي السوري الذي كانت قواعده في العراق ، إذ ما لبث هذا الجيش أن قضى عليها قبل أن تبدأ

---

(١) حلل هذه الثورة المؤرخ ولها وزن في كتابه « الدولة العربية » ١٨٩ - ٢٠٣ وذكرها الطبري في « ثورة ابن الاشعث »

(٢) مقاتل الطالبيين ١٣٩ والدولة العربية ٢٧١

فاعليتها .

وكان من نتيجة هذه الحركة أن تولدت منها طائفة تدعى « **الزيدية** » برهنت على استعدادها للاشتراك في كل ثورة ضد السلطة الغاشمة .

واستمرت الثورات هنا وهناك آخذة شرارات اشتعالها من شرارات كربلاء المتقدة أبدا ، ولم يعد للحكم الأموي من شاغل إلا التصدي لها واستنباط الوسائل للقضاء عليها .

وجاءت ثورة العباسيين لتضع الخاتمة النهائية لتفجر الثورات التي استهدفت الحكم الأموي الذي كان مثالاً لفساد الحكم والعروش .

واستطاعت بما رفعته من شعارات وتزودت به من مبادىء الكفاح الحسيني ، أن تنتصر في النهاية وتطيح بحكم بني أمية ، فإذا بالدولة الأموية العريضة ذات العدد والعدة تذهب بلا وناء في وقت أقل من عمر رجل مثل معاوية .

ورغم أن ثورة العباسيين لم يكن لها ذلك الدور الجذري في تبديل واقع الشعب المسلم ، فيما عدا تبديلها للحاكمين فوق العروش . . . فان بنجاحها هذا لم تتوقف الثورات بعدها ، بل استمرت مشتعلة أبدا ، إذ قد توفر للعروش دوماً أشباه ليزيد ، بينما ثمة حسين واحد كان لعظم وخلود مبادئه أن كانت تلد في كل يوم ولكل جيل ثائرين جدداً يتصدون للعمل بنورها العلوي ، ورفع راية الجهاد الحسيني الذي أضحى سمة لكل جهاد في كل زمان ومكان نبت فيهما يزيد جديد .

وهكذا تمت معجزات الشهادة التي أقدم عليها الحسين « ع » وآله وصحبه الأطهار ، وبلغت مداها – وان لم تتوقف عنده – بالثورات الزمنية التي هدت عروش الظلم وأطاحت بحكم كان من المستحيل الإطاحة به لولا ما قدمته شهادة الطف من معجزات كان لها فعل السحر في النفوس والضمائر والمجتمعات .

واذا كانت معجزات استشهاد عيسى « ع » قد تشابهت مع معجزات شهادة الحسين « ع » في فعلها داخل الضمائر والأخلاق والمجتمع ، فأنها لم تتشابه معها في المعجزة الزمنية التي تمثلت في سقوط الحاكمين ، إذ انتهت شهادة المسيح عند حدود الضمائر والأخلاق ومناطق العقيدة ، بينما تجاوزتها شهادة الحسين إلى إتمامها بمعجزات زمنية ، وذلك لحكمة إلهية تتدبر وتسيِّر .

فمن عجائب هذه الحكمة أن تجري هذه الحوادث والثورات التي تلت الشهادة كَلِماً على لسان من وقعت بجريرة قتله ، وذلك قبل وقوعها بعشرات السنين بنفس الشكل الذي صوره الشهيد وكأنه يقرؤها في لوح مكشوف أمام عينيه .

فبعد أن أنزل الله تعالى المذلة على من أهانوا وقتلوا شهيده الحسين « ع » ، فغدوا أذل من قوم سبأ ، تذكر المسلمون نبوءة شهيدهم التي قالها ببني أمية في الرهيمة :

« إن بني أمية شتموا عرضي فصبرت وأخذوا مالي فصبرت وطلبوا دمي فهربت ، وأيم الله ليقتلوني فيلبسهم الله ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً ويسلط عليهم من يذلهم [1] ، حتى يكونوا أذل من قوم سبأ إذ ملكتهم إمرأة فحكمت في أموالهم ودمائهم [2] » .

تذكر المسلمون هذه النبوءة واسترجعوا صور الذل التي ألبسها الله لبني أمية ، وكيف أهينوا وشردوا وولوا هاربين متعقَّبين وقُتلوا باعداد هائلة ومُثل بهم ، وأنزلت بهم فظاعات من التنكيل لم تكن لتخطر ببال بني أمية ولا ببني هاشم يوم صرع الحسين [3] .

---

(١) امالي الصدوق ص ٩٣ المجلس الثلاثون

(٢) روي الحديث بتمامه في مقتل الخوارزمي ج ١ ص ٢٢٦ ومثير الاحزان لابن نما .

(٣) ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما . الآية « ٩٣ » سورة « النساء » .

وفي المواقف المتشابهة تبرز الكلمات التي قيلت ، سيما إذا كانت تحمل استشفافاً بعيداً للمستقبل ، فقد تذكر المسلمون قولة شهيدهم أمام ولده واخواته وأهل بيته يوم نزل بكربلاء . . . قال وهو يبكي : « **أللهم أنّا عترة نبيك محمد قد أخرجنا وطُردنا وأُزعجنا عن حرم جدنا وتعدَّت بنو أمية علينا ، أللهم فخذ لنا بحقنا وانصرنا على القوم الظالمين** [1] » .

وأخذ الله تعالى بحق المكروب والمبتلي بكربلاء ، وكانت أيما أخذة بالحق ، تطايرت بها رؤوس بني أمية التي تعدت على عترة النبي وأخرجتها وأزعجتها ، فلم يُرَ مظلوم أُخذ حقه بمثل ما أُخذ حق المظلوم الحسين من القوم الذين ظلموه [2] .

وقد روى الحاكم في مستدركه قولاً للخطيب عن ابن عباس فقال : « **أوحى الله تعالى إلى محمد إني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً . وأنا قاتل بابن بنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفا** » .

وكأن سبحانه وتعالى لما رأى عظم عذاب الحسين أعطاه سلطة وضع نهايات ظالميه بالشكل الذي يتصوره ويصرح به ، وهذا مايفسره وقوع كل ما تنبأ به وحذر منه أولئك الذين لطخوا أيديهم بدمه ودماء أهل بيته .

وما قاله للذين يحيطون به من جند الأعداء في صحراء كربلاء قبل بدء المعركة ، ليدخل في عداد المعجزات التي ما أوتيت إلا لعيسى « ع » ، فكأن الزمن

---

(١) لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلون في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ، ومن يتولهم ، فاولئك هم الظالمون « ٨ – ٩ » سورة « الممتحنة » .

(٢) « . . . ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا . . . » راجع نص الآية « ٣٣ » من سورة « الاسرار » .

تصرم واختزل ، وكأن عشرات السنين ليست بذي بال حيال ما قاله الشهيد للذين وقفوا يسمعونه ، فكان من أمرهم بعد ذلك لا يختلف مقدار شعرة عما رسمه لهم من مصائر ونهايات .

قال لأعدائه :

« أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريثما يُركب الفرس ، حتى تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور ، عهد عهدٍ إلى أبي عن جدي رسول الله فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلي ولا تنظرون أني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم [1] .

والله لا يدع أحداً منهم إلا انتقم لي منه قتلة بقتلة وضربة بضربة وإنه لينتصر لي ولأهل بيتي وأشياعي [2] » .

فماذا يمكن أن نسمي هذا القول ؟ : نبوءة . . رؤيا . . سلطة علوية خاصة بالشهداء الأبرار . . نفحة من السر الإلهي للمختارين . . . ؟ وإلا فكيف دالت الأمور بعد سنوات معدودة من قول هذه الكلمات ، إلى نفس الشكل الذي حددته . . وبنفس الكيفية التي جاهرت بها . . فكانت القتلة بقتلة والضربة بضربة . . . ؟

ولنسمع الشهيد يكمل استقراء مستقبل الأيام فيقول « ع » :

« اللهم أحبس عنهم قطر السماء ، وابعث عليهم سنين كسني يوسف وسلط

---

(١) مقتل الحسين للمقرم ص ٢٨٧ عن تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٣٤ واللهوف ص ٥٤ .

(٢) مقتل العوالم ص ٨٤

عليهم غلام ثقيف[1] يسقيهم كأساً مصبرة » .

فكانت السنوات التي وقعت بين تاريخ مقتله وتاريخ سقوط آخر أمير أموي ، ألعن من سني يوسف . . . تسلط خلالها عليهم من هم أقسى من غلام ثقيف ، فأذاقهم « زقاً » مصبرة ولم يكتف بكأس واحدة ، فتبدد شملهم واندثر ذكرهم .

وكانت صرخته التي راحت شعاراً للثورة والمظلومين: « **أما من مغيث يغيثنا . . . أما من مجير يجيرنا . . . أما من طالب حق ينصرنا . . . أما من خائف من النار فيذب عنا** . ؟ » قد أضحت أمراً لكثيرين كي يهبوا لإغاثة مبادئه . . . فازداد المجيرون . . . وكثر طلاب الحق المناصرين لحقه . . وصار عدد الخائفين من النار أكثر من عدد رمل البحر يذبون عن العقيدة التي تكلم باسمها وعنى بها قوله « **يذب عنا** » ، فانقلبت الموازين ، وغدا شعار إغاثة الحسين وإجارته ونصرته والذب عنه ، ناموساً وشريعة لدى كل المؤمنين ، سواء أكانوا مسلمين أو تحت أيٍّ دين أو عقيدة انضووا . . وفي كل عصر ومِصر ، وغدا الحسين رمزاً وشعاراً واستلهاماً ، وأسلوبا .

ولئن تحدثنا عن نبوءات الحسين التي تحققت بعد ردح من الزمن ، فإننا لن نغفل ما ألهمته هذه النبوءات للعقيلة زينب « ع » ، من استقراء للمستقبل القريب وهي التي كانت قريبة على الدوام من أخيها تسمع كل ما يلفظه فوه من كلام ، وكانت تحفظ في قلبها استلهام أخيها الشهيد ، فيوحي لها هذا الإستلهام بكل ما تلفظت به كاستقراء للمستقبل .

فها هي في واحدة من هذه الاستقراءات ، حينما وقفت أمام يزيد وقالت له :

---

(١) هو المختار بن ابي عبيدة الثقفي .

« اللهم خذ لنا بحقنا ، وانتقم ممن ظلمنا ، وأحلل غضبك بمن سفك دماءنا ، وقتل حماتنا » .

وإذا كان في قولتها هذه دعاء عام لكل من ظلمهم وقتل حماتهم . . فإنها هنا في هذه القولة تحدد أكثر فتقول موجهة كلامها ليزيد :

« فوالله ما فريت إلا جلدك ولا حززت إلا لحمك ، ولتردَنَّ على رسول الله وآله بما تحملت من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته ، حيث يجتمع شملهم ، ويلم شعثهم ، ويأخذ بحقهم » .

وهكذا أيضاً لم تشذ الأمور في ما تلا من أيام عن هذا الإستلهام قيد أنملة ، فكان يزيد ممن حـز لحمه وفري جلده بيده ، ودلت ميتته وما تلاها ، على بعض ما ينتظره في الآخرة عندما يحشر يوم القيامة ويسأل عما تحمله من سفك دماء عترة النبي **« ص »** .

ولعل الإلهام المستقرىء للمستقبل كان في عبارة العقيلة ليزيد ، واضحاً محدد المعالم بشكل غريب إذ قالت له :

« فوالله لا تمحوَ ذكرنا ولا تميتَ وحينا ، ولا يرحضَ عنك عارها ، وهل رأيك إلا فَـنَـد ، وأيامك إلا عدد ، وجمعك إلا بَـدَد ، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين » .

وقالت وهي مسبية : **« المستقبل لذكرنا ، والعظمة لرجالنا ، والحياة لآثارنا ، والعلو لأعتابنا ، والولاء لنا وحدنا »** .

وقالت لابن أخيها السَّجَّاد قبل أن يترك ركب السبي أرض كربلاء : **« فوالله إن هذا لعهد من الله إلى جدك وأبيك ، ان قبر أبيك سيكون علماً لا يُـدرس أثره ، ولا يُـمحى رسمه على كرور الأيام والليالي ، وليجتهد أئمة الكفر وأشياع الضلال في محوه**

وتطميسه ، فلا يزداد أثره إلا علوا [1] » .

وقد برهنت الأيام وتكرار القرون على صدق هذا الإستقراء ، فلم يرحض عار الجريمة عن يزيد حتى فتكت به وراح بجريرتها ، فكانت أيامه عدداً وجمعه بددا .

وكان المستقبل لذكر آل البيت مرهوناً ، والعظمة لرجاله موقوفة ، والحياة لآثارهم ناصعة ، والعلو لأعتابهم يزداد ، والولاء لهم وحدهم يتعمق .

واحتل قبر الحسين الشهيد كعلم لا يُـدرس ، أثره في الضمائر قبل الأرض ، ولم يزده كرور الليالي والأيام إلا رسوخ رسمه ، وما زادته اجتهادات أئمة الكفر وأشياع الضلال إلا بروزاً وتثبيتاً ، فازداد أثره علوا .

ولنجل عيوننا الآن إذا كنا في شك من تمام هذه المعجزات التي اجترحتها شهادة سيد الشهداء . . لنجلها في كل البقاع والأصقاع باحثين عن أي أثر ليزيد أو معاوية أو شمر أو ابن زياد ، فلا يمكن أن نعثر على أي أثر لهؤلاء ، فقد اندرست آثارهم ، وانمحى ذكرهم ، وإذا ذكروا فلأجل لعنهم والدعاء لهم بنار حامية لا تنطفىء .

ولنجل أبصارنا بالمقابل إلى أي مكان فوق هذا الكوكب ، فيطالعنا خلود الحسين ونسمع اللهج بذكراه .

ففوق كل مكان ، الحسين منارة هدي . وفوق كل يمّ ، الحسين طوق نجاة . وفي كل مظلمة ، الحسين قبس من نور وحكمة . وأمام كل طاغية ، الحسين ثورة لا تبقي ولا تذر .

هو «ع» ملء الأبصار والأسماع ، أمل للحائرين والمظلومين ، وبلسم

---

(١) كامل الزيارات ص ٢٦١ .

للمجروحين المحزونين ، وشفاء لكل علة إجتماعية وأخلاقية .

ولنر الآن أين أولئك الظالمون . . وأين قبورهم . . وكيف يذكرون[1] لنقتنع بعظمة أقوال السبط العظيم ، وبخلود مبادئه خلود الإنسان الذي كانت لأجله .

ويكفي يزيد مهانة أن يعلن إبنه « **معاوية الثاني** » أمام حشد كبير . . براءته مما جنت أيدي أبيه وجده ، ورفضه الجلوس على عرش ملوث بدماء الحسين .

ويكفي الحسين خلوداً وتكريماً أن يعلن إبن قاتله عن حمل شعلة ثورته والعمل بوحي من مبادئه .

ولنر الآن كيف يكرم المؤمنون على اختلاف أديانهم الحسين « ع » وكيف يستلهمون ثورته في قيامهم وقعودهم[2] ، في صغائر أمورهم الدنيوية وكبائرها . فلنمجدلله الذي كان رفوقاً بعباده إذ أعد لهم طوق خلاصهم ، ورفع أمام بصائرهم الكليلة منارة الفضيلة والحق ، بشخص الحسين الشهيد .

وإنها لعبرة ودرس علوي لبني البشر ، كي لا يعموا بصائرهم ويصموا آذانهم عن دعوات الحق التي يرسل لها تعالى أربابها لحكمة فوق مستوى ادراكهم .

قالت عزته : « **وكما علت السماوات عن الأرض كذلك طرقي علت على طرقكم ، وافكاري على افكاركم**[3] » .

ونهضة الحسين « ع » هي السفينة التي عناها الرسول الكريم ، فمن يركبها ينجو ،

---

(١) قيل أن يزيد مات أثناء تلهيه بالصيد في « حوَّارين » من بلاد الشام . ولم يعثر من جثته إلا على فخذه ، فنقلت الى دمشق ودفنت قرب الباب الصغير اليوم في غرفة مهجورة ليس لها سقف ، يرميها المارون بالحجارة ويبصقون على العظام التي تضمها ، تبرُّواً من يزيد ومن أفعاله المنكرة .

(٢) ذكرى عاشوراء تجديد لهذا الإستلهام ، واعادة لذكرى الفداء العظيم الذي انقذ دين الإسلام من الفناء .

(٣) أشعيا : ٩/٥٥ – ١٠ .

ومن يتخلف عن ركوبها يغرق .

فما أجدر بالبشرية وهي تجتاز في هذا العصر المظلم أخلاقياً واجتماعياً وسلطوياً ، درب آلامها ، لأن تتوجه نحو منارة الحسين كيلا تضل ، وتتمسك بأطواق مبادئه كيلا تغرق ، وتسترشد بصرخته كي تبعد عنها وحوش الضلالة وثعابين الظلم والإذلال .

وما أحرانا الآن أكثر من أي وقت مضى ، لأن نستدفىء بحرارة قتل الحسين المنبعثة من قلوبنا حارة لا تبرد أبدا .

وهي حارة تستوطن قلوبنا . . ولا داعي للبحث عنها بعيداً عن صدورنا ، فهي جزء من حرارة قلوبنا ، إذا كنا مؤمنين .

ولنا في قولة الرسول الكريم « **إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبدا** » دافعاً لأدراك حقيقة جوهرية لطالما تغافلنا عنها ، وهي أن حرارة قتل الحسين قد احتلت قلوبنا وامتزجت في دمائنا وصارت خلية من خلايانا ، ولو لم تكن حرارته كذلك لما أعطاها الرسول الكريم صفة الحتمية التي لا تتحمل تأويلاً ، فصلوات الله عليه لم يقل : « **ستظل حرارة قتل الحسين حارة** » ، فيعطيها صفة المرحلية . ولم يقل : « **إجعلوها حارة في قلوبكم** » ، فيعطيها صفة البدء ، ويعطينا خاصية الا ختيار والتقرير بين جعلها حارة أو تركها باردة . ولم يقل : « **يجب أن يكون لقتل الحسين حرارة** » فيربطها بإرادة الإنسان ، فتخضع لمبدأ الوجوب أو عدمه . . بل كان في قولته « **ص** » تضمين حتمي بأن لقتل الحسين حرارة لا تبرد أبدا ، وهو تضمين لا يحمل صفة التعمية أو اللبس ، بل هو تأكيد مجزوم بأن قلب المؤمن هو مقر ومستقر حرارة استشهاد الحسين ، لأن سُدى هذا الإستشهاد من لحمة إيمان قلب المؤمن ، فهو إذن لا يحيى إلا بهذه الحرارة ، وهذه الحرارة لا تتأجج حيث لا تبرد

أبداً إلا في هذا القلب[١] .

قولة نبوية فيها من إعجاز الحكمة الشيء الكثير ، لو عملنا بمقتضاها لتبدلت حياتنا ، وما أظن إلا أنّـا عاملون بهذا المقتضى ، ملتفتون إلى ما فيه من جوهر ، فحتمية إندفاعتنا العصرية ، وما يحيق بها من مظالم وقهر، ستؤول بنا في النهاية إلى حظيرة الحسين ، حيث نجد فيها العدل والرحمة والطمأنينة ، وننفض عن ذاتيتنا كل وهن وخوف وشك .

فمن أحق من المؤمن في الاستفادة من نتائج شهادة الحسين . . ومن أحق منه في الدفء المنبعث من هذه الشهادة . . حيث يذوب أمامه صقيع أوهامه . . ؟ .

فهلاّ كنا من المؤمنين الذين كرّمهم تعالى بأن جعل لقتل الحسين في قلوبهم حرارة لا تبرد أبدا . . ؟ وهل نحن أهل لهذه التكرمة . . وجديرون حقاً بهذه الحرارة . . ؟ .

قبل الأجابة لنسأل أولاً :

هل وعينا هذه الحرارة . . وهل تأكدنا من وجودها . . في قلوبنا[٢] . . ؟ .

---

(١) حرارة المشاعر في القلوب ، هي الملهم للفكر ، والمحرك لإرادة الفعل . وفي استيلاء حرارة الحب في القلب المحب دافعاً له لاظهار مودته وعطفه ، نحو محبوبه بقدر كبير من الجزل والحبور . وحرارة قتل الحسين «ع» المستوطنة في قلوبنا تؤجج في افكارنا إلهامات إنسانية خيرة . وفي قلوبنا التماعات قدسية عذبة . فننحو نحوها بجوارحنا لنذوب في نداء مجهولها ، فتخضوضر مناطق اليبوسة في حنايانا . وفي هذا سر الحرارة والتأجج .

(٢) التأكد يكون بعدة مظاهر أولها : القدرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصرة المظلوم .

الأسباب البعيدة للثورة

بواعث الثورة لدى الحسين لم تبدأ في عصره وعصر خصمه يزيد ، بل كان لها جذور تاريخية بدأت منذ عهد قروم عبد مناف ، ثم إلى قريش . فالها شميون والأمويون من أرومة واحدة ، إلا أنهم يختلفون عن بعضهم بالأخلاق والمثل ، إذ كان بنو هاشم أخلاقيين أريحيين ، بينما بنو أمية نفعيون دهاة سيما من كان منهم في أصل عبد شمس من الآباء .

ولعل خير وصف للأسرتين ذلك الذي قاله نفيل بن عدي لما تنافر له عبد المطلب وحرب بن أمية ، فقال لحرب :

أبوك معاهر وأبوه عف
وذاد الفيل عن بلد حرام

وكان نفيل يشير إلى فيل أبرهة الذي أغار به على مكة ، ويعني عن أمية بـ « معاهر » لما عرف عنه من تعرضه للنساء ، وما أشيع من أنه ضُرب مرة بالسيف لتعرضه لإمرأة من بني زهرة .

ولعل اختلاف الأمزجة والأخلاق هو الذي حدد مسار أجيال أبناء هاشم وأبناء عبد شمس ، فقد عُـرف عن بني هاشم تعلقهم وعملهم في القيادة الدينية ، وعرف عن عبد شمس عملهم في التجارة والسياسة .

وإذا اختلفت الأمزجة والطبائع بين البشر ، فلا بد من اختلاف النظرة إلى الأمور ، وإلى كيفية أخذها تبعاً لذلك ، لذا كان من المحتم أن تقوم المواجهة السافرة حيناً ، والمبطنة حيناً آخر بين فروع العائلتين المنحدرتين من عبد مناف .

وطبيعي إذا ما تفجرت مثل هذه المواجهة ، وتفاقم بين الأسرتين الخلاف ، أن يعرف المطّلع وقد خبر فارق الطبائع والأمزجة . . من سيكون المعتدي ، ومن سيكون المعتدى عليه . . ومن يأخذ جانب الباطل ، ومن يأخذ جانب الحق .

ولو عرضنا هذا الأمر على مطلق إنسان ، لأجاب : بأن النفعي هو ممثل الباطل ، والأريحي هو ممثل الحق . وعلى نفس المقياس يجيب أيضاً : بأن التاجر والسياسي هو مشعل فتيل الخلاف ، على القائد الديني وداعية الأخلاق .

وإذا كان من غير المناسب أن نخوض في الأسباب التاريخية لخلاف بني هاشم وبني أمية ، في متن كتابنا التحليلي هذا ، تاركين هذه المهمة لكتب التاريخ الصرفة ، التي تهتم بسرد الحوادث دونما تحليلها وإبداء الرأي حولها . . فإن ذلك لن يمنعنا من تقديم نبذة بسيطة عن هذا الخلاف مذ تفجر حتى وصلت نتائجه إلى عهد الحسين ويزيد ، وما كان من الحوادث التي تلت .

وما دمنا لا نبغي التركيز على تلك الفترات التاريخية إلا فيما ينفعنا لمادة هذا الكتاب الذي نتوجه به للفكر المسيحي العربي والغربي أولاً ، وللفكر الإسلامي ثانياً . . فإن في تعريجنا السريع على تلك الفترة من شأنه إكمال الصورة المجزأة لملحمة كربلاء ، وما سبقها من أسباب وبواعث وأحداث ، ما دمنا قد أكملنا الأجزاء التي تلتها ، فصار

لزاماً علينا وضع الأجزاء التي سبقتها لإكمال صورتها النهائية .

صراع موروث

جذور الخلاف الأولى تمتد إلى صراع موروث وتخاصم حاد منذ عهد الجاهلية الأولى ، بشرارة بدأت بين هاشم وأمية ، وامتدت بين محمد « ص » وأبي سفيان ، واستمرت إلى عهد علي ومعاوية ، وانتهت بعهد الحسين ويزيد .

وقد جاءت وفاة النبي « ص » لتكشف عن استمرارية تمكن روح القبلية بين المسلمين ، إذ لم تمض ساعات على وفاة الرسول الأعظم ، حتى بدأت المداولات هنا وهناك بمعزل عن جموع أمة الإسلام العريضة ، وكلها تبحث في مسألة الخلافة بعد النبي « ص » .

فرأى الأنصار بأن الخلافة من حقهم ، ونازعهم فريق قريشي هذا المنطق . وكان عامل الذهول الذى أصاب المسلمين بوفاة النبي « ص » ، قد جعلهم يتناسون عهد النبي إلى علي بن أبي طالب « ع » .

وكانت هذه الروح القبلية التي تأججت يوم السقيفة ، هي البذرة الأولى للفتنة التي نشبت بين المسلمين .

وحينما تولى عمر الخلافة ، فرض العطاء على مبدأ التفضيل ، ففضل السابقين على غيرهم ، وفضل المهاجرين على الأنصار ، والعرب على العجم ، والصريح على المولى ، ومُـضر على ربيعة ، والأوس على الخزرج[1] .

---

(١) ابن أبي حديد : شرح نهج البلاغة ١١١/٨ وتاريخ اليعقوبي : ١٠٦/٢ وفتوح البلدان : ٤٣٧ .

ولكن عمر ما كاد يدرك أخطار مبدئه هذا ، السياسية منها ، والإجتماعية ، والدينية ، ويرغب في تغييره ، حتى اغتيل [1] ، وخلفه عثمان وسار على نفس نهجه السابق .

وما عتمت الأحداث أن تطورت ، وانقسمت الأمة الإسلامية إلى صفين . فكانت قريش –عدا بني هاشم– مع عثمان ، والأنصار مع علي .

ولعل أصدق موقفين يصوران حالة الجدل التي تفشت وقتذاك هذان الموقفان :

فقد قال عبدالله بن سعد بن ابي سرح الأموي : «**أيها الملأ إذا أردتم ألا تختلف قريش فيما بينها فبايعوا عثمان** [2] ».

وقال عمار بن ياسر : «**إن أردتم ألا يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا عليا** [3] » ولما كان علي «ع» مرشح الأكثرية المسلمة ، وعثمان مرشح الأرستقراطية القرشية ، فقد فاز عثمان بالبيعة دون علي .

ومنذ ذلك اليوم دخل الأمويون في الحكم ، وكان من نتيجة فوز عثمان أن صار أي مرشح يرجو الخلافة لنفسه بعد أن رشحه لها عمر . وقد وصف هذه النتيجة علي «ع» بقوله :

«**لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة** [4] ».

وقد تفاعلت هذه الأحداث مع سياسة عثمان الفاسدة في المال والإدارة والحكم

---

(١) في تاريخ اليعقوبي ، شرح نهج البلاغة قال عمر : « إن عشت هذه السنة ساويت بين الناس فلم أفضل أحمر على أسود ولا عربياً على عجمي ، وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر

(٢) و(٣) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ٩/ ٥٩ والطبري ٤/ ٢٣٢ – ٢٣٣

(٤) نهج البلاغة ١/ ١٥١ .

فبدأ الإنحراف الصريح في العقيدة ومبادىء الإسلام من يومها .

وقد ازداد الفساد في عهده فضرب كل الولايات الإسلامية ، مما ألّب جموع المسلمين عليه فتنادوا إلى الثورة ضده بعد أن ضيق عليهم بأعمالهم ، وبعثهم إلى أرض العدو كجنود - وجمَّرهم - أي جمّدهم هناك ، وحرم أعطياتهم ليطيعوه ، ولكن هذه الأحداث إنتهت بمقتل عثمان[1] .

ولاية علي « ع »

بعد مقتل عثمان جاءت الجموع تطالب علياً بتولي الحكم ، لكنه أبى عليهم ذلك . لأن للحكم تبعات سيئة بعد ولاية عثمان . لذا قال لهم :

« دعوني والتمسوا غيري ، فأنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت ، واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب ، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميرا[2] » .

ولكن المسلمين أبوا عليه هذا الرفض ، فاستجاب لهم وبويع بالحكم ، وقد بدأ « ع » بإصلاح الإدارة التي أفسدها عثمان ، ونجح في ذلك . وقد قال بهذا الصدد :

---

(١) المسعودي : مروج الذهب .

(٢) نهج البلاغة ١/ ٢١٧

« ولكني آسى أن يلي هذه الأمة سفهاؤها وفجّارها فيتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً والصالحين حرباً والفاسقين حزبا . . . » .

وقضى الإمام على الفروق الجاهلية وكان مبدؤه بهذا الصدد :

« الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له ، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه [1] » .

ولم يمض بعض الوقت حتى وضع الإمام علي الأمور بنصابها وأحقَّ الحق وقضى على التفاوت الطبقي ، مما أثار حفيظة قريش فأرسلوا له الوليد ابن عقبة بن أبي معيط يفاوضه كي يضع عنهم ما أصابوه من مال أيام عثمان على أن يبايعوه ، ولكن الإمام رفض ، فبدأت الدسائس والمؤامرات ، وكان أولها حركة تمرد في البصرة تحت شعار « **الثأر لعثمان** » ، فقمعها الإمام ، وفرَّ من بقي من أنصارها إلى الشام ، حيث قامت حكومة برئاسة معاوية بن أبي سفيان ، إنضوى تحت لوائها كل الموتورين الذين ساءهم إصلاح حال الأمة الإسلامية على يد علي .

ولم تدم الأيام طويلاً فولّدت حركة تمرد أخرى تحت شعار الثأر لعثمان ، وكانت بزعامة معاوية ، فكانت معركة صفّين ، وكانت خدعة التحكيم ، ثم النهروان ، ثم مقتل علي « ع » ، ومبايعة إبنه الحسن ، واضطراره للتخلي عن الحكم تحت ضغط الأحداث وتوالي المؤامرات والدسائس .

انتقام معاوية من شيعة علي

وصارت الأمور إلى معاوية ، وسيطر على الأمة الإسلامية كلها ، يسوسها

---

(١) نهج البلاغة ٢١٨/١

بالإرهاب والتجويع ، والتخدير بإسم الدين ، والتدجين بإسم القبلية والإمامة .
وكان من دهائه وخبثه أن استدعى بسر بن أرطأة وقال له :

لاتنزل على بلد أهله على طاعة علي إلا بسطت عليهم لسانك حتى يروا أنهم لا نجاء لهم ، وأنك محيط بهم ، ثم اكفف عنهم وادعهم إلى البيعة لي ، فمن أبى فاقتله ، واقتل شيعة علي حيث كانوا (١)

وقد كتب نسخة إلى عماله بعد ماسمَّاه بعام الجماعة يقول فيها : « **إن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته** » فقامت الخطباء فوق كل منبر يلعنون علياً ويبرأون منه ، ويقعون فيه وفي أهل بيته .

وقد عالن الناس بطبيعة حكمه بكلمته الشهيرة : « **يأهل الكوفة أترونني قاتلكم على الصلاة والزكاة والحج . . . ؟ وقد علمت أنكم تُصلُّون وتُزكُّون وتحجُّون ، ولكني قاتلتكم لأتأمَّر عليكم ، وألِيَ رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون** » .

وقد سجَّل له التاريخ بأنه نكَّل بشيعة علي بعد موت إبنه الحسن أيما نِكال ، واستباح دماً كثيراً ، فكانت الأعداد في خانة الألوف ، وكانت وسائله في ذلك زمرة من السفاحين ، مثل زياد سمرة بن جندب الذي قتل كل من اتهم بدم عثمان ، وسبى نساء همدان وباعهن في الأسواق مسجِّلاً بذلك سابقة خطيرة في بيع نساء المسلمين (٢) .

وبلغ من شدة دهاء معاوية أن جعل الكثيرين يعتقدون بسعة حلمه وكرمه وصبره ، وكان ذلك بفعل نشاط « **القصاصين** » الذين كانوا يتولون إذاعة كل مليح

---

(١) نهج البلاغة ٢/٦ – ٧

(٢) ذكرت بعض المراجع ان ارهاب معاوية دفع بالناس لاعلان زندقتهم وكفرهم على أن لا يقال عنهم أنهم من شيعة علي .

وحسن عنه مستشهدين بفلان وفلان . .

وقد نجح في سياسته بتأليب القبائل على بعضها في الشام والعراق واليمن ، وإثارة العصبيات بينها لتشغل ببعضها عنه ، وقد وصف « ولهاوزن » هذه السياسة بقوله :

« **وأجج الولاة نار هذه الخصومة ، ولم يكن تحت تصرف الولاة إلا شرطة قليلة ، وفيما سوى ذلك كانت فرقهم من مقاتلة المصر ، حتى إذا أحسنوا التصرف تهيأ لهم أن يضربوا القبائل بعضها ببعض ، وأن يثبتوا مركزهم بينهم** [١] » .

وكان من نتيجة هذه السياسة أن ظهر الشعر السياسي والحزبي والقبلي ، واشتعلت حرب الهجاء والمفاخرات القبلية الجوفاء ، فانضم الأخطل إلى الأمويين ، ضد قيس عيلان شاعر التغلبيين ، ثم انضم إلى الفرزدق على جرير لسان القيسية على تغلب .

استفحال خطر التحريف

وتطورت هذه الروح القبلية وصارت خطراً اتخذ شكل تأليف الأحاديث ونسبها إلى النبي « ص » .

واستفحلت حال المسلمين وبدا أن الأمة في طريقها إلى الانهيار الكامل ، فقد بدأت الوان جديدة من التحريف في أحاديث منسوبة الى الرسول « ص » [٢] مثل : « **إن الله إئتمن على وحيه ثلاثاً : أنا ، وجبريل ،**

---

(١) الدولة العربية « ولهاوزن »

(٢) في سلسلة دروس فقهية ألقاها المرجع الديني الأعلى الامام المجاهد السيد آية الله روح الله الخميني على طلاب علوم الدين في النجف الأشرف ، جاء فيها : إن هؤلاء ليسوا بفقهاء ، وقسم منهم ألبستهم دوائر الأمن والاستخبارات ، العمائم لكي يدعوا الله للسلطان ، وقد ورد في الحديث في شأن هؤلاء : « فاخشوهم على دينكم » .

ومعاوية » ، وإن الرسول « ص » ناول معاوية سهماً وقال له : « **خذ هذا حتى تلقاني في الجنة** » ، و : « **وأنا مدينة العلم ، وعليٌّ بابها ، ومعاوية حلقتها** » ، و : « **تلقون من بعدي اختلافاً وفتنة ، فقال له قائل من الناس : فمن لنا يارسول الله ؟ قال : عليكم بالأمين وأصحابه** » – والأمين هنا عثمان – .

ولتكون سياسة التدجين والإسكات تامة، فان حديثاً أظهره أحدهم يقول : « **قال رسول الله « ص » إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها** » ، قالوا : فماذا تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « **أدوا إليهم حقَّهم ، وسلوا الله حقَّهم** » و : « **من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه** [1] » .

ولكن الأمة التي اضطُهدت وجُوِّعت ، لم تعد تستطيع الحراك ، وصارت في حالة مابين وبين . تخاف الجهر بما تعتقده ، وتخاف التحرك بوحي من هذا الاعتقاد . ولم يبق لها إلا السكوت على هذا الضيم ، لأن الكلام معناه القتل والتجويع والتشريد .

ولعل خير من صور هذا الموقف المتذبذب الخائف للحسين ، كان الفرزدق حين سأله « ع » عن أهل الكوفة . . حيث أجابه : « **قلوبهم معك وسيوفهم عليك** » .

ولم يتأتَّ لهذه الأمة ولو معشار ما تأتَّى للجيل الذي سبقها أيام عثمان ، فقد كانت ردات فعل الأمة آنذاك قوية استطاعت أن توقف عثمان عند حده ، ولكن على عهد معاوية أُسقط في يد أمة الإسلام ، فمعاوية كان من الدهاء والغدر والثعلبية ما لم يكن لعثمان ، وقد نجح في سياسة البطش والإرهاب نجاحاً لم يبلغه سابق ولا لاحق له .

---

(١) ذكر البخاري كثيراً من هذه الأحاديث المنسوبة . كما جاء ذكرها في كثير من كتب الحديث .

وكان معاوية في بطشة يهدف إلى جعل الحكم خلافة ملك كسروي بعد أن نجحت الأرستقراطية الوثنية بإقامة دولة كبرى . وهذا ما تفسره عبارته المشهورة « **أنا أول الملوك** [1] » .

وهذا معناه أن معاوية كان يقصد أنه أول الملوك في الإسلام الوليد الذي لم يعرف الملكية بهذا الشكل الرهيب الذي وضع أسسه كما يحلو له ، وكما يرغب في توريثه لمن بعده .

كل ذلك من ألوان الانتهاكات ، وتحريف روح الإسلام ومبادىء العقيدة ، والعودة إلى النزاعات الجاهلية التي قام الإسلام ليحاربها . . . كل ذلك كان يتم ومعاوية سادرٌ في غيِّه يزداد بغياً على بغي ، والأمة الإسلامية سادرة في خنوعها وذلِّها ، تزداد استسلاماً على استسلام ، والحسين « ع » يرقب ذلك كله وتهاويل ثورية تعتمل في صدره ، صابراً على ما آلت اليه أمة الإسلام ، وكأنه « ع » ينتظر إتيان ساعة الخلاص ، ليُعطىَ الإشارة من لدُن العناية الإلهية ، للقيام بانتفاضته التي ستعيد عقيدة جده إلى صراطها المستقيم الذي أُنزلت فوقه ، وتعيد إزكاء شعلتها التي خبت في الصدور بفعل التدجين المنظم بإسم الدين والإرهاب ، وليفتدي بمقتله إحياءها من جديد ، وليكمل الشهادات العظيمة التي كتبها الله تعالى على الأنبياء والوصيين والشهداء الأخيار ، فيستمر الإسلام ويبقى بشهادته ، كما بدأ حين أُنزل على جده الرسول الأعظم ، ونُشر بتضحياته الكبيرة .

---

(١) لقد أبطل الاسلام الملكية وولاية العهد ، واعتبر في أوائل ظهوره جميع أنظمة السلاطين في إيران ومصر واليمنِ والروم ، غير شرعية وكان رسول الله « ص » قد كتب إلى « هرقل » ملك الروم وإلى ملك فارس ، يدعوهما إلى الكف عن استعباد الناس ، ويدعوهما فيها إلى ارسال الناس على سجاياهم ليعبدوا الله وحده . لان له السلطان وحده . والحسين قام بثورته التاريخية للقضاء على اسلوب هذه السلطنات المشؤوم – راجع مقدمة خطب الامام آية الله الخميني .

الأسباب القريبة للثورة

في عهـد معاويـة

لطالما تساءل الكثيرون عن السبب الذي حدا بالحسين « ع » لتأجيل انتفاضته إلى عهد يزيد . . . ولمَ لم يفجرها في عهد معاوية ما دامت مفاسده ظاهرة للعيان . . . وما دامت الأمة الإسلامية قد وصلت إلى درجة التراقي ووصل بها سيل الإضطهاد الزبى . . . ؟

ولكثرة ما طُرح هذا التساؤل ، ولكثرة الإجابات المتشابهة في كثير من الأحيان ، والتي تبعد غالباً عن حقيقة هذا التأجيل ، وعن جوهر الهدف منه . . فإن تبصُّراً متأنياً واعياً في دوافع هذا التأجيل التي لا تتبدّى إلا بربطها فيما سبقها وتلاها من نتائج ، لكفيل بجلاء أجوبة شافية على التساؤلات التي تُثار في كل مرة يتطرق خلالها البحث عن أسباب عدم قيام الحسين بثورته في عهد معاوية .

ولا شك في أن التساؤل الملِح ،والأجوبة المبتورة ناقصة النضج من شأنها أن تزيد

في تفسير الأمر على نحو بعيد عن الحقيقة الجوهرية له .

وبرأيي أن كل من ساهم في وضع جواب على تساؤل بهذا الصدد ، كان يغفل إلى حد بعيد دور « **العناية الإلهية** » في تسيير خطى الحسين في طريقها الصحيح وفي الوقت المناسب .

لأننا لو نظرنا إلى حركة الحسين بأنها أمر من الله سبحانه وتعالى ، سبق وأن تنبأ بها الأنبياء والوصيون ، فأننا لا نعدو الحقيقة لو سلمنا جدلاً بأن موضوع التأجيل كان لحكمة عُلوية أوحت للحسين بكيفيتها وتوقيتها حتى تُؤتيَ ثمارها ، وتبلوَ مضاءها ، ولا يكون لها من الثورات التقليدية إلا إسمها فحسب ، بينما يختلف مضمونها وجوهرها اختلافاً كليا .

لم يكن الشهيد إذاً يفكر من عنديَّاته حينما جاءته كتب أهل العراق تسأله الثورة على معاوية ، فأجابهم : « **فليس رأيي اليوم ذلك ، فالصقوا رحمكم الله بالأرض ، واكمنوا في البيوت ، واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حيا** [1] » .

ومثل هذا القول أجاب به عيسى « ع » على أمه حينما دعته لاجتراح أعجوبة ، إذ أجابها : « **يا أماه لم تأتِ ساعتي بعد** [2] » .

فلمَ يقول الحسين هذا القول ما دامت القتلة هي القتلة سواء أكانت على يد معاوية ، أم على يد يزيد . . . وما دام غير قادر على هزيمة أي منهما بقوة عسكرية . . . ؟.

هنا تتجلى الحكمة العُلوية . ومن هذه النقطة بالذات علينا أن نفهم سر عدم قيام

---

(١) الأخبار الطوال

(٢) يوحنا : ٤١ ، ٥

الحسين في عهد معاوية . والسر في قيامه بها على هذا الشكل الضعيف عسكرياً في عهد يزيد .

السر في عدم قيام الحسين في عهد معاوية يكمن في كلمة « **البيعة** » التي وصفها « ع » بأنه كان لها كارهاً ، وكان من نبل أخلاقه أن رضخ لتصرف أخيه الحسن الذي قطع العهد مع معاوية ، ولم يشأ أن يعطِّل رأيه واجتهاداته في هذا الصدد ، وكان يجيب من يسأله رأيه في عهد أخيه الحسن لمعاوية : « **بأن لأخيه رأياً في الموادعة ، وله هو رأي في جهاد الظَلَمة ، والرأيان رشد وسداد ، وأمر لكليهما من الله تعالى ورسوله** » .

ثم يطلب من شيعته بأن يكون كل امرىء منهم حلساً[1] من أحلاس بيته ما دام ابن هند حيا ، فإن يهلك وهم أحياء يرجو أن يخيِّر الله لهم ويأتِهم رشدهم ، ولا يكِلَهم إلى أنفسهم .

وفي عبارة « **فإن يهلك وأنتم أحياء رَجوْنا أن يخيرِّ الله لنا** » معنىً مفسراً لرأيه عدم الخروج في عهد معاوية ، يتجلى تفسيره أكثر بربطه في الجملة التي تليه : « **ويأتِنا رشدنا** » ، مما يُستدل معها على أن الله تعالى هو الذي سيمده بالأمر ، ويؤتيه رشده كي يصبح قادراً على الحركة والقيادة .

ويعطي هذا التفسير — انتظار موت معاوية — تفسيراً آخر بقول الحسين « ع » : « **والصقوا في الأرض واخفوا الشخص والتمسوا الهدى** » على أن فترة الكمون هذه ما هي إلا فترة تبصُّر بالوحي الإلَهي الذي كان الشهيد يأتمر بإمرته ، والذي كان يصوِّر له وحده هذا الأسلوب غير المألوف في الثورات ، ويمده

---

(١) حلس بالمكان حَلْساً : لزمه ولم يغادره .

بالصبر إلى حين تدق ساعته ، ونفس هذا الوحي الإلهي كان يحجب عن بصائر صحبه الكيفية والأسلوب اللذين سيسبغهما على ثورة الحسين ، وهذا ما يفسره إلحاحهم على الحسين للسير على خطى أخيه الحسن وأبيه في الكفاح المسلح .

ولكن الحسين كان فكره في واد ، وفكر صحبه في واد آخر . فهو لو قام بحركته في عهد معاوية بتكتيك عسكري سبق وأن قام به أبوه وأخوه وآخرون . . . فإنه قد ينتصر على معاوية ، فيعتبره الناس بمقياس تفكيرهم في ذلك الزمن ، أنه قائد عسكري نجح في صراع القوة بما له من عدد وعدة . ولو هُزم ، لكان اعتُبر أحد الذين نكَّل بهم معاوية وألحقهم بحتوف من سبقهم ، يثير موته الحزن في أسرته ، ثم يطويه النسيان كما يطوي أيَّ ثائر تقليدي .

ثم أن الحكمة العلوية تلعب دورها الاكيد في عدم مناجزة الحسين لمعاوية ، إذ كان معاوية من صنف أولئك الحكام الذين كان الشعب ينظر إليهم نظرة احترام خاصة ممزوجة بالحقد المقيت عليهم ، وماكان مُستبعداً وقد عرفنا ما عليه جُبل معاوية من دهاء وثعلبية ، أن يُلصق بالحسين تُهماً باطلة بواسطة « المرجئة » وقصّاصيه النشطين ، فتؤدي حركته إلى نتيجة عكسية من حيث كانت تقصد العكس .

وقد أوصى الحسين صحبه باللصوق بالأرض وإخفاء شخوصهم ، وهذا التكتم وهذه التقية كانت لسر آخر ، فالحسين كان قد عاصر حروب الجمل وصفين والنهروان ، وخبر دسائس معاوية وقدرته على اختراق ستار الكتمان ليصل إلى خصومه بكل الطرق ، وأشهرها السم الذي قتل به أخاه الحسن [1] ، والذي كان فريداً لوحده بأساليب استخدامه ، وبإطلاقه تلك التسمية العجيبة عليه

---

(١) ذكر أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين : « لما أراد معاوية البيعة لابنه يزيد ، لم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن وسعد بن أبي وقاص . فدسَّ إليهما سمّاً ، فماتا منه » .

بقوله : « **إن لله جنوداً منها العسل** . . [1] » .

لذا جاءت تقيَّته لتؤدِّي غرضاً آخر من أغراض صبره ، ولم تكُ هذه التقيَّة نتيجة لخوف من معاوية أو أساليبه ـ وهذا ما برهن عنه الحسين خلال مواقفه ــ بل كان نتيجة خوف الشهيد من أن يقضي عليه معاوية قبل أن يحين أجل قيامه بثورته ، التي ستختلف كلية عما سبقها من ثورات وحروب ، والتي ستنحو منحىً جديداً أمضى بكثير من المنحى العسكري ، والتي بها سيتحقق الوعد الإلَهي بإعادة الدين الإسلامي إلى أشكال بدايته السليمة .

وللذين لا يقيمون أدنى دور لهذا الوعد ، من الأجدر لهم ان يعيدوا قراءة وتمعن كل الأحداث التي مر بها الإسلام الوليد منذ أن أنزل على خاتم الرسل والأنبياء محمد « ص » ، وكيف هدى هذا الوعد الرسول الكريم لتوقيع صلح الحديبية مع مشركي مكة ، ومحوه من العقد كلمة بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله ، وكيف رضي علي « ع » بالتحكيم بعد خدعة المصاحف في صفِّين ، وكيف صالح أخوه الحسن،معاوية الذي اغتصب الخلافة وحرَّف الدين .

وهذا السر الإلهي الذي لا يستطيع تفسير كوامنه إلا المبصرون ، لا يهتم كثيراً للظروف الوقتية أو الطارئة إذا كان فيها منجى للعقيدة مؤقتاً ، أو فيها استعداد لقفزة ثانية لهذه العقيدة . ولذا فان اللُّبس يخيِّم على عقول كثيرة ، وتكون الدهشة والاستنكار هما الثمن لعدم فهم هذه العقول لحكمة السر الإلهي ، في إظهار بعض أمور بمظهر عكسي .

وثمة عامل آخر وإن كان أقل أهمية من العامل الذي سبقه ، وهو أن مجتمع العراق الذي أنهكته الحروب وفتّت في عضده الخسائر والهزائم . . . لم يكن مستعداً

---

(١) عيون الأخبار ٢٠١/١

لأدنى مناجزة يُشهرها في وجه معاوية بالذات .

وعامل آخر يضاف إلى جملة العوامل الثانوية ، وهو أن قيام الحسين في عهد معاوية قد يكون مبرِّراً لمعاوية كي يصوِّره بصورة المستغِل ، الناقص لعهده وميثاقه ، والحسين لا يسعى إلى هذه الصورة وإن كانت من باب التجني الواضح عليه ، وهو ما كان يربأ أن يُعرف به ، لأنه في جوهره بعيد عن الإستغلال ونقض العهود .

كان « ع » يحسب لكل أمر حسابه في ميزان النتيجة ، أما الهدف الذي كان يرنو إليه في سكوته على زمن معاوية ، فهو في تعبئة نفوس أهل العراق خاصة ، والمسلمين عامة على مخازي أمية ، وبذلك يكسب مزيداً من الوقت لنجاح هذه التعبئة النفسية ، حتى إذا ما قام بحركته التي هي في جوهرها — حرب نفسية وروحية — أكثر منها حرباً عسكرية ، يكون قد وجد أرضاً ممهَّدة لها ، وضَمِنَ نتائج إيجابية لأهدافها (١) .

ثم وهو الذي خَبَرَ معاوية ، كان ينتظر موته كي يتولّى يزيد الخلافة ، فيفضح بتهوره وعدم حرصه كل المخازي التي ارتكبها ويرتكبها الأمويون بإسم الخلافة . إذ كان معاوية أستاذاً لا يُبارى في إخفاء حقيقته ، وكان كتوماً حريصاً على الظهور بعكس خبيئته ، حتى أنه أفلح في خداع أكثر الناس تبصُّرا وملاحظة (٢) .

ورجل هذا شأنه ، سيعرف الحسين بأنه من قبيل المغامرة القيام على عهده ، فهو لن يفلح معه عسكرياً وليست له أساليبه في الخداع

---

(١) يقول « ماربين » الألماني : إن الحسين كان يبث روح الثورة في المراكز الإسلامية المهمة كمكة والعراق وأينما حلّ . فازدادت نفرة قلوب المسلمين التي هي مقدمة الثورة على بني أمية .

(٢) نفسه : الحسين بمبلغ علمه وحسن سياسته بذل كمال جهده في افشاء ظلم بني أمية وإظهار عداوتهم لبني هاشم .

والتحايل . ففضل « ع » الإنتظار والصبر على مكارهه ، على أن يقدم على خطوة ليس لها نتائج ، أو قد تؤدي إلى نتائج عكسية حيث كان يرغب العكس .

وإذا كان الحسين قد فضل التريُّث والانتظار حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا . . . فإن التزامه بالعهد الذي قطعه أخوه الحسن ، كان التزاماً صحيحاً لا مفتعلاً في ظاهره ، إذ لو كان راغباً في التنصل من هذا الإلتزام .فما كان أسهله عليه ، لو تحجَّج بأنه لم يساهم به ولم يكن راضياً عنه ، فيتجنَّب الملامة .

ويدعم رأينا هذا بأن الحسين « ع » كان ملتزماً فعلاً لا قولاً بموقفه من البيعة بعد موت أخيه ، وذكره للذين كتبوا له من شيعته بالعراق ، بأنه ملتزم بالعقد مع معاوية ، ولا يجوز له نقضه حتى تمضي المدة ويموت معاوية ، وكأنه يقول لهم : وبعد ذلك لكل حادث حديث .

وصح حدس الحسين « ع » ، فها هو معاوية يلجأ أكثر من مرة لاستباق الزمن ، واستغلال حُرمة العهد في نفوس المسلمين ونفسه بالذات ، فيلوِّح بها في أحد كتبه له ، مشيراً إلى نشاطه في تعبئة المجتمع الإسلامي على الحكم الأموي ، وكأنه يخشى من قيامه بنقض هذا العهد وفضحه . وقد كتب إليه قائلا :

« أما بعد فقد انتهت إليَّ أمور عنك ، إن كانت حقاً فإني أرغب بك عنها ، ولعمر الله إن من أعطى عهد الله وميثاقه لجدير بالوفاء ، وإن أحق الناس بالوفاء من كان مثلك في خطرك ، وشرفك ، ومنزلتك التي أنزلك الله بها ، ونفسك فاذكر ، وبعهد الله أوف ، فأنك متى تنكرني أنكرك ، ومتى تكدني أكدك ، فاتق شق عصا هذه الأمة [1] » .

---

(١) الشيخ المفيد : الإرشاد ٢٠٦ وأعلام الورى ٢٢٠ والسيوطي : تاريخ الخلفاء ٢٠٦

ولنلاحظ في كتاب معاوية ، الرغبة في استباق الزمن ، والاحتراس مسبقاً من نقض العُهدة من قبل الحسين . لذا فقد أسرع بالكتابة إليه ، حتى إذا ما نقض العهد ، كان كتابه وثيقة تبرر بطشه به أمام المسلمين الذين تثيرهم قضية العهد والثبات على الميثاق ، فيكون بذلك قد أسقط في يده سلفاً ، وأسقط الكرة في مرماه .

وفي كتاب آخر أرسله إليه يقول بلهجة مهددة :

« وقد أُنبئْتُ أن قوماً من أهل الكوفة قد دعَوْك إلى الشقاق ، وأهل العراق ممن قد جرَّبتَ ، قد أفسدوا على أبيك وأخيك. فاتق الله ، واذكر الميثاق [1] » .

في هذين الكتابين نلمح نقراً مكثّفاً على وتر الميثاق: **« إن من أعطى عهد الله وميثاقه لجدير بالوفاء »** و **« أتق الله واذكر الميثاق »** و **« ونفسك فاذكر وبعهد الله أوف »** .

وعلى الرغم من هذا التكتيك المقصود به تسجيل سابقة على الحسين،فيما لو فكر بنقض العهد ، فإن الحسين كان قد بدأ برد هذه الحرب النفسية في سلسلة كتب لمعاوية ضمَّنها كل الشكوك والريبة التي كانت تعتمل في نفوس المسلمين وضمائرهم حيال ممارساته للسلطة ، وكانت هذه الكتب « **الردود** » إيذاناً ببدء التمهيد للثورة بأسلوب نفساني ، كان يقصد منها الحسين تعبئة النفوس بشكل نهائي ، وتفجير الخلاف بينه وبين معاوية ، كي لا يُلام على أمرين . . **أولاهما** : على نقضه للميثاق ، **وثانيهما** : على السكوت أمام المباذل والانتهاكات التي كان يأتيها الخليفة المزعوم دون أن يُرفع إصبع أمامه بالنقد .

بدأ الحسين بهذه الحرب بعد أن نُمي إليه عزم معاوية على التمهيد للبيعة ليزيد ،

---

(١) ذكر فيليب حتي في « تاريخ العرب » ٢/ ٢٥٢ أن أهل الكوفة كانوا قد بايعوا الحسين بعد موت أخيه ، بينما الواقعة الصحيحة تشير إلى عدم استجابة الحسين لهذه المبايعة .

وبعد أن ورده كتابه بشأن الميثاق وذكره لما نُمي إليه في الشام بشأن قوم الكوفة الذين أنبأوه بتحرك شيعته في العراق ، وما كان من أمره معهم حينما دعاهم للتريث والالتصاق بالأرض .

ولعل كتاب – الرد – الذي بعث به الحسين لمعاوية ، يُعتبر وثيقة تاريخية دامغة على عهد معاوية ، ومن الإغماط لها أن نختصرها أو نتحدث عنها بصيغة الغائب في كتابنا هذا . . إذ أنها صورة وافية موضِحة لشخصية معاوية وحكمه كما رآهما وعاصرهما الحسين « ع » ، ومن المناسب تثبيتها في هذا المتن ليطلع عليها كل من يتوفر على قراءة هذا الكتاب ، فمهما جهد المحللون والمؤرخون في البحث عن مثالب معاوية ، فإنهم لن يجمعوا معشار ما ثبَّته الحسين في كتابه هذا . ومن جهة أخرى فإن الكتاب يوضح تماماً موقف مرسِلِهِ من قضايا الحكم والانتهاكات التي يمارسها معاوية ، ويكشف في الوقت ذاته عن مدى نسبة تعاظم الخلاف بينهما في أخريات أيام معاوية ، قبل البيعة ليزيد بقليل ، وكيف كان موقف الحسين من هذه المسألة .

وفي الكتاب تفسير بيِّنٌ لسياسة التكتُّم والصبر والانتظار التي كان يمارسها الحسين غير هيَّاب ولا وَجِلٍ ، والتي كان على استعداد لتحويلها في أية لحظة إلى نقيضتها في الجهر والإقدام على النقد ، والإشارة بالاتهام المباشر ، البعيد عن التَقيَّة التي دعا إليها . وفي هذا مثل واضح على أصالة موقف الحسين ، وعلى عمق مبادئه القادرة على احتواء كافة الأبعاد ، وهضم كافة المتناقضات ، لتبدو أخيراً بالشكل الذي يبتغيه لها صاحبها .

كتب الحسين « ع » لمعاوية يقول له في جرأة نادرة[1] :

« أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنه انتهت عني أمور أنت لي عنها راغب ،

---

(١) راجع الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٢٨٤ وأخبار الرجال لأبي عمر الكشي . واختيار الرجال لأبي جعفر الطوسي ج٣٢

وأنا بغيرها عندك جدير ، وأن الحسنات لا يهدي لها ولا يسدِّد إليها إلا الله تعالى .

أما ما ذكرت أنه رُقي إليك عني ، فإنه إنما رقاه إليك الملاّقون ، المشّاؤون بالنميمة ، المفرِّقون بين الجمع ، وكذب الغاوون ، ما أردت لك حرباً ولا عليك خلافا ، وإني لأخشى الله في تركِ ذلك منك ، ومن الأعذار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين . . حزب الظَّلمة .

ألست القاتل حجر بن عدي أخا كندة وأصحابه المصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم ويستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يخافون في الله لومة لائم . . ثم قتلتهم ظلماً وعدوانا ، من بعد ما أعطيتهم الإيمان المغلظة ، والمواثيق المؤكدة ، جراءة على الله واستخفافاً بعهده . . ؟.

أولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله « ص » ، العبد الصالح الذي أبلته العبادة فنحُل جسمه واصفرّ لونه ، فقتلته بعدما أمنته وأعطيته من العهود ما لو فهمته العُصُم لنزلت من رؤوس الجبال . . ؟.

أولست بمدعي زياد بن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف ، فزعمت أنه ابن أبيك ، وقد قال رسول الله « ص » : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » فتركت سُنَّة رسول الله « ص » تعمُّداً وتبعت هواك بغير هدى من الله ، ثم سلَّطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم ويصلبهم على جذوع النخل ، كأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك . . ؟.

أولست قاتل الحضرمي الذي كتب فيه زياد إليك ، أنه على دين علي « ع » ، فكتبت إليه أن اقتل كل من كان على دين علي ، فقتلهم ومثَّل بهم بأمرك ، ودين علي هو دين ابن عمه « ص » الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه ، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجشُّم الرحلتين . . رحلة الشتاء والصيف . . ؟.

وقلت ، فيما قلت ، أنظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، واتق شق عصا هذه الأمة وأن تردهم إلى فتنة ، وإني لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها ، ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأمة محمد « ص » أفضل من أن أجاهدك ، فإن فعلت ، فإنه قربة إلى الله ، وإن تركته ، فإني أستغفر الله لديني وأسأله توفيقه لإرشاد أمري .

وقلت ، فيما قلت ، أني إن أنكرتك تنكرني ، وإن أكدك تكدني ، فكدني ما بدا لك ، فإني أرجو أن لا يضرَّني كيدك وأن لا يكون على أحد أضرَّ منه على نفسك ، لأنك قد ركبت جهلك وتحرَّصت على نقض عهدك ، ولعمري ما وَفَيْتَ بشرط ، ولقد نقضتَ عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والإيمان والعهود والمواثيق فقتلتهم من غير أن يكونوا قاتلوا أو قَتَلوا ، ولم تفعل ذلك بِهم إلا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقنا ، مخافة أمر لعلك لو لم تقتلهم ، متَّ قبل أن يفعلوا ، أو ماتوا قبل أن يدركوا . فابشر يامعاوية بالقصاص واستيقن بالحساب [1] ، واعلم أن الله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وليس الله بناس لأخذك بالظنة وقتلك أولياءه على التهم ، ونفيك إياهم من دورهم إلى دار الغربة ، وأخذك للناس ببيعة إبنك الغلام الحدث ، يشرب الشراب ويلعب بالكلاب ، ما أراك إلا قد خسرت نفسك ، وتبَّرت دينك ، وغَشَشْتَ رعيتك ، وسمعتَ مقالة السَّفيه الجاهل ، وأخفتَ الورع التقي ، والسلام » .

والمتمعِّنُ في هذا الكتاب لابد وأن يُلاحظ رغبة الإمام الحسين « ع » في فضح معاوية وردِّ سهامه إلى صدره . فمعاوية يتَّهمه بشق عصا أمة الإسلام ،

---

(١) إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم « ٢١ » من سورة آل عمران

فيجيبه : « **إني لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها** [1] » .

ويهدِّده بقوله : « **إتق الله واذكر الميثاق** » فيجيبه « ع » : « **لقد نقضتَ عهدك بقتل ذاكري فضلنا بعد الصلح والإيمان والعهود والمواثيق** » .

ويُلوِّح له قائلاً : « **ونفسك فاذكر وبعد الله أوف** » فيجيبه « **ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأمة محمد** « ص » **أفضل من أن أجاهرك . فإن فعلت فإنه قربة إلى الله** [2] » .

وحيال تهديده له ، يجيبه « ع » : « **كِدني ما بدا لك** [3] » . وفي إجابته هذه تحدٍ نهائي وواضح ، أتبعها بعبارة أخرى أشد جرأة : « **فابشر يامعاوية بالقصاص واستيقن بالحساب** » ، فحدَّد « ع » لخصمه نهاية مظالمه وكيده لأمة الإسلام ، كما ستكون عليه في مُقبلِ الأيام .

وكي نفهم معاوية من خلال ردة فعله حيال كتاب الحسين ، فإننا نراه وقد ركن إلى السكوت بعد ورود هذا الكتاب عليه ، ولم يسجِّل التاريخ حادثة تنمُّ عن غضبه مما جاء فيه . وفي هذا إثبات أكيد على خبثه ودهائه . فلو جاء هذا الكتاب ليزيد بدلاً منه ، لما توانى عن شن حرب جنونية على الحسين[4] .

وفي عبارة الحسين « **فكِدني ما بدا لك** » إحراج لمعاوية ، كان يعني بها « ع » وضع خصمه حيال اتهاماته له ، فلم يقل له : « **كِدني بما تُريد** » بل بما بدا لك مني . . أي أن ما بدا منه « ع » حتى مجيء كتاب معاوية له ، لا يعدوكونه خيالات

---

(١) « . . . والفتنة أشد من القتل » من سورة البقرة .

(٢) يقول أمير المؤمنين علي « ع » : وإنما عاب الله ذلك عليهم لأنهم كانوا يرون من الظَّلَمةِ الذين بين أظهرهم المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك رغبة فيما كانوا ينالون منهم ، ورهبة مما يحذرون .

(٣) يعيب الله تعالى على المفرطين بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً وطمعاً حيث يقول عزته : « ولا تخشوا الناس واخشوني »

(٤) ثمة تحليل واف ووصف واسع لشخصية يزيد في كتاب البلاذري « أنساب الأشراف » ٤ القسم الثاني/ أ

وأوهام أو رغبة في استباق الأمور وتسجيل مواقف سلفية عليه ، بقصد استغلالها ضده فيما بعد ، فلو قام يكيد له بما بدا له منه فلن يجد ممسكاً واحداً يكيد له به .

وهذه ألمعيةٌ نادرة من غذيٍّ الفصاحة الطالبية ، تفوقت بصدقها وعفويتها بمراحل خبث معاوية ودهاءه ، استطاع « ع » بها أن يرد له الكرة التي قذفه بها ، ويكيلَ له أضعاف ما كال به إليه ، وبالتالي إسكاته إلى حين .

وثمة حقيقة واضحة لمسها المسلمون في كل مرة حاول معاوية فيها الكيد للحسين واتهامه بما لا يفعله .. وهي أن الحسين « ع » رغم كل ماأوذي به من معاوية وما ناله من ثعلبيته ، لم يستبح لنفسه الخروج عليه ، وفاء صادقاً بعهده ، على الرغم من جواز خروجه بعد خروج معاوية على كل العهود والمواثيق بالشكل الذي اتهمه فيه من خلال كتابه – الرد – .

ولم تكُ خِلّة الوفاء بالعهد هي خلَّة الحسين الوحيدة ، بل كانت البارزة في حيِّز صراعه النفسي مع معاوية ، وليس أدَلَّ من تعاظم شأن هذه الخِلَّة المحمودة في نفس الحسين ، من أنه وقد اتَّهمَ معاوية بقتله لمن كان على دين أبيه علي « ع » ، والتمثيل بهم لا لشيء إلا لذكرهم فضل بني هاشم وتعظيمهم حقهم . . فإنه لم يتحرك ليزاحمه مجلسه الذي أجلسه فيه دين علي الذي هو دين ابن عمه الرسول « ص » ، والذي لولاه – كما ذكر له في كتابه – لكان شرفه وشرف آبائه ، تجشُّم الرحلتين .

ولو نادى الحسين بخلع معاوية آنذاك لتنادى له الكثيرون بنفس مناداته ، إذ كان معاوية معروفاً بنقضه للمواثيق واستخفافه بعهد الله ، وقتله للحسن وحجر بن عدى والحضرمي وللكثيرين ممن يفوقون الحصر . ولكن الإمام الذي كانت تعدُّه العناية الإلهية للشهادة العظمى ، اكتفى بأن جاهر خصمه بما ينفي عنه كل صفة إسلامية أو قومية بقوله : « **كأنك لستَ من هذه الأمة وليسوا منك** » .

وتكرُّ الأيام ، والحسين ومعاوية على سكوتهما إلا من بضعة كتب كانت تتطاير

بينهما بين الفينة والأخرى ، وقد حاول معاوية شراء أو ضمانة سكوت الحسين عن يزيد فلم يفلح ، وحاول استمالته بجسٍّ نبضه حينما أخذ يفكر بتولية إبنه يزيد ، ولكن الحسين الذي كان ينتظر موت الأب ليخرج على الإبن أجابه في أحد كتبه إليه : [1]

« . . . وفهمت ما ذكرت عن يزيد من اكتماله ، وسياسته لأمة محمد ، تريد أن توهم الناس في يزيد ، كأنك تصف محجوباً ، أو تنعت غائباً ، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص . وقد دلَّ يزيد من نفسه على موضع رأيه ، فخذ ليزيد فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش ، والحمام السبق لأترابهن ، والقيان ذوات المعازف ، وضرب الملاهي ، تجده باصراً ، ودع عنك ما تحاول ، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه ، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور ، وحنقاً في ظلم ، حتى ملأت الأسقية ، وما بينك وبين الموت إلا غمضة » .

ولما يئس معاوية من حمل الحسين على البيعة لابنه يزيد ، عمد إلى حرمان بني هاشم من أعطياتهم حتى يُجبره على البيعة .

ولكن الكبر والمرض فتَّ في عضده ، ولم يفتَّ في طموحاته ، ولم يخفِّف من غلواء خبثه . فها هو على فراش النزع الأخير يلجأ إلى أحابيله ، ويعمد إلى تمثيلياته فيأمر أجراءه كي يحشوا عينيه إثمداً ، ويوسعوا رأسه دهناً ، ويوسعوا له كي يجلس ، ثم يأمرهم بإسناده والإيذان للناس ليسلِّموا عليه قياماً دون السماح لهم بالجلوس . .

وهكذا رآه الناس مُكتحلا مدهَّنا . . فعجبوا من الشائعات التي تناقلت خبر مرضه . وما كادوا يخرجون من لدُنه حتى أنشد يقول :

---

(١) الإمامة والسياسة ١/ ١٩٥ - ١٩٦

وتجلدي للشامتين أريهم
إني لريب الدهر لا أتضعضع

وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع

وأخيراً ارسل إلى مروان عامله على المدينة كتاباً قرأه على الملأ وقال فيه : « **إن أمير المؤمنين قد كبر سنه ودق عظمه ، وقد خاف أن يأتيه أمر الله تعالى فيدع الناس كالغنم لا راعي لها ، وقد أحب أن يعلم علماً ويقيم إماما** » .

ولما وافقه الناس كتب بذلك إلى معاوية ، فأجابه معاوية : « **إن سمِّ يزيد** » ، فسماه لهم . فقام عبد الرحمن بن أبي بكر وقال له : « **كذبتَ والله يامروان وكذبَ معاوية معك ، لا يكون ذلك ، لا تجعلوها هرقلية وتحدثوا علينا سُنَّة الروم كلما مات هرقل قام مكانه هرقل**[1] » .

وأنكر الحسين أيضاً وتبعه عبدالله ابن الزبير ، ولكن معاوية لم يهتم وكتب إلى عماله أن يمهدوا البيعة ليزيد في الأمصار ويرسلوا الوفود إليه في الشام لإعلان بيعتهم .

ولكن المدينة لم تبايع كما بايعت الشام والعراق ، فقدم معاوية إلى المدينة ، حيث استقبله أهلها وعلى رأسهم الثلاثة الذين أنكروا على يزيد البيعة ، فسبَّهم . ولما أقام بالمدينة وكان وقت الحج خرج حاجاً ، فقدموا إليه ثانية وقد ظنوا أنه تغير . فأكرم وفادتهم وطلب لكل منهم دابة ، ثم طلبهم فدخلوا عليه حيث دعاهم إلى بيعة يزيد ، فقال ابن الزبير :

– **اختر منا خصلة من ثلاث . .**

---

(١) راجع النوادر لابي علي القالي ص١٧٥ – ١٧٦

قال معاوية :

- إن في ثلاث لمخرجا .

قال : إما أن تفعل كما فعل رسول الله « ص »

قال :

- ماذا فعل . . ؟

قال :

- لم يستخلف أحدا .

قال :

- وماذا ؟

قال :

- أو تفعل كما فعل أبو بكر فانه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه ، أو افعل كما فعل عمر بن الخطاب إذ جعلها شورى في ستة من قريش ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه .

قال :

- ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف ، هل عندك غير هذا . . ؟

قال :

- لا .

قال :

- ألا تسمعون . . إني قد عوّدتكم على نفسي عادة وإني أكره أن أمنعكموها قبل أن أبيِّن لكم ، إن كنت لا أزال أتكلم بالكلام فتعترضون عليّ فيه وتردون ، وإني قائم فقائل مقالة . . فإياكم أن تعترضوا حتى أتمَّها ، فإن صدقت فعليَّ صدقي ، وإن كذبت فعليَّ كذبي ، والله لا ينطق أحد منكم في مقالتي إلا ضربت عنقه .

ثم وكل بكلِّ رجل من القوم رجلين يحفظانه لئلا يتكلم ، وقام خطيباً فقال : « **إن عبدالله بن الزبير والحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر قد بايَعوا ، فبايعوا** » .

فانجفل الناس عليه يبايعونه ، حتى إذا اطمأن إلى أخذ البيعة ، ركب رواحله وقفل عائداً إلى الشام . فأقبل الناس على الحسين وصاحبيه يلومونهم دهشين . . فقالوا لهم : « **والله ما بايعنا ولكن فعل بنا وفعل** » .

فقالوا : وما منعكم أن تردوا على الرجل برفض البيعة بعد أن زعمتم لنا بأنكم لا تبايعون . . ؟.

قالوا : كادنا وخفنا القتل .

وهكذا تمَّت البيعة ليزيد إغفالاً وقسراً وخداعا .

ولم يطل المرض بمعاوية بعد هذه الحادثة إلا قليلاً ، فلما اشتد عليه وقُرب به من حافة النزع الأخير ، القى لمن حوله بآخر تلفيقاته التي لكثرة ما ردَّدها ، صار يصدِّقها هو نفسه كما لو أنها وقعت حقاً ، فقال :

« إن رسول الله « ص » كساني قميصاً فرفعته ، وقلم أظفاري يوماً فأخذت قلامته ، فجعلتها في قارورة ، فإذا متُّ فألبسوني ذلك القميص ، وقطعوا تلك القلامة ، واسحقوها وذرُّوها في عينيَّ وفي فيَّ ، فعسى الله يرحمني ببركتها ، ثم تمثل ببيتين من الشعر[1] :

إذا متُّ مات الجود وانقطع الندى
من الناس إلا من قليل مصرد

---

(١) من قصيدة للأشهب بن رملة

وردّت أكف السائلين وامسكوا
من الدين والدنيا بخلف مجدد

ولما اعترضت إحدى بناته أكمل متمثّلا :

وإذا المنيَّة انشبت اظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع

ثم راح بإغماءة آفاق منها للحظات ، فتفوّه بهذه العبارة « **إتقوا الله عزّ وجلّ ، فإن الله سبحانه يقي من اتقاه ، ولا واقي لمن لا يتقي الله** » وما لبث إلا قليلاً حتى قضى .

وكان ذلك في الشهر السابع من سنة ٦٠ للهجرة .

وبموته انقضت مرحلة مشبعة بالدسائس والمؤامرات ، لوّنها بدهائه وثعلبيته ، وأنهاها حتى الرمق الأخير بالكذب على الله ورسوله وأمة الإسلام ، واستعدّت الولايات الإسلامية لاستقبال عهد جديد ، كانت بوادره تلوح في سماء الأمة ، فتدفع بالغصص إلى أشد الحلوق تفاؤلا ، فيزيد ليس إلا معاوية ناقصاً بعض خصاله زائداً بعض خصال ابشع (١) . .

واستعدّ الحسين « ع » فقد دقت الساعة وآن الأوان .

---

(١) عُلم عن يزيد بأنه كان مُرسلُ العنان في بني كلب أخواله مطيته الشباب والفراغ والجده . وكان سلوكه متجاوزاً بمراحل ما جاء في الأخبار . وكانت له هوايات شاذة عجيبة كاللعب بالكلاب والتصيد بالفهود والتلهي بالقرود . ذكر ذلك كل من المسعودي في مروج الذهب ، وأحمد بن يوسف القرماني في أخبار الدول ، والدميري في الكلام على الفهد ، وابن الطقطقي في الفخري .

في عهد يزيد

لئن جرت لفظة التوحيد في فمه
فسيفه بسوى التوحيد ما فتكا

قد أصبح الدين منه يشتكي سقماً
وما إلى أحد غير الحسين شكا

هذا ما وصف به أحد الشعراء عهد يزيد ، الذي استقبله المسلمون بقلوب واجفة ، وبأعصاب مشدودة . فلا موت معاوية أشعرهم بالحزن ، ولا تولِّي يزيد أشعرهم بالفرح ، وصار حالهم كحال من عناهم أحد الشعراء بقوله :

الحمد لله لا صبر ولا جلب
ولا عزاء إذا أهل البلا رقدوا

خليفة مات لم يحزن له أحد
وآخر قام لم يفرح به أحد[1]

(١) هذه الأبيات للشاعر دعبل بن علي الخزاعي . وقد قالها لما جاءه نعي المعتصم وقيام الواثق . وقد ثبتناها هنا للاستدلال والمطابقة .

إلا أن مشاعر المسلمين بعد موت معاوية وتولّي إبنه يزيد ، لم تقف عند حدود عدم الحزن أو الفرح ، بل تعدَّتها إلى شعور الخوف والترقُّب من عهد يزيد الذي لم يعرفوا له لوناً بعد . إذكان معاوية قد استطاع أن يقيم توازناً ذكياً بين ماكان عليه ، وما ظهر منه للأمة ، وكان التكتُّم هو وسيلته الناجعة في إحداث هذا التوازن ، فقنع الناس بهذا الحد من الإرهاب والتنكيل ولم يعودوا يجرؤون على الجهر بأكثر من الصمت .

وكانت هذه الخشية التي جاشت في قلوب المسلمين من عهد جديد بدأ ولم تتحدَّد أبعاده بعد ، نابعة من معرفتهم لشخصية يزيد كما سمعوا عنها ، ورأوا ما رأوه منها .

فيزيد كان مثالاً لإبن السلطان المدلَّل المنحرف ، وكان كما تروي الكتب عنه أحمق مغروراً ، زاده التهور سطحية في التفكير ، وبعداً عن الحيطة والتكتم ، وكان أسلوبه في التصرُّف ومعالجة الأمور أسلوب من يركب كل مركب ومطيَّة دون النظر في عواقب فعلته .

وكان على النقيض من أبيه معاوية . . فكلُّ التكتم عند معاوية ، كان يقابله عند يزيد المجاهرة والانفلاش ، وكل تكتيك عند أبيه ، كان يقابله عنده تهور واضح واندفاعة هوجاء .

وهذه الشخصية في مقياس علم النفس تسمى بالشخصية « **العصابية** » وخصائصها هي ذات الخصائص التي عرف بها يزيد ، ومن مزاياها الاستجابة الفورية والسريعة والعنيفة لردود الفعل ، وخفة الشخصية وسرعتها في الانقياد للآراء الجديدة ، سواء أكانت صائبة أم خائبة ، وصاحب هذه الشخصية إنسان فتَّاك يغدر بأقرب المقربين إليه ، ولا يتورع عن ركوب أشنع الأساليب للوصول إلى غرضه .

ويصفه « سيجموند فرويد » : « **بأن صاحب الشخصية العصابية إنسان ذو فائدة لعدد من الناس الأذكياء ، يدغدغون عصابيته ويبتزون منه الفوائد** » .[1]

وهذا الوصف كان ينطبق إلى حد بعيد على شخصية يزيد . إذ كان القرّادون والفهّادون والقِيان والقوادُون وسمسارو الجواري والعاهرات ، يشكلون طبقة عريضة مستفيدة من أعطياته التي كان يحجبها عن المحتاجين من أمته ، ويغدقها عليهم طالما هم يمتعونه ويؤمنون له الاستمرارية في مباذله ومجونه .

كان موفر الرغبة في اللهو والقنص والخمر والنساء وكلاب الصيد ، حتى كان يلبسها الأساور من الذهب والجلال المنسوجة فيه ويهب لكل كلب عبداً يخدمه . وساس الدولة سياسية مشتقة من شهوات نفسه[2] .

ورجل هذه صفاته ، كان من غير الممكن أن يسكت عن معايبه رجل كالحسين « ع » ، عرف بالتقوى وخوف الله والبذل للمحتاجين ، والاقتطاع من فمه وإطعام أفواه الجياع .

ورجل كهذا ، لا يمكن له من معالجة أموره مع الحسين كما عالجها أبوه ، إذ كان الفرق شاسعاً بين الإثنين ، وكان منتظراً أن يتم التصادم في عهده ، بل في مطلع هذا العهد .

فلم يكن ثمّة ما يمنع الحسين بعد موت معاوية ، من إعلان ثورته على يزيد ، فالنفوس عُبّئت عن آخرها ضد هذا الخليفة الجديد .

فمن جهة يزيد ، ساهمت الانتهاكات المكشوفة للدين في إيغار الصدور ضده ،

---

(١) سيكولوجية الشذوذ النفسي ص١٢٩

(٢) راجع الفخري لابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي ص١٠٣ والبلاذري في أنساب الاشراف .

إذ لم يكن له قدرة أبيه على الاحتفاظ بالغشاء الديني الذي كان يسبغه على أقواله وأفعاله .

ومن جهة الحسين ، ساهم موت معاوية في تحلُّلِه من العهد والميثاق ، ولم يعد ملتزماً أمام أحد ليبرر قعوده ، وها هو يزيد يقدم له إشارة البدء بما بدأ به من رعونة وحماقات في مستهل عهده .

فما أن وُوري معاوية التراب حتى عجَّل يزيد بأخذ البيعة لعهده من زعماء المعارضة ، مدعياً أنه رأى في منامه كأن بينه وبين أهل العراق نهراً يطرد بالدم جرياً شديداً . . . وقد جهد ليجوزه ، فلم يقدر حتى جازه بين يديه عبيد الله بن زياد وهو ينظر إليه . .

وكانت هذه أكذوبة افتتح بها عهده كما أختتم أبوه عهده وحياته بأكذوبات مماثلة تحدث فيها عن رؤى قدسية لم تجل إلا في خياله المريض .

وما لبث أن كتب إلى الوليد بن عتبة واليه على المدينة يخبره فيه بموت أبيه ، ومرفقاً به صحيفة صغيرة ذكر له فيها :

« أما بعد فخذ الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليس فيه رخصة (١) ، ومن أبى فاضرب عنقه وابعث إلي برأسه (٢) » .

وما جاء في هذه الصحيفة يعطي دلالة شاملة على شخصية يزيد . . إذ في أول كتبه لأحد ولاته يطلب منه أخذ الحسين وجماعته بالشدة ، ويأمره بقطع رؤوسهم

---

(١) إبن الأثير ، الكامل ٣/٢٦٣ .

(٢) مقتل الخوارزمي ج ١ ص ١٧٨ - ١٨٠

وإرسالها له إن أبوا بيعته .

وها هو بأول تحرك له يخالف آخر وصية لأبيه على فراش الموت حينما قال له فيما قال :

« إن خرج الحسين من العراق وظفرت به ، فاصفح عنه فان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وقرابة من محمد « ص » ، فان قدرت عليه فاصفح عنه فإني لو أني صاحبه عفوت عنه » .

ولكن يزيد صاحب الشخصية العصابية التي تفتك بأقرب الناس لها دون أن يرف لها جفن ، لم تكن لتهمه كثيراً قرابة الحسين من محمد « ص » ، ولا تهزه قرابة الرحم الماسة ، إذ أن كل همه الشدة ، وإلا كان قطع الرؤوس هو البديل للإذعان لهذه الشدة [1] .

ولكن الحسين « ع » الذي انتظر هذه الفرصة طويلاً وصبر على معاوية حتى أيس منه أغلب صحبه.هب سريعاً وكانت ردة فعله مدروسة ، إذ قال للوليد لما فاتحه بكتاب يزيد :

« مثلي لا يبايع سرا ، ولا يجترىء بها مني سراً ، فإذا خرجت للناس ودعوتهم للبيعة ، ودعوتنا معهم كان الأمر واحدا [2] » .

فاقتنع الوليد ، لكن مروان قال له :

« لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم

---

(١) كان يزيد « سيكوباتياً » وفي علم النفس السيكوباتية تعني توقيع الأذى رغم معرفة مقترفها بالقانون والأعراف . إذ ان لذة المقترِف الكبرى تتجلى في اقتراف ما يعرفه أنه جريمة تمام المعرفة .

(٢) الطبري ج ٦ ص ١٨٩

وبينه ، فاحبس الرجل حتى يبايع أو تضرب عنقه » .

فوثب له الحسين قائلاً :

« ويلي عليك ياابن الزرقاء ، أنت تأمر بضرب عنقي أم هو ؟ كذبت ولؤمت وأثمت [1] » .

وارتد إلى الوليد وقال : « أيها الأمير ، أنّا أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومختلف الملائكة ، بنا فتح الله ، وبنا ختم ، ويزيد فاسق ، فاجر شارب الخمور وقاتل النفس المحرمة ، معلن بالفسق ، ومثلي لا يبايع مثله ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أيّنا أحق بالخلافة [2] » .

فأغلظ الوليد في كلامه ، وتطايرت الكلمات ، فهجم تسعة عشر رجلا جاؤوا مع الحسين منتضين خناجرهم وأخرجوه [3] .

فقال مروان للوليد : « عصيتني فوالله لا يمكنك على مثلها » .

قال الوليد :

« وبخ غيرك يامروان ، إخترت لي ما فيه هلاك ديني ، أقتل حسيناً إن قال لا أبايع ؟ والله لا أظن أمرؤاً يحاسب بدم الحسين إلا خفيف الميزان يوم القيامة [4] ، ولا ينظر الله إليه ولا يزكيه وله عذاب اليم [5] » .

وهكذا فبعبارة « ومثلي لا يبايع مثله » ختم الحسين « ع » صيحة تحدّيه

---

(١) تاريخ الطبري وابن الاثير والارشاد وأعلام الورى نقلاً عن المقرم .

(٢) مثير الأحزان لابن نما الحلي .

(٣) مناقب ابن شهراشوب ج ٢ ص ٢٠٨

(٤) تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٩

(٥) اللهوف ص ١٣

ليزيد ، وبدأ بالخطوة الأولى في رحلة الألف ميل نحو مصارع شهادته .

وهذه العبارة فيها من الإيجاز ما لا يستوعبه مجلد بالشرح المستفيض . فقوله « ع » : « ومثلي » معناه أن من كان مثله على دين الحق، وسلالة النبوّة ، لا « يبايع مثله » من كان على باطل الأباطيل ، وسليل مغتصبي حقّ آل البيت .

وحينما ألقاها ، ارتفع من أمامه آخر الحواجز النفسية والزمنية ، ووضعته العناية الإلهية أمام دوره العظيم في مسيرة الدين الإسلامي ، فصار منذ هذه اللحظة بطل هذه العناية وخادمها ، ومنفّذ إيحاءاتها العلوية التي ستقوده إلى قدره المكتوب والمحتوم .

في تلك الليلة خرج الحسين زائراً قبر جده الرسول « ص » وقد أثقله الدور الذي سيقوم به والذي شعر بأنه صار إليه منذ أعلن كلماته أمام الوليد ومروان ، فسطع له نور من القبر ، فناجى جده قائلا :

« السلام عليك يارسول الله ، أنا الحسين إبن فاطمة فرخك وابن فرختك وسِبطك الذي خلفتني في أمتك ، فاشهد عليهم يانبيّ الله أنهم خذلوني ولم يحفظوني وهذه شكواي إليك حتى ألقاك (١) » .

وفي الليلة الثانية خرج إلى القبر يصلي ، ويدعو الله بحقّ القبر أن يختار له ما يرضى به عنه ولرسوله رضى ، ثم بكى . وما لبث أن أغفى على القبر ، فإذا برسول الله قد أقبل في كتيبة من الملائكة عن يمينه وشماله وبين يديه ، فضم سِبطه بين يديه إلى صدره ، وقبل عينيه وقال :

---

(١) أمالي الصدوق ص ٩٣

« حبيبي ياحسين كأني أراك عن قريب مُرمَّلاً بدمائك مذبوحاً بأرض كرب وبلاء من عصابة من أمتي ، وأنت مع ذلك عطشان لا تسقى ، وظمآن لا تروى ، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي ، لا أنيلهم شفاعتي يوم القيامة . حبيبي يا حسين إن أباك وأمك وأخاك قد قدموا علي ، وهم مشتاقون إليك ، وإن لك لدرجات في الجنان لا تنالها إلا بالشهادة » .

فجعل الحسين ينظر إلى جده ويقول : **« ياجدَّاه لا حاجة لي في الرجوع إلى الدنيا ، خذني إليك ، وادخلني معك في قبرك »** .

وعبارة الحسين « ع » الأخيرة تصوِّر أدقَّ تصوير هول ما سيصيبه ، مما جعله يطلب من جده إدخاله إلى قبره ، وهذا التصوير يدلُّ على همجية الذين سيؤذونه ، أكثر مما يصور شعوره من هذا الإيذاء ، وعلى قسوة ما سيناله ، لا على خوفه منه .

ولعل التصوير الأشدَّ بروزاً لهذه الهمجية ، ما جاء في قول جده « ص » له عند قبره ، من أنه سيراه قريباً مُرمَّلاً بدمائه مذبوحاً من عصابة من أمته .

فوصف « **عصابة من أمتي** » فيه إشارة إلى نوعية أولئك الذين سيتولُّون الذبح ، فهم عصابة ، والعصابة تتكون من مجموعة أشرار غلاظ الضمائر والقلوب ، قساة الصدور والأنفس ، وقد حدَّدهم « ص » بأنهم « **من أمتي** » ، أي تلك الطغمة الفاسدة من الأمة الإسلامية ، الخارجة عن العرف والقانون والأخلاق ، مثلها مثل عصابات السرقة والإجرام وانتهاك الحرمات .

ثم يصوِّر الرسول الكريم شناعة موقف هذه العصابة ، بقوله لسبطه : **« وأنت مع ذلك عطشان لا تسقى وظمآن لا تروى »** ويبسط أمام البصائر وحشية العصابة التي تذبح حفيده ، والتي لا تكتفي بالذبح ، بل مع ذلك تتركه عطشانَ وظمآنَ لا

يُسقى ولا يُروى ، وبهذا الفعل الإضطهادي ، لا تعطيه الحق البسيط الذي يُعطى لأعتى المجرمين قبل إعدامه ، حينما يُسأل عن آخر رغباته ، والتي يكون أبسطها السَّقيُ والإرواء .

ويعطف النبي « ص » هذه الفعلة على ما بعدها والتي ستكون من جانبه « ص » إذ يُكمل :

« **وهم مع ذلك يرجون شفاعتي لا أنيلهم شفاعتي يوم القيامة** (١) » .

فعبارتا : « **وأنت مع ذلك** » و : « **هم مع ذلك** » فيهما ربط النتائج بالمسبِّبات ، ورد الفعل إلى النية في الفعل ، وإبراز الفرق بين ما يجب أن يكون ، وبين ما لا يجب أن يكون ، أو كان فعلا خارجاً عن المألوف وحدود الكينونة الطبيعية .

فالقتل في عرف القانون ، هو جريمة لها حدودها المادية ، والقانونية ، والشخصية ، والدينية ، إذا تم ضمن هذه الحدود ، اعتُبر قتلاً في خانة الجريمة الصرفة ، أما إذا سبقه تعذيب ، فيُعتبر في عرف القانون جريمة أخرى تسبق الجريمة الحقيقية من شأنه مضاعفة العقوبة لها ، وإذا ما تبع القتل تمثيل بالجثة ، فإن هذا الفعل يُعتبر أيضاً جريمة أخرى أشنع من القتل (٢) ، لأن التمثيل هو إهانة الميت ، وتعذيب لروحه التي لا تترك مسرح مصرعها إلا بعد أن تُوارى الجثة

---

(١) في سِفر التكوين ١١/٣ أنه حين قَتل قايين أخاه هابيلَ كلَّمه الله قائلاً : « فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دماء أخيك من يديك »

(٢) يرى فيكتور ماسيون المشرِّع الفرنسي بأن التمثيل بالجثة جرمٌ أكبر من جرم القتل ذاته ، ويعتبر أن للميت حُرمة لا يجوز إهانتها فإذا أُهينت اعتُبرت إهانة للرب خالق الهيكل البشري ومكوِّنه على صورته ومثاله .

التراب « **كما يرى بعض الروحانيين** [1] » .

وهكذا فإن التعذيب والقتل والتمثيل ، يعتبر جرائمَ ثلاثاً في عرف القانون . فإذا نظرنا بهذا المنظار القانوني إلى مقتل الحسين ، وكيف عُذِّب قبل الذبح ثم ذُبح ومُثِّل بجسده الطاهر أشنع تمثيل وأشدَّه مهانة . . . لتفسَّرت لنا قولة النبي « ص » لسبطه بهذا الشكل من التعبير [2]

والرسول الأعظم « ص » لم يترك ولده يعاني خوف الشهادة ، وهو الذي رآه يبكي على صدره ويسأله إدخاله في قبره ، بعد زهده في العودة إلى الدنيا . . . فقال « ص » له :

« **لابد أن تُرزق الشهادة ليكون لك ما كتب الله فيها من الثّواب العظيم ، فأمك وأبوك وعمك وعم أبيك تحشرون يوم القيامة في زمرة واحدة حتى تدخلوا الجنة** » .

إذن فإن انتظار الحسين كل هذه المدة ، وصبره على مكاره معاوية ، لم يكن كما فسَّرهُ الملفِّقون من أنه جبن وخوف . . وخروجه إلى الشهادة بالشكل الذي خرج به ، لم يكن كما أوَّ له المخرِّصون من أنه خروج عاطفي ، لا يحسب لصراع القوة حسابا . . ؟

فالحسين « ع » لم يُأتَ بأمر من عندياته ، بل كان مُسيَّراً ليس له خيار ، فما قول

---

(١) للروحاني الفرنسي الكبير « نوستراداميس » علم خاص في بقاء روح الإنسان حائمة فوق الجسد الذي تركته لساعات أو أسابيع لا تقوى على فراقه تاسّياً عليه ، وخوفاً من انفلاتها طليقة ، وللروحانيين الشرقيين آراء عدة في هذا الصدد ، ومنها أن البكاء حول الميت يُحزنه لأن روحه تحوم وتراقب ولا تبرح بعيداً عن الجسد حتى يُوارى التراب . والله أعلم .

(٢) القتل يستجلب لعنة الله . وقد جاء النهي عنه في الإنجيل والقرآن والتو راة ، على قدر خطورته الدينية والإجتماعية والإنسانية لأن الإنسان مخلوق على صورة الله ومثاله ، وقتله معناه تغييب لصورة الله ومثاله فيه . وإزهاق لوديعة غالية أودعها الله في هيكله البشري . فكيف إذا كان المقتول قبساً من النبوّة وبضعة من الرسولية . وجزءاً كبيراً من محبة الله للإنسان . . . ونفحة قوية من إلهاماته وسرّه . . . ! .

الذين قالوا بعكس ذلك بكلمة الرسول « ص » لسِبطه « **لابد أن تُرزق الشهادة ليكون لك ماكتب الله فيها** » . . . ؟ وهل بعد تنبؤ الأنبياء ، ادعاء . . وهل بعد تقريرهم نقض . . ؟

وأولئك الذين وضعوا ويضعون شهادة الحسين على مشرحة الحروب العسكرية والصراعات البشرية من أجل مغانم زمنية مؤقتة ، أما علموا أن حركته كانت استشهاداً وفداء من حيث كان يقصد بها ذلك قبل أن يقوم بها بزمن بعيد كما حلَّلنا ذلك في مطلع كتابنا . . . أما لفت بصيرتهم إلى كون الشهادات العظيمة تشابهت في الشكل والوسائل والنتائج . . . وإنها دوماً كانت تبدأ من أضعف المواقف حيث تستلزم القوة ، ومن أقوى المواقف حيث يستلزم الضعف . . . ؟ أما قرأوا نبوءات الرسل والوصيِّين عن الشهداء الذين سيأتون بعدهم لإنقاذ العقائد وبني البشر من غيِّهم وضلالهم ، وانتشالهم من بؤر الظلم إلى شمس الحق . . . فيوفِّروا على أنفسهم إجتهادات تؤول مصائرها إلى الرياح تذروها بدداً حيال سطوع وتجلِّي الحقيقة الإلهية الجوهرية التي لن يعلو على سناها سناء ، ولا على إشعاعها إشعاع . . . ؟ فهي كالشمس ، واجتهادات المحرِّفين عُمي الأبصار والبصائر ، الذين يرون الحقيقة فيشيحون بوجوهم عنها ، هي كظلال باهتة لأشجار عُرِّيت من أثمارها وورقها وعصفت بها أرياح الشتاء .

فما أعجب أولئك الموتورين الذين كفروا بنعمة الله تعالى الذي أعطاهم نعمة « **الكلمة** » ، فألصقوا بها المعايب والسوءات ، وسكبوها على الورق تحريفا لكلام الله ، وكلام رُسُله وأوصيائه ، فمن لهم بشفيع يوم القيامة . . . ومن لهم بمُنقذ من هواتف صدورهم إذا ما استيقظت ضمائرهم وهتفت في داخلهم تطلب ماء الرحمة والإيمان لتُبرِّد به جحيمها . . ؟ .

ياليت من يمنع المعروف يمنعه
حتى يذوق رجال غبَّ ما صنعوا

وليت للناس خطّاً في وجوههم
تبيِّن أخلاقهم فيه إذا اجتمعوا

وليت ذا الفحش لاقى فاحشاً أبداً
ووافق الحلم أهل الحلم فابتدعوا [1]

---

(١) هذه الأبيات لأبي دهبل الجمحي ، وقد ثبّتناها هنا للاستشهاد بمعناها المتوافق مع معاني الرأي الذي سبقها .

الفصل الثاني

الخروج

إلى مكة

ألا يا عين فاحتفلي بجهد
ومن يبكي على الشهداء بعدي
على قوم تسوقهم المنايا
بمقدار إلى إنجاز وعد

هذا الهاتف سمعته العقيلة زينب وركب الخروج على مشارف الخزيمية قرب الكوفة ، وأعلمت به أخاها الحسين . ولكن الشهيد الذي كان في هذا الموضع امتثالاً لأمر جده ، لم يزد جوابه على كلام أخته عن القول : « **يا أختاه كل الذي قضي فهو كائن** (١) » .

وبجواب الحسين يضع ما كتب له في الصحيفة الإلهية في موضع التنفيذ ، بامتثاله

---

(١) راجع ابن نما ص٢٣

للوعد الذي قدر له إنجازه ، فكان كل ما قُضي بالنسبة إليه فهو كائن لا محالة ، وتأكيد جده الرسول الأعظم على ضرورة أن يُرزق الشهادة ، فيه توكيد وأمر غير مباشر له كي لا يقف أو يتردد . . بل يقدم عن وعي وتبصر بالنتائج .

وهذا ما كان منه بعد تلقِّي التوكيد - **الأمر** - من جده « ص » إذ جمع عائلته وصحبه وأنبأهم برؤياه ، فتخوَّف عليه الجميع ونصحه عمر الأطرف بالمبايعة ليزيد وإلا سيُقتل ، وقال له محمد بن الحنفية ناصحاً :

تنحَّ ببيعتك عن يزيد بن معاوية والأمصار ما استطعت ، ثم ابعث بُرسُلك إلى الناس فإن بايعوك حمدت الله على ذلك ، وإن اجتمعوا على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك[1] » .

فاستصوب الحسين نصيحة ابن الحنفية وعزم على الخروج إلى مكة ، ودخل المسجد وهو ينشد :

لا ذُعرت السوام في فلق الصبح مخبراً ولا دعيت يزيدا

يوم أعطى مخافة الموت ضيماً والمنايا يرصدنني أن أحيدا[2]

وقبل أن يترك الحسين المدينة كتب وصيَّة تُعتبر دستور الخروج ، أجمل فيها مبدأه وهدف خروجه ، وقال فيها ضمن ما قال :

« **وإني لم أخرج أشِراً ولا بطراً ولا مفسِداً ولا ظالماً ، وإنما خرجت لطلب**

---

(١) اللهوف ص١٥ ط صيدا

(٢) أنساب الأشراف ج٤ ص٦٦

الإصلاح في أمة جدي « ص » . أريد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب ، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ، ومن ردَّ علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين [1] » .

وخرج الحسين من المدينة متوجهاً إلى مكة لليلتين من رجب سنة ستين للهجرة وحوله أهل بيته وإخوته وبنو أخيه وهو يقرأ متخوفاً طالباً من ربه تخليصه من القوم الظالمين ، ولزم الطريق الأعظم فقيل له : « **لو تنكبت الطريق كما فعل ابن الزبير كيلا يلحقك الطلب** » فأجاب : « **لا والله لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو قاض** » .

وفي مكة مكث أربعة أشهر يدرس أحوال ناصريه وشيعته ، وكانت ترده كتبهم تعلن له البيعة وتطلب منه الظهور ، وكان أهل الكوفة وأعمالها قد وعدوه بمائة ألف مقاتل إن هو طلب البيعة [2] .

ولكن الحسين تمهَّل لتبيان جليَّة الأمر ، وآثر قبل التوجه إلى الكوفة ، أن يُرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ، ليهيء له الأرضية المناسبة لإعلان البيعة ، ولهذه الغاية كتب إلى رؤساء الكوفة كتاباً يقول فيه :

« أما بعد فقد أتتني كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومي عليكم ، وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي ، مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إلي أنه قد أجمع رأيُ مِلئِكم وذوي

---

(١) للشيخ محمد عبده رأي يقول فيه : خروج الإمام الحسين « ع » على إمام الجور والبغي يزيد كان من باب خذل حكومة جائرة عطَّلت الشرع الإسلامي . وللشيخ عبدالله العلايلي في كتابه « الإمام الحسين » ص ٣٤٤ رأي مماثل يقول فيه إن الحسين « ع » لم يخرج على إمام وإنما خرج على عادٍ فرض نفسه فرضاً أو فرضه أبوه بدون ارعواء . وهذا مأخذ نيابي وغلطة سياسية من معاوية ، أعد المجتمع للثورة إعداداً قوياً حينما عهد إلى يزيد .

(٢) وردت تفاصيل هذه الكتب وأعدادها وصيغها في كتاب إبن نما ص١١ وفي الخوارزمي ج١ ص١٩٣ تفصيل آخر لاجتماع أهل الكوفة وكتبهم إلى الحسين – عن المقتل للمقرم .

الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت عليَّ به رُسُلكم وقرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله ، فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط[1] ، والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله ، والسلام » .

وبينما الحسين في مكة كان موسم الحج قائماً ، وقد غصت مكة بجمع كبير من المعتمرين المسلمين من كل الأنحاء ، وكانت أخبار خروج الحسين قد وصلت إلى الأمويين ، معلنة غضبته وعلنية حركته مع ما وافاهم به جواسيسهم المبثوثة ، من عقد الأندية للحسين وكثرة اجتماعاته مع المسلمين المتواجدين في مكة ، إضافة إلى ما تناقلته الشائعات والتكهنات من أقوال وآراء ، حول هياج أهل الكوفة وغليان نفوسهم بعد موت معاوية .

وكان أن قرر الأمويون إغتيال الحسين في مكة حتى ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة ، فأرسلوا فرقة يطلق عليها « **شياطين بني أمية** » ومؤلفة من ثلاثين رجلاً لتنفذ عملية اغتياله .

وقد هدف يزيد من وراء اغتيال الحسين ، ضرب عصفورين بحجر واحد ، فمن جهة يتخلص من خصمه ، ومن جهة أخرى يكون مقتله ذريعة مناسبة لإعدام المئات تحت ستار البحث عن قاتل الحسين ، ممن يود اجتثاثهم وتصفيتهم .

وكان قد بلغ الحسين أن مسلماً قد بايعه في الكوفة ثمانية عشر ألفا . فقرر التعجيل بالسفر إلى الكوفة لسببين : **أولهما** . . من أجل التفويت على اغتياله والمحافظة على حرمة الحرم ، **وثانيهما** . . من أجل المبادرة إلى المبايعين قبل أن يتفرَّق شملهم وتبرُدَ هِمَمهم من طول الإنتظار .

---

(١) يقول الكتاب العزيز : « واقسطوا إن الله يحب المقسطين » سورة الحجرات

وحاول البعض نُصحه بالتريُّث أو العدولِ عن السفر إلى الكوفة ، ومنهم عبدالله بن عباس إذ سأله :

- إن الناس أرجفوا أنك سائر إلى العراق ، فما أنت صانع ؟

أجاب :

- قد أجمعت السير في أحد يوميَّ هذين .

فأعاذه ابن عباس بالله من هذا العزم وقال له مشفقاً :

- إني أتخوف عليك من هذا الوجه الهلاك ، إن أهل العراق قوم غدر ، أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فلينفوا عدوهم ثم اقدم عليهم ، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن ، فإن بها حصوناً وشعابا ولأبيك بها شيعة[1] .

فقال له الحسين :

- يابن عم ، إني أعلم أنك ناصح مشفق ، ولكني قد أزمعت على السفر ، وأجمعت على السير .

قال ابن عباس :

- إن كنت لابد فاعلا ، فلا تُخرِجْ أحداً من ولدك ولا حرمك ولا نسائك ، فخليق أن تُقتل وهم ينظرون إليكَ كما قُتل ابن عفان .

ولكن صَحْب الحسين وخلصاءه لم يعوا تماماً كما وعى هو ، أمر أن يتوجه إلى العراق حيث مصرع شهادته ، وكانوا حتى وصوله إلى كربلاء ما زالوا ينظرون إلى

---

(١) أبو مخنف في المقتل ص٤١

الخروج على أنه مناجزة عسكرية ، وكان هذا الفهم المغلق سراً من الأسرار العلوية لم يتفتّح إلا لبصيرة الحسين وحده .

إلـــى الكوفة

في الثامن من ذي الحجة خرج الحسين قاصداً الكوفة ، موطن المعارضة لأمية ، وكانت أخبار تَنَادي الشيعة لكتب الحسين والتفافهم حول مسلم ابن عقيل بانتظار قدومه ، قد بلغت يزيد ، فاستشار كاتبه وأنيسه سرجون الرومي بما يجدر عليه فعله ؟ فأشار عليه بعزل والي الكوفة النعمان بن بشير ، وتولية عبيد الله بن زياد والي البصرة [١] .

وما أن جاءالأمر لابن زياد حتى تعجل المسير إلى الكوفة ، ودخلها متخفياً بثياب يمنية وعمامة سوداء ، فكان الناس يظنونه الحسين ويحيونه بقولهم : « **مرحباً بإبن رسول الله** » . وكان الغيظ يحرقه ، إلى أن وصل إلى قصر الأمارة ، فأطلَّ عليه النعمان وقال له : « **ما أنا بمؤدٍ إليك أمانتي ياابن رسول الله** » ، فقال له بن زياد : « **إفتح فقد طال ليلك** » . . . فعرفه ابن النعمان [٢]

وكان أول عمل قام به في الصباح ، أن جمع مشايخ المدينة في الجامع الأعظم وخطبهم وحذَّرهم ومنَّاهم بالأعطيات قائلاً : « **أيما عريف وُجد عنده أحد من بغية أمير المؤمنين ولم يرفعه إلينا صُلب على باب داره** [٣] » .

---

(١) كان عبيد الله ابن مرجانة مجوسية ، وعند إبن كثير في البداية ، وعند العيني في عمدة القارىء شرح البخاري أنها سبية من أصفهان . ويُقال أن عبيد الله كان أكولا . وفي المعارف لإبن قتيبه ص ٢٥٦ ، كان طويلاً جداً لا يُرى ماشياً إلا ظنوه راكبا .

(٢) الطبري ج ٦ ص ٢٠١

(٣) الإرشاد

وكان يقصد بـ « **بِغية أمير المؤمنين** » الحرورية وأهل الريب .

وأحدث قدوم إبن زياد اضطراباً بين الناس ، وانتشر الرعب في المدينة ، وسرت شائعات بأن جيش الشام على الأبواب ، وأمسكت القبائل بزعمائها حفظاً لهم من فتك إبن زياد ، وبقي البعض يتردد على مسلم بن عقيل بحذر وتكتم تحت مراقبة أموية شديدة .

وعلى الرغم من تضارب الوقائع فيما تلا من أيام بعد وصول إبن زياد إلى الكوفة ، فإن من المسلَّم به أن عبيد الله بن زياد لاقى مقاومة وسجالاً في مغالبة مسلم وشيعته ، وقد قيل أنه هرب مرة من المسجد واعتصم بقصره هرباً من ناصري مسلم الذين تصايحوا ضده .

ويُقال إنه اجتمع لمسلم أربعة آلاف نصير ، فأمر بمن ينادي في الناس بشعار المسلمين يوم بدر : « **يامنصور . . . أمت . . . ؟** » ثم تقدم إلى قصر الأمارة مع أنصاره ، ولم يكن في القصر إلا ثلاثون رجلا من الشرطة وعشرون من أهل الكوفة ، فلما شعر إبن زياد بأنه في خطر ، تحايل على الموقف وأنفذ عيونه وأنصاره يبثُّون الشائعات في المدينة عن قرب وصول المدد من الشام ، ويهدِّدون بأخذ البريء بالمذنب والغائب بالشاهد .

وأثمرت حيلته فصارت الزوجات يتعلقن بأزواجهن كي يمنعنهم من الخروج ، وفعَل ذلك الأخوة والأمهات . . [1]

وكان أن انفض جند مسلم إلا خمسمائة . . . وما أن صلّى المغرب حتى كان وراءه ثلاثون أخذوا يتسللون رويداً رويداً حتى بقي وحيداً في المسجد .

---

(١) راجع تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٠٧

ولما سمع عبيد الله سكون الجلبة ، أرسل حملة القناديل ليفتشوا في المسجد مخافة أن يكون هذا السكون مكيدة ، فلما اطمأن إلى تفرق أتباع مسلم ، دعا إلى الصلاة ، ولما اجتمع الناس رقي المنبر وقال :

« إن ابن عقيل قد أتى ما قد علمتم من الخلاف والشقاق فبرأت الذمة من رجل وجدناه في داره ومن جاء به فله ديَّته » .

ثم أمر رئيس شرطته الحصين بن نمير أن يفتش السكك ودور الكوفة ، وتوعده بالقتل إن أفلت مسلم وخرج من الكوفة [1] .

وعند الصباح وشى إبن امرأة تدعى طوعة كانت قد آوت مسلماً بمكان اختبائه ، فأرسل إبن زياد ، إبن الاشعث في سبعين من الشرطة فقبضوا عليه بعد معركة دامية دافع خلالها إبن عقيل دفاع الأبطال وقتل العديد من مهاجميه [2] .

ولما جيء به إلى ابن زياد ، رأى مسلم على باب القصر قلّة ماء مبردة ، فطلب شربة منها ، فقال له مسلم بن عمرو الباهلي : **« والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الحميم في نار جهنم »** .

ولما مثل بين يدي عبيد الله لم يحيه ، فقال له ابن زياد : **« لقد خرجت على إمامك وشققت عصا المسلمين ، وألقحت الفتنة »** .

فقال مسلم : **« كذبت إنما شق العصا معاوية وإبنه يزيد ، والفتنة ألقحها أبوك [3] »** .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٠٩ - ٢١٠

(٢) يُقال أنه قتل واحداً وأربعين رجلاً على ما ذكر إبن شهراشوب في المناقب ج ٢ ص ٢١٢ .

(٣) إبن نماص ١٧ ومقتل الخوارزمي ص ٢١١

ونظر مسلم إلى جلساء ابن زياد ، فرأى بينهم عمر بن سعد ، فناشده بحق القربى بينهما ليصغينّ منه إلى وصية ينفذها له ، فأبى عمر . فأذن له عبيد الله ، فقام إلى مسلم بحيث يراهما ابن زياد ، فأوصاه مسلم بأن يقضي ديناً عليه بالكوفة سبعمائة درهم ، بعد أن يبيع سيفه ودرعه ، ويستوهب جثته من ابن زياد ويدفنها ، ويكتب إلى الحسين بخبره .

ولكن رجل عبيد الله كان أميناً مع نذالة نفسه ، فأفشى لسيده بسر مسلم ، فأمره بالتكتم على هذا السر ، وأمر بإخراج مسلم إلى أعلى القصر حيث تراه الجموع المنتظرة في الخارج ، وطلب من رجل شامي أن يضرب عنقه . فسقط رأسه إلى الرحبة وألقيت جثته إلى الناس ، ثم أرسل برأسه إلى يزيد مع رؤوس بعض أنصاره ممن كان يأوي إليهم وفي مقدمتهم رأس هانىء بن عروة ، ثم أمر بسحب مسلم وهانىء بالحبال من أرجلهما في الأسواق وصلبهما بالكناسة منكوسين (١) .

حينما قتل مسلم كان قد مضى على خروج الحسين من مكة يوم كامل ولم يكن قد علم بمقتل ابن عمه ، وكان يغذ السير تاركاً وراءه الدساكر والقرى ووجهته الكوفة ، ومن بطن الحاجر أراد «ع أن يستوثق من بقاء شيعته على مساندتهم له ، فأرسل لهم كتاباً يطالبهم فيه بالجد والانكماش في أمرهم ، وأرسل الكتاب مع قيس بن مسهر الصيداوي الذي ما أن وصل القادسية حتى وقع في قبضة الحصين بن نمير ، الذي سيّره إلى ابن زياد،حيث خرق أمامه الكتاب الذي زوّده به الحسين ، فسأله ابن زياد عن سبب تمزيقه للكتاب وطلب منه أن يخبره عما فيه ، فأبى

---

(١) في التاريخ نجد كثيراً من قصص الصلب مع إنكاس الرأس . ففي صدر المسيحية صَلب نيرون مجنون روما ، بطرساً وبولسا تلميذي المسيح منكوسين ، جزاء إدخالهما المسيحية إلى روما . وفي كتاب حياة الحيوان أن إبراهيم الفزاري قُتل وصُلب منكساً بعد أن أفتى فقهاء القيروان بذلك جزاء هزئه بالله والأنبياء . كما أننا واجدون حتى في التاريخ الحديث قصص صلب مماثلة جرت باسم الثورات الشعبية في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية .

قيس . فأمره عبيد الله بصعود المنبر وسبِّ « **الكذاب بن الكذاب الحسين بن علي** » ، ففعل وقال : « **أيها الناس . . . إن الحسين بن علي خير خلق الله ، وقد خلفته في موضع الحاجر فأجيبوه ، والعنوا ابن زياد وأباه** » .

فما كان من إبن زياد إلا وأمر بقذفه من أعلى القصر ، فتحطَّمت عظامه .

وكان الحسين خلال سيره يسأل الناس عن أحوال الكوفة . . . فيُجمعون على القول بأن قلوب أهل الكوفة معه وسيوفهم عليه ، وكان يُجيب القائلين : « **بأنهم لن ينصرفوا حتى يقضي الله أمراً ، وتتصرَّف بهم الأمور في عاقبة** » .

ولما وصل إلى الثعلبية بلغه مقتل مسلم وهانىء ، فتلقى ذلك بصبر ، وسأل آل عقيل عما يرون فعله بعد مقتل مسلم ؟ فأبوا الرجوع حتى يذوقوا ما ذاقه مسلم .

وتوالت الأنباء المزعجة ، فقد ورد للحسين نبأ مقتل عبد الله بن بقطر رسوله أيضاً إلى الكوفة ، حيث كانت ميتته مثل ميتة مسلم ، ملقىً به من علٍ ، مدكوكَ العظام .

وهنا لم يرَ الحسين مندوحة من أن يُعلن لمن معه تقلُّب الأوضاع لغير المُشتهى ، وخيَّرهم بين البقاء أو الانصراف قائلا :

« **وقد خذلنا شيعتنا . . فمن أحب منكم أن ينصرف فلينصرف ، ليس عليهم منا ذمام** » .

فتركه مُعظمهم إلا أهل بيته وخُلْص أصحابه .

وما أن أشرف الركب على جبل ذي حسم ، حتى برزت طلائع جيش عبيد الله بقيادة الحر ، حيث كان هذا الجيش يجوب القفار بحثاً عن ركب الحسين ، ولما كان

الوقت ظهيرة والقيظ يخنق الأنفاس ، أمر الحسين فتيانه بإسقاء الجيش المعادي وترشيف الخيل ترشيفا .[1]

ولما علم الحسين بأن جيش الحر قد جاء لصده وأخذه إلى عبيد الله في الكوفة ، أمر مؤذِّنه بالآذان لصلاة الظهر ، ثم خطب بالقوم الذين جاؤوا يطلبونه فأخبرهم بأنه لم يأت حتى أتته كتبهم ورُسُلهم ، وسألهم أخيراً بقوله :

« فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مِصركُم ، وإن لم تفعلوا أو كنتم لقدومي كارهين ، إنصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم » .

فسكتوا جميعاً . وبعد الصلاة عاد الحسين إلى مخاطبة الجيش فأجابه الحر :

« إني أُمرتُ ألا أفارقك إذا لقيتك حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد » .

فقال الحسين : « **الموتُ أدنى إليك من ذلك** » . وأمر أصحابه بالركوب ، فحال الحرُّ بينهم وبين الانصراف ، فقال الحسين للحر : « **ثكلتك أمك ما تريد منا . . . ؟** » .

قال الحر :

« أما لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل هذا الحال ما تركت ذكر أمه بالثكل كائناً من كان ، والله مالي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما نقدر عليه ، ولكن خذ طريقاً نصفاً بيننا لا يدخلك الكوفة ، ولا يردُّك إلى المدينة ، حتى أكتب إلى ابن زياد ، فلعل الله أن يرزقني العافية ولا يبتليني بشيء من أمرك » .

ثم حذر الحسين بقوله : « **لئن قاتلت لتقتلن** » .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٢٦

فقال « ع » :

— أبالموت تخوفني . . ؟ بماذا أرد عليك إلا بما قاله أخو الأوس لابن عمه وهو يريد نصرة رسول الله :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى
إذا مانوى حقاً وجاهد مسلماً

وواسى رجالا صالحين بنفسه
وخالف مثبوراً وفارق مجرماً

فإن عشت لم أندم وإن متُّ لم أُلم
كفى بك ذلاًّ أن تعيش وتُرغما

فتنحى الحر عن الحسين ، وأخذ يسايره بجيشه انتظاراً لوصول كتاب ابن زياد بعد أن أرسل يخبره بالعثور على ركب الحسين . وما أن وصلوا إلى نينوى حتى وصل رسول يحمل للحر أمر ابن زياد الذي يقول فيه :

« أما بعد فجعجع (١) بالحسين حتى يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء » .

ولما فرغ الحر من قراءة الكتاب دفعه للحسين يقرأه ، ولما فعل طلب الحسين منه أن يسمح لهم بالنزول في نينوى أو الغاضريات ، فرفض الحر متعلِّلا بأن لابن زياد عيناً عليه (٢)

---

(١) ذكر الأصمعي أن الجعجعة معناها الحبس . وجَعجعْ به معناها : أحبسه . ومنه قول أوس ابن حجر « إذا جعجعوا بين الإناخة والحبس » عن المقتل للمقرم .

(٢) إرشاد المفيد .

وأشار زهير بن القين على الحسين بمقاتلة جيش الحر ، قبل أن يأتيهم من الجند ما لا قِبَل لهم بهم .

فقال الحسين : **« ما كنت أبدأهم بقتال »** .

وطلب الحسين من الحرُ أن يسمح لهم بالمسير قليلاً ، فإذن لهم . فساروا جميعاً حتى وصلوا إلى أرض كربلاء ، فوقف جواد الحسين فجأة ولم يتحرك ، فسأل الحسين عن إسم الأرض التي يقفون فوقها ! فقال زهير :

« هذه أرض الطف » .

فسأل الحسين : وهل لها إسم غيره . . . ؟

قال زهير : تعرف بكربلاء .

فدمعت عينا الحسين وقال : اللّهم أعوذ بك من الكرب والبلاء ، ههنا محط ركابنا وسفك دمائنا ومحمل قبورنا بهذا حدثني جدي رسول الله .

في كربلاء

في عشية اليوم الثاني من المحرم سنة إحدى وستين ، كان نزول الحسين ورَكبه في بطاح كربلاء ، ومنذ هذا التاريخ تبدأ الفصول الأشدُّ حسماً وصعوبة في رحلة الخروج الدامية .

وقد ضرب الحسين خيامه في هذه البقعة ، وضرب الحر معسكره قريباً منه . وما هي إلا فترة بسيطة حتى كان الخبر يهز الكوفة ، فاهتزت وماجت فيها القوى على اختلاف مشاربها ، وبدا أن العناصر الموالية للحسين تنقصها القيادة التي توجهها نحو

هدفها .

وأسرع ابن زياد فأطلق النفير العام معلناً التعبئة والتجنيد العام ، بعد أن أرسل إلى الحسين كتاباً قال له فيه :

« أما بعد ياحسين فقد بلغني نزولك كربلاء ، وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يزيد أن لا أتوسد الوثير ولا أشبع من الخمير أو أُلحقك باللطيف الخبير أو تنزل على حكمي وحكم يزيد ، والسلام » .

وقد قرأ الحسين هذا الكتاب وألقاه على الأرض وهو يقول : **لا أفلح قوم اشتروا مرضات المخلوق بسخط الخالق** .

وقال لرسول ابن زياد : **ما له عندي جواب لأنه حقَّت عليه كلمة العذاب** .

وبجواب الحسين هذا تقرَّر فيه كلُّ ما سيلي ، وانقطع آخر خيط في الحوار الذي كان دائراً بينه وبين جماعة يزيد .

ولما أخبر الرسول ابن زياد بما قاله أبو عبدالله « ع » ثار ثورة شديدة[١] ، وأمر عمر بن سعد بالخروج إلى كربلاء ، وكان مُعسكراً « **بحمام أعين** » في أربعة آلاف محارب ليسير بهم إلى « **دستبي** » بأرض همذان لقمع ثورة الديلم ، بعد أن وعده بولاية الري وثغر دستبي والديلم[٢] ، بعد تحقيق النصر .

ولكنه استمهل ابن زياد للمراجعة ، فنصحه إبن اخته إبن المغيرة إبن شعبة – وهو من أعوان معاوية – بألا يقبل بمقاتلة الحسين ، وقال له :

– والله لئن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك ، خير من أن

---

(١) البحار ج١٠ ص١٨٩ ومقتل العوالم ص٧٦

(٢) الطبري ج٦ ص٢٣٢

تلقى الله بدم الحسين.

وبات إبن سعد ليلته مفكراً وسمع يردد :

أأترك ملكَ الرِّيِّ والري رغبتي
أم ارجع مذموماً بقتل حسين
وفي قتله النار التي ليس دونها
حجاب وملك الري قرة عيني ؟

وفي الصباح أتى ابن زياد ، وطلب إنفاذه على أن يرسل إلى الحسين بعض أشراف الكوفة وسمّى له بعضاً منهم.

فأبى ابن زياد إلا أن يسير إلى مقاتلة الحسين ، أو ينزل له عن ولاية الري ، فلما رآه ملحّاً سار بجنده وانضم إليه الحر فيمن معه ، وأنفذ ابن سعد،قرة بن قيس الحنظلي لسؤال الحسين عما جاء به إلى هذه الأرض . . ولما عاده بالجواب ،كتب إلى إبن زياد فجاءه جوابه :

أعرض على الحسين وأصحابه البيعة ليزيد ، فإن فعل رأُينا ، رَأَيْنا .

وكان ابن سعد قد ذكر لابن زياد أن الحسين أعطاه عهداً بأن يرجع إلى المكان الذي أقبل منه ، أو يسير إلى ثغر من الثغور ، أو أن يأتي يزيد فيضع يده في يده .

والمرجَّح أن عمر بن سعد نقل عمداً هذا الكلام عن لسان الحسين تخلُّصاً من المهمة الصَّعبة التي أُنيطت به .

وقد حاول عبيد الله أن يأخذ جانب الليونة بعد ورود كتاب ابن سعد ، إلا أن شمراً نهاه وأوغر صدره على عمر واتهمه بمحادثة الحسين طوال الليل بين

المعسكرين . . فمال ابن زياد لرأي شمر ، وأنفذه بأمر أن يضرب عنق عمر إن هو تردّد في تسيير الحسين إلى الكوفة أو مقاتلته ، وكتب لعمر كتاباً غاضباً يقول له فيه :

« فإني لم أبعثك إلى الحسين لتكفَّ عنه ، ولا لتمنّيه السلامة والبقاء ، ولا لتطاوله ولا لتعتذر عنه ، ولا لتقعد له عندي شافعاً . أنظر فإن نزل الحسين وأصحابه واستسلموا ، فابعث بهم إليَّ مسلّماً ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثّل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قُتل الحسين فاوطىء الخيل صدره وظهره فإنه عاقٌ مشاق قاطع ظلوم ، فإن أنت مضيتَ لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أنت أبيتَ فاعتزل جُندنا ، وخلِّ بين شمر ابن ذي الجوشن وبين العسكر » .

وهكذا انتشر في فلاة كربلاء خمسة وعشرون ألف مقاتل ، يحاصرون ثلاثة وسبعين نفراً وبضعة نسوة وأطفال .

وقد حدّثَ التاريخ على أن وسائل النقل في الكوفة قد عجزت عن حمل هذا الجيش إلى كربلاء ، وقد بقي الحدادون في الكوفة يعملون ليل نهار لمدة عشرة أيام متواصلة في صقل السيوف وبري النبال ، كانت نارهم خلالها مُضرمةً على الدوام .

ورقم الجيوش التي أنفذت لمقاتلة الحسين لم يدخل في خانتها عدد بعض الرماة والفرسان الذين كانوا مع الحصين بن نمير ، وعزرة بن قيس ، ولو أُحصيت لوصل العدد إلى ما فوق الثلاثين ألفا .

ففي أمالي الصدوق ، ذكر الرقم بـ ٣٠ ألفا . وفي مطالب السؤول ، ذُكر بعشرين ، وفي هامش تذكرة الخواص بمائة وفي أسرار الشهادة بستة آلاف فارس وألف راجل . وفي تحفة الأزهار بثمانين ألفا .

وعلى قعقعة أسلحة هذه الجيوش إستعدت كربلاء لاستقبال شهيدها ، ومع اضمحلال غسق ليلة التاسع من محرّم إستعد الشهيد الحسين « ع » لتقديم ذاته على مذبح العناية الإلهية قرباناً فداء للإسلام .

آخر أقوال ومواقف سيّد الشهداء

نادى ابن سعد عشية الخميس لتسع خلَون من المحرم ، فأمر جيشه بالزحف نحو معسكر الحسين . وكان أبو عبدالله جالساً أمام بيته،فرأى رسول الله يقول : « **إنك صائرٌ إلينا عن قريب** » ، وسمعت زينب أصوات الرجال وقالت لأخيها : « **قد اقترب العدو منا** » .

فقال الحسين لأخيه العباس :

« **إركب بنفسي أنت حتى تلقاهم واسألهم عما جاءهم** » .

ففعل العباس مع عشرين فارساً ، فقالوا له :

« **جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم النزول على حكمه أو ننازلكم الحرب** [1] » .

فعاد العباس « ع » يُخبر الحسين ، بينما انصرف أصحابه إلى عظة القوم ، وما

---

(١) راجع روضة الواعظين ص ١٥٧ والإرشاد للمفيد ، والبداية لابن كثير ج٨ ص١٧٦ ، والطبري ج٦ ص١٣٧ .

لبث أن عاد طالباً منهم استمهالهم العشية ، فأجابه ابن سعد لهذا الطلب .

وقُربَ المساء خطب الحسين « ع » بصَحبْه ، مُخبراً إياهم بأن جده « ص » أخبره بأنه سيُساق إلى العراق ، فينزل أرضاً يقال لها عمورا وكربلا ، وفيها يستشهد وقد قُربَ الموعد(١)

وأَذن لهم بالانصراف ودعاهم للانطلاق في حلٍّ من ذمامه ، بأن يأخذ كل منهم بيد رجل من أهل بيته ، ويتفرقوا في سوادهم ومدنهم ، لأن القوم إنما يطلبونه ، ولو أصابوه لذهلوا عن طلب غيره . (٢)

ولكن الجميع رفضوا إلا الموت بين يديه .

وقد روي عن محمد بن الحنفية أنه قال : قُتل مع الحسين سبعة عشر رجلاً كلهم من أولاد فاطمة .

وعن الحسن البصري أنه قال : قُتل مع الحسين ستة عشر رجلاً كلهم من أهل بيته وما على وجه الأرض يومئذٍ لهم شبه .

وتُحدِّث المصادر(٣) ، بأن جيش الحسين كان مؤلفاً من خمسمائة فارس من أهل بيته وصَحْبه ونحو مائة راجل ، أما ابن عساكر فيُورد أن ستين شيخاً من أهل الكوفة هم جيش الحسين ، وقد قاتلوا حتى قتلوا معه ، إضافة إلى التحاق الحُرِّ

---

(١) راجع إثبات الرجعة

(٢) يرد الفيلسوف الألماني « ماربين » طلب الحسين « ع » من أولاده وإخوانه وبني إخوته وبني أعمامه وخواص صحبه ، الانصراف وتركه وحيداً إلى رغبته في فضح بني أمية بقتل هؤلاء المعروفين بين المسلمين بجلالة القدر ، وعِظَمِ المنزلة مما سيجعل من قتلهم معه مصيبة عظيمة وواقعة خطيرة . وفي هذا دِلالة على حُسن سياسته ، وقوة قلبه وتضحية نفسه وأهله في سبيل الوصول إلى المقصد الذي كان في نظره .

(٣) راجع مروج المسعودي

وأخوه وولده ومولاه وبعض جنده ، كما أضيف إليهم بعض من عسكر إبن سعد المتسللين إلى معسكر الحسين .

ولما وثق الحسين من صدق نيتهم أراد أن ينبِّههم إلى ما ينتظرهم في الغد فقال لهم :

« إني غداً أُقتل وكلكم تُقتلون معي ولا يبقى منكم أحد ، حتى القاسم وعبدالله الرضيع ، إلا ولدي علياً زين العابدين لأن الله لم يقطع نسلي منه وهو أبو أئمة ثمانية » .

فرفع الجميع أصواتهم مجدَّداً شاكرين الله الذي كرَّمهم بنصرته وشرَّفهم بالقتال معه .

وفي تلك الليلة سمع علي بن الحسين أباه يقول وهو يُصلح سيفه :

يا دهر أفٍ لك من خليل
كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحبٍ وطالب قتيل
والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل
وكلُّ حيٍ سالك سبيل

وقد أخبر عمته زينب بما سمعه ، فجاءت إلى أخيها تصيح :

« واثكلاه ليت الموت أعدمني الحياة[1] » .

---

(١) مقاتل الطالبيين لأبي الفرج ص٤٥ وكامل إبن الأثير ج٤ ص٢٤ ومقتل الخوارزمي ج١ ص٢٣٨

وبكت النسوة معها فقال لهن الحسين :

« ياأختاه ، ياأم كلثوم ، يافاطمة ، يارباب ، انظرن إذا قُتلت فلا تشققن عليّ جيباً ولا تخمشن وجهاً ولا تقلن هجرا[1] » .

ثم أوصى عليه السلام أخته زينب بأخذ الأحكام من إبنه علياً وإلقائها إلى الشيعة ستراً عليه .

وفي السَّحَر من تلك الليلة خفق الحسين ثم استيقظ وأخبر أصحابه بأنه رأى في منامه كلاباً شدَّت عليه تنهشه ، وأشدها عليه كلب أبقع ، وأن الذي يتولّى قتله من هؤلاء رجل أبرص .

وقد صدق حدسه « ع » إذ ما أن رأى شمراً الأبرص حتى قال :

« هو الذي يتولّى قتلي » .

وصف إبن رسته في الأعلاق النفيسة شمراً بقوله : **كان الشمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين أبرص** . وفي كامل إبن الأثير ، ذكر **أن الشمر أبرص يرى بياض برصه على كشحه** . وفي عجالة المبتدي في النسب للحافظ الهمداني ، ذكر : **أن شمراً إسمه « شور بن ذي الجوشن »** ، ولأبيه صحبة ورواية روى عنه ابنه شور .

وكان الحسين « ع » يُحدِّث أصحابه في كربلاء بما قاله جده **« ص »** فكان يقول : **« كأني أنظر إلى كلب أبقع يَلِغ في دماء أهل بيتي » .**

---

(١) الإرشاد

مقتل الحسين

قام الشهيد الحسين «ع» في صبيحة اليوم العاشر فصلّى بأصحابه صلاة الصبح، ثم قام بهم خطيباً فقال:

« إن الله تعالى أذن في قتلكم وقتلي في هذا اليوم فعليكم بالصبر والقتال [1] ».

وأحاطته جيوش عمر بن سعد. فلما رأى «ع» كثرتهم رفع يديه إلى السماء وقال:

« أللَّهم أنت ثقتي في كل كرب ورجائي في كل شدة وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة [2] ».

ثم ارتحل راحلته وخطب في الجيش خطبته الأولى، فلم يسمع مُتكلم قبله ولا بعده أبلغ منه في منطقه، حذَّرهم فيها من أنهم زحفوا إلى ذرية الرسول وعِترته

---

(١) ابن قولويه والمسعودي، وإثبات الوصية ص ١٣٩.

(٢) كامل ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥ وتاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٢٣٣

يريدون قتلهم .

ثم طلب منهم أن ينسبوه من هو . . . ويرجعوا إلى أنفسهم يعاتبونها وينظرون ، هل يحل لهم قتله وانتهاك حرمته . . . !.

وذكَّر بعضهم بالكتب التي أرسلوها إليه يخبرونه بها بأن الثمار أينعت ، والجند مجندة .

ولما أنكروا ، طلب منهم أن يدعوه ينصرف عنهم إلى مأمن في الأرض . . . فقالوا له : « **أَوَلاَ تنزل على حكم بني عمك ؟** » .

فــرد الحسين :

« **والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أفر فرار العبيد** [1] » .

ثم دارت مساجلات كلامية بين أصحاب الحسين وجند ابن سعد ، أنهاها أبو عبد الله بنشر مصحف فوق رأسه وإلقاء خطبته الثانية [2] ، التي أوضح لهم فيها كيف خذلوه بعد أن استصرخوه ، وكيف يؤثر مصارع الكرام على طاعة اللئام ، وأنشد شعراً [3] حذَّرهم بعده من مغبَّة آخرتهم ، ثم رفع يديه نحو السماء ودعا الله أن يحبس عنهم قطر السماء ، وينتقم منهم قتلة بقتلة وضربة بضربة ، ويبعث عليهم سنين كسني يوسف ، ويُسلِّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبَّرة .

وتحدث « ع » مع ابن سعد كلاماً مؤنباً ، ولما سمع الحر كلامه ضرب جواده

---

(١) راجع ابن نما في مثير الأحزان ص ٢٦ .

(٢) تذكرة الخواص ص ١٤٣

(٣) أبيات فروة بن مسيك المرادي : فإن نهزم فهزامون قدما وإن نُهزم فغير مهزمينا .

وانضم إليه تائباً ، ثم ما لبث أن استأذن الحسين بإسداء نصيحة لأهل الكوفة ، فأذن له .

ومع السهام الأولى التي بدأت تتساقط هتف الحسين :

« قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لابد منه ، فإن هذه السهام رسل القوم إليكم [1] » .

وبدأت المعارك تتوالى . . سهام متراشقة ، ومبارزات بين إثنين وأربعة ، ولما رأى الحسين كثرة القتلى من أصحابه ، صاح وهو يقبض على شيبته المقدسة صيحته الداوية في عمر الدهور : « **أما مِن مغيث يغيثنا . . أما من ناصر يعيننا . . أما من طالب حق ينصرنا . . ؟** [2] » .

وسمع الأنصاريان سعد بن الحارث وأخوه أبو الحتوف استغاثة الحسين ، فمالا بسيفهما على أعدائه يعملان بهم القتل حتى قُتلا .

ولما استشهد الحر الرياحي ، قام الحسين إلى الصلاة ، ولما فرغ قال لأصحابه :

« يا كرام هذه الجنة قد فتحت أبوابها واتصلت أنهارها وأينعت ثمارها ، وهذا رسول الله والشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله [3] يتوقَّعون قدومكم ، فحاموا عن دين الله ودين نبيه وذُبُّوا عن حرم رسول الله » .

واشتد القتال ثانية ، وتساقط أصحاب الحسين أمام عينيه

---

(١) اللهوف ص ٥٦

(٢) نفسه ص ٥٧

(٣) الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يُقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا . الآية ٧٦ سورة النساء .

الحزينتين ، وكان « ع » ينحني فوقهم ويقبِّلهم ويبكي لهم ، ويأذن للأحياء منهم بالقتال . وكانت الأهوال التي تعرض أمام عينيه من الفظاعة بحيث لا يقوى على معاينتها إلا عظام الرجال ، وقد كتب على سيد الشهداء أن يظل واقفاً حتى آخر رجل ، يرى بعينيه ويعيش بوجدانه وقلبه هذه المآسي المهولة التي أنزلتها السماء في هذا اليوم العاشر من محرم .

أهـل البيـت فـي الميـدان

ولما لم يبق من أصحابه أحد بقتل سويد بن عمرو ، عزم أهل بيت الحسين النزول إلى ميدان الشهادة ، وكان أولهم علي الأكبر . ولما رآه والده في فكِّ الحتوف رفع رأسه إلى السماء وقال :

« أللّهم اشهد على هؤلاء فقد برز إليهم أشبه الناس برسولك محمد خلقاً وخُلُقاً ومنطقا [1] » .

ولما قطعته السيوف ، أنحنى الحسين فوقه واضعاً خده على خده وهو يقول :

« على الدنيا بعدك العفا ، ما أجرأهم على الرحم وعلى انتهاك حرمة الرسول (٢) » .

وتوالى بعد علي الأكبر ضراغمة أهل البيت ، فقتل عبد الله إبن مسلم بطعنة في

---

(١) مثير الأحزان لابن نما واللهوف ومقتل الخوارزمي .

(٢) اللهوف ص ٦٤ وتاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٦٥

قلبه ، فحمل آل أبي طالب حملة واحدة على أعدائهم .

ولما سقط العباس « ع » عاد الحسين إلى المخيم كسيراً يكفكف دموعه ، فنادى : « **أما من مغيث يغيثنا . . أما من مجير يجيرنا . . أما من ذابٍّ عن حرم رسول الله . . ؟** [1] » . **ولما استفسرت الحرائر عن القتيل ، صاحت زينب « ع » : « وأخاه واعباساه واضيعتنا بعدك »** .

سيد الشهـداء فـي الميـدان

بموت العباس « ع » ظل الحسين « ع » وحيداً في الميدان بين أهله وأصحابه المجزرين كالأضاحي المذبوحة المشوهة ، فعلا بكاؤه على هؤلاء الأبرار الذين ماتوا دون مبدأهم وعقيدتهم .

وكانت أصوات النساء ترتفع بالعويل فترددها تلك الأنحاء القفر كرجع صدى لظلم الإنسان ، وجبروته الشيطاني ، وتبعث في الجسد قشعريرة ، وفي النفس أسى لا يُحد .

في هذا الجو الصعب كان الحسين « ع » يقف ويتطلع تارة إلى الجيوش المهاجمة ، وتارة إلى أرض المعركة حيث الأشلاء ، وتارة أخرى إلى خيم الأيامى والأطفال . ولفت نظره خروج السجاد « ع » بتوكأ على عصا ويجر سيفه لكثرة مرضه ، فصاح الحسين بأم كلثوم كي تحبسه لئلا تخلو الأرض من نسل آل محمد .

---

(١) راجع المنتخب ص ٣١٢

ثم ودع « ع » عياله وطلب ثوباً لا يرغب فيه أحد ، ودعا بولده الرضيع يودعه . . . فجيء به ، فحمله وأتى به نحو القوم يطلب له الماء [1].

إلا أن الخسة المستوطنة في جند عبيد الله ، دفعت بحرملة بن كاهل الأسدي لأن يرمي الرضيع الصغير بسهم فيذبحه في الحال ، فتلقى الحسين دمه بكفه ورمى به نحو السماء ، فلم تسقط منه قطرة واحدة . وسمع « ع » قائلا يقول : « **دعه يا حسين فإن له مرضعاً في الجنة** [2] » .

ودفنه مرملاً بدمه ، وارتد على القوم مصلتاً سيفه فقتل كثيراً ، فصاح عمر بن سعد حيث انطلقت بعد صيحته أربعة آلاف نبلة ناحية الحسين .

واشتد القتال واشتد بالحسين العطش فحمل من نحو الفرات على عمرو ابن الحجاج وكان في أربعة آلاف مقاتل ، فكشفهم عن الماء واقتحم الفرس اليها ، فأبت الفرس الشرب ، ولما مد الحسين يده ليشرب ناداه رجل : « **أتلتذ بالماء وقد هتكت حرمتك . . . ؟** » فرمى الماء وقفل عائداً إلى الخيمة [3] .

---

(١) يصف الفيلسوف الألماني « ماربين » حمل الحسين لطفله الرضيع ، وصفاً رائعاً فيقول :

« أتى الحسين في آخر ساعات حياته عملاً حيّر عقول الفلاسفة ، ولم يصرف نظره عن ذلك المقصد العالي مع تلك المصائب المحزنة والهموم المتراكمة وكثرة العطش والجراحات ،وهو قصة عبد الله الرضيع » فلما كان الحسين يعلم أن بني أمية لا يرحمون له صغيرا . . . رفع طفله الصغير تعظيماً للمصيبة على يده أمام القوم ، وطلب منهم الماء له ، فلم يجيبوه إلا بالسهم ويغلب على الظن أن غرض الحسين من هذا العمل تفهيم العالم بشدة عداوة بني أمية لبني هاشم ، ولأ يظن أحد أن يزيد كان مجبوراً على تلك الأعمال المفجعة لأجل الدفاع عن نفسه ، لان قتل الطفل الرضيع في تلك الحال بتلك الكيفية ، ليس هو إلا توحش وعداوة سَبْعِيَّة منافية لقواعد كل دين وشريعة . وهذه كانت كافية لافتضاحهم واتهامهم بالسعي بعصبية جاهلية إلى إبادة آل محمد وجعلهم أيدي سبأ .

(٢) تذكرة الخواص ص ١٤٤ ، والقمقام لميرزا فرهاد ص ٣٨٥ ، وتهذيب الأسماء للنووي ج ١ ص ١٠٢ ، وشرح المواهب اللدنية للزرقاني ج ٣ ص ٢١٤ .

(٣) البحار ج ١٠ ص ٢٠٤ ، ومقتل العوالم ص ٣٨ ، ونفس المهموم ص ١٨٨ ، والخصائص الحسينية ص ٤٦ .

وفي الخيمة ودع الشهيد أهله ثانية ، واغتنمها ابن سعد فرصة فأمر رجاله بالشد عليه طالما هو مشغول بأهله ، فتصدى لهم « ع » واتقى السهام بصدره .

وعطش ، فطلب الماء ، فأبى عليه الشمرّ ذلك ، ورماه أبو الحتوف الجعفي بسهم في جبهته ، ورماه رجل بحجر على جبهته ، فأخذ ثوبه يريد مسح الدم ، فرماه آخر بسهم ذي ثلاث شعب وقع على قلبه فقال « ع » :

« بسم الله وبالله وعلى مِلّة رسول الله ، إلهي أنك تعلم أنهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض إبن بنت نبي غيري » .

ثم أخذ من دمه الذي كان يشخب كالميزاب ولطّخ به رأسه ووجهه ولحيته وقال :

« هكذا أكون حتى ألقى الله وجدي رسوله « ص » وأنا مُخضب بدمي وأقول : ياجد قتلني فلان وفلان [1] » .

وأعياه النزف ، فجلس يستريح ، فانتهى إليه مالك بن النسر فشتمه ، وضربه بالسيف على رأسه .

وانطرح « ع » على الأرض منهوكاً ، ولم يكن أحد يجسر على قتله وهو في هذه الحال ، فصاح الشمر بهم :

« ما وقوفكم والرجل اثخنته السهام والرماح [2] . . ؟ » .

وهجموا كالضباع المفترسة ، فضربه زرعة بن شريك على كتفه ، ورماه

---

(١) مقتل الخوارزمي ج ٢ ص ٣٤ واللهوف ص ٧٠ .

(٢) مناقب ابن شهراشوب ج٢ ص ٢٢٢ ومقتل الخوارزمي ص ٣٥

الحصين في حلقه ، وضربه آخر على عاتقه ، وطعنه سنان بن أنس في ترقوته ، ورماه بسهم في نحره ، وطعنه صالح بن وهب في جنبه [1] .

وطلب أن يسقى ماء ، فبخلوا عليه بشربة . ولما اشتدبه الحال رفع طرفه إلى السماء وراح في دعاء أخير قال فيه :

« أللهم أحكم بيننا وبين قومنا فإنهم خذلونا وغدروا بنا وقتلونا ونحن عترة نبيك [2] » .

ولما سقط وعاد الفرس إلى الخيمة ، ونظرنه النساء مخزياً والسرج عليه ملويا ، خرجن من الخدور ناشرات الشعور يلطمن وجوههن ، ونادت أم كلثوم زينب العقيلة :

« وامحمداه وأبتاه واعلياه واجعفراه واحمزتاه ، هذا حسين بالعراء صريع كربلاء » .

ووصلت إلى الحسين وقد دنا منه عمر بن سعد ، فصاحت به : **« أيْ عمر أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر اليه . . . ؟ »** فصرف بوجهه عنها وهو يبكي .

ثم صاح برجاله : **« أنزلوا إليه وأريحوه »** ، فبدر له شمر ورفسه برجله وجلس على صدره ممسكاً بيده على شيبته المقدسة ، وضربه بالسيف اثنتي عشرة ضربة ، واحتز بعدها رأسه المقدس [3]

إن في ايراد وصف الحادثة كاملة في هذا المقام من كتابنا المكرس للتحليل

---

(١) راجع الأتحاف بحب الأشراف ص ١٦

(٢) مصباح المتهجد والاقبال وعنهما في مزار البحار ص ١٠٧ نقلاً عن المقتل للمقرم .

(٣) مقتل العوالم ص ١٠٠ ومقتل الخوارزمي ج ٢ ص ٣٦

والمقارنة ، لأمر ضروري لاكتمال سورة الهمجية واللا إنسانية التي واجهها الحسين الشهيد في لحظاته الاخيرة ، والتي تشكل لوحدها فصولاً ملحمية تحمل شحنات درامية لا تقوى أقسى القلوب على احتمال مؤثراتها ، فكيف بأرقها تلك المُحِبَّة للشهيد المظلوم ، المذبوح بوحشية لم يسجل لها التاريخ شبيها . . . !.

فقد ذكر أبو مخنف في مقتله ص ٩٠ واصفاً هذه اللحظات الدموية الأخيرة من عمر سبط النبي بقوله :

وبقي الحسين « ع » مكبوباً على الأرض ملطخاً بدمه ثلاث ساعات وهو يقول : **صبراً على قضائك ، لا إله سواك ، ياغياث المستغيثين** . فابتدر إليه أربعون رجلاً كل منهم يريد حزَّ نحره الشريف . وعمر بن سعد يقول : **ويلكم عجِّلوا عليه** .

وكان أول من ابتدر إليه « **شبث بن ربعي** » وبيده السيف ، فدنا منه ليحتز رأسه ، فرمق الحسين « ع » بطرفه ، رمى بعدها السيف من يده وولّى هارباً وهو يقول :

« ويحك يابن سعد ، تريد أن تكون بريئاً من قتل الحسين وإهراق دمه ، وأكون أنا مُطالب به ، معاذ الله أن ألقى الله بدمك ياحسين » .

فأقبل « **سنان بن أنس** » وقال : ثكلتك أمك وعدموك قومك لو رجعت عن قتله، فقال شبث : **يا ويلك إنه فتح عينيه في وجهي فأشبهتا عيني رسول الله « ص »فاستحييت أن أقتل شبيهاً لرسول الله** فقال له : **ياويلك أعطني السيف فأنا أحق منك بقتله** ، فأخذ السيف وهمَّ أن يعلو رأسه ، فنظر إليه الحسين « ع » فارتعد ، وسقط السيف من يده وولّى هارباً ، وهو يقول : **معاذ الله أن ألقى الله بدمك ياحسين** .

فأقبل عليه « شمر » وقال : ثكلتك أمك ما أرجعك عن قتله ؟ فقال : ياويلك إنه فتح في وجهي عينيه ، فذكرت شجاعة أبيه ، فذُهلت عن قتله .

فقال الشمر : يا ويلك إنك لجبان في الحرب ، هلم إليَّ بالسيف فوالله ما أحد أحق مني بدم الحسين ، إني لأقتله سواء شبه المصطفى أو علي المرتضى . فأخذ السيف من يد سنان وركب صدر الحسين « ع » فلم يرهب منه ، وقال : لا تظن أني كمن أتاك ، فلست أرد عن قتلك ياحسين . فقال له الحسين « ع » : من أنت ويلك فلقد ارتقيت مرتقىً صعباً طالما قبله النبي « ص » . فقال له : أنا الشمر الضبابي . فقال الحسين « ع » أما تعرفني ؟ فقال ولد الزنا : بلى أنت الحسين وأبوك المرتضى وأمك الزهراء وجدُّك المصطفى وجدَّتك خديجة الكبرى . فقال له : ويحك إذ عرفتني فلم تقتلني ! فقال له : أطلب بقتلك الجائزة من يزيد . فقال له الحسين : أيما أحب إليك . . شفاعة جدي رسول الله أم جائزة يزيد . . ؟ فقال : دانقٌ من جائزة يزيد أحب إلي منك ومن شفاعة جدك وأبيك . فقال له الحسين : إذا كان لابد من قتلي فاسقني شربة من الماء .

فقال : هيهات هيهات ، والله ماتذوق الماء أو تذوق الموت غصة بعد غصة وجرعة بعد جرعة . ثم قال : يابن أبي تراب ألست تزعم أن أباك على الحوض يسقي من أحب ، أصبر قليلاً حتى يسقيك أبوك . ثم قال : والله لأذبحنَّك من القفا . . . ثم أكبَّه على وجهه الشريف وجعل يحز أوداجه بالسيف ، وكلما قطع منه عضواً، نادى الحسين « ع » :

« وامحمداه واعلياه واحسناه واجعفراه واحمزتاه واعقيلاه واعباساه واقتيلاه واقلة ناصراه واغربتاه .

فاحتز الشمر رأسه الشريف ، وعلاه على قناة طويلة . فكبّر العسكر ثلاث تكبيرات .

ولم يكتف هذا الرهط الشيطاني بما فعل ، بل تكالبوا على الجسد المدمى المفصول الرأس ، يسلبونه سترته ، حيث لم يتورعوا عن قطع إصبعه ويده اليمنى من أجل خاتم وتكة سروال .

ونظرت سِبط محمد في كربلاء
فرداً يعاني حزنه المكظوما

تنحو اضالعه سيوف أمية
فتراهم الصمصوم فالصمصوما

فالجسم أضحى في الصعيد موزعاً
والرأس أمسى في الصعاد كريما (١)

وحرَّكت مطامع الري والديلم رجسَ ابن سعد الكامن في صدره ، فنادى : « **ألا من ينتدب إلى الحسين فيوطىء الخيل صدره وظهره . . . ؟** » .

وتنادى له عشرة لا يقلُّون عنه ضِعَةً ومَوات ضمير ، فداسوا بخيولهم جسد الحسين الطاهر ، صدراً وظهراً حتى الصقوه بالأرض .

وبعد أن انتهوا من مهمتهم الشائنة أقبلوا على ابن زياد يتقدمهم أسيد ابن مالك يرتجز شعراً يتباهى بما اقترفته يداه :

---

(١) أبيات من مرثية في الحسين لديك الجن

نحن رضضنا الصدر بعد الظهر
بكل يعبوب [1] شديد الأسر

فأمر لهم بجوائز كلٌ على قدر ما أظهر من خسَّة في جريمته النكراء.

وقد ذكر البيروني أن ما فعلته هذه الطغمة بوطئها الخيل جسد الحسين، ما لم يفعل في جميع الأمم بأشرار الخلق، من القتل بالسيف والرمح والحجارة وإجراء الخيول:

وجرى وصف هذه الفعلة شعراً على لسان أبي ذيب شيخ القطيني المتوفي عام ١٢٠٠ هـ فقال:

فليت أكفاً حاربتك تقطعت
وأرجل بغي جاولتك جذام

وخيلاً غدت تردى عليك جوارياً
عقرن فلا يلوى لهن لجام

ورضت قراك الخيل من بعد ما غدت
أولو الخيل صرعى منك فهي رمام

أصبت فلا يوم المسرات نير
ولا قمر في ليلهن تمام

***

---

(١) اليعبوب: الفرس السريع الطويل.

وهكذا استشهد الحسين ، وهكذا قتل
إستشهد راضياً مرضيًّا
معمِّداً شهادته بالدم الزكي
فادياً عقيدة جده
رافعاً راية ثورة بلون الدم
ثورة كل مظلوم . . ضد كل ظالم
لم يخرج أَشراً ولا بَطِراً ولا مُفسدا
بل طالباً الإصلاح في أمة الرسول
صاح في وجه المستأثرين بالفيء : أنِ ارعووا
عمل بالقول والفعل أمام ناكثي عهد الله
نصح مظهري الفساد ومعطِّلي الحدود
قال لهم : أنسبوني من أنا . .
هل يحقُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي . . . ؟
لكن الضمائر التي ماتت
والأطماع التي عصفت بالعقول
أصمَّت الآذان . . وأعمت البصائر
فتكالبوا على ريحانة الرسول
كبواشق كاسرة
أحدهم يحلم بالمال
وآخر بملك الريِّ والدَّيْلم
والباقون باعوا أنفسهم للشيطان
سيف الحق ما ارتفع إلا بذراع الحسين
شعار العدل لم يُسمع إلا من فم أبي عبد الله

كلمة الإنصاف ما لفظتها إلا شفتا سيد الشهداء
الموت دون العقيدة محط هواه
الذود عن الإسلام مهوى فؤاده
إيقاظ ضمير المسلم هدف نهضته
إحقاق الحق مرمى ثورته
وقف التحريف والزيف مبدأه
توليد إسلام جديد رسالته
الإستشهاد في سبيل الله قدره
ما كانت له عقلية كسرى
ولا كانت له نفسية سلطان
ما فكر كإمبراطور
ولا عمل كفرعون
ما غرَّته مطامع ملك
ولا رفَّت جفنه الدنيويات
كان يصبو إلى العُلا
حيث مثوى الشهداء والاخيار
وكان يعرف بأنه قتيل وذبيح ومُهان
فتقدم
السر الإلَهي رسم خطواته
وحكمة الرب كتبت مصيره
وجعلته مثالياً أوحد
لم تنجب مثيله كل الأديان
كان نسراً أُعطي وسائل بشرية

وكان شهيداً لا نبيًّا
أخذ من الأنبياء آلامهم وعذاباتهم
ولم يوهب مثل نبوَّتهم
فكانت وسائله أرضية
ما استعان بعدد وعدة
في سبيل ثورته
فثورته فريدة بوسائلها
لم تكن ثورة العضلات والسيف
بل ثورة الروح والضمير والفكر
خلَّدتها الأزمان
وقدَّستها الدهور
ونزهتها تكريماً الأجيال
هي ثورة لا تزال مدوِّية
تُرجع صداها كلُّ الأكوان
توصل هتافها كلُّ الأزمان
تُبرز نبلها كلُّ الأنفس
هي رمز لقبول الحق
نهضة لي ولك ولكم
وله ولها ولهم
طالما كرهنا الظلم وعشقنا الحق
طالما نبذنا الانحراف
وأحببنا الصراط المستقيم
هي ثورة لي ولك

طالما نحن مؤمنون
سَكَنها في قلبيْنا
لا تبرد أبــدا
طالما في حنايانا رحمة
وبين أضلعنا إيمان
فإذا تعاملنا بالعدل
فنحن حسينيون
وإذا حافظنا على عقيدتنا
فنحن جندٌ في ثورته
وإذا دفعنا ظلماً عن أحد
فنحن كمسلم بن عقيل
وإذا رفضنا ظلماً على أحد
فنحن كقيس بن الصيداوي
وإذا ذدنا المتصدِّين للعبث
نكون كسعد وأبي الحتوف الحارث
وإذا تُبنا عن غيِّنا
فنحن كالحُرِّ الرياحي
فلنسأل أنفسنا إذا كنا مؤمنين . . ؟
وهل تصلنا صيحة سيد الشهداء . .
هل نُصغي لاستغاثته . .
هل نُبصر رايته المرفوعة أبدا
أما عصفت بنا يوماً نعرة يزيدية . .
أما كنا عمر بن سعد في لحظة ماَ . .

أما تشابهنا مع ابن زياد في موقف . .
أما فعلنا كالشمّر في مسيرة دنيانا . .
أما قرّبنا شيء إلى حرملة الأسدي . .
أما شعرنا بدنوٍّ من الحصين بن نمير . .
أما رمينا الحسين بسهمٍ قط . .
كما فعل أبو الحتوف الجَعفي
أما ضربناه بسيف كمالك بن النسر . .
أما كنا أبداً كزرعة بن شريك . .
أو سنان بن أنس
أو صالح بن وهب
أو ابن حويه . . ؟
كيف لا ونحن نصبر على ظالم . .
ونرضى بالظلم على مستضعف . .
ونبيع آخرتنا بدنيانا . .
ونسلم تسليم الذليل . .
ونفر فرار العبيد . .
فلمَ قام الحسين بثورته . . ؟
أَنظل هكـذا . .
التدجين يأكل نخوتنا . .
والزيف يغلِّف حياتنا . .
والأطماع تلوِّن أخلاقنا . .
لمَ ذبح الحسين في فلاة كربلاء . . !
أ لأجل أن نظل كما كنا . .

نُسام العسف . فنسكت . .
وننام على الضيم . فنحلم . .
من أجل كل هذا
وطىء الخيل صدره وظهره . . ؟
أمن أجل أن نكون كما نحن . .
رُفع رأسه على رمح . . ؟
أمن أجل نومتنا نهض . .
أمن أجل خنوعنا ثار . .
أمن أجل قعودنا تحرك . .
أمن أجل فرارنا تقدم . . !
لعكس كل ذلك فعل ما فعل
فلننهــــض
ولنتحــــرك
ولنثر على الظلم
ولنقتلع من أجسادنا أشواك الضيم
ولنا في ثورة سيد الشهداء نبر اس
وفي شعاراتها هديٌ ودفعٌ
وفي عنفوانها حماسة وإباء
ولنردد مع معلم الثوار :
« الموت أولى من ركوب العار
والعار أولى من دخول النار »
ولننصره إذا استصرخنا
كما نَصَرنا حينما استصرخناه

ولا ننسَ أنَّا خذلناه
في تذكُّرنا عبرة وتقريع
يُعيد صور تقصيرنا
وعُشقنا لذواتنا وأطماعها
وبعدنا عن الدرب الصحيح
وضلالنا في أثمن ما نملك .
فإن فعلنا كما أمرنا الحسين
وإن مشينا خلف ريحانة الرسول
ضَمنَّا راحة القلب
ورضى الخالق الرحوم
فلنمض إلى الجهاد
إلى أن ينقرض نسل يزيد
ولنُنزل رأس الحسين من على سن الرمح
ولنستشهد كل يوم في كربلاء ذواتنا
فما بالموت عار على الفتى
إذا خالف مثبوراً وفارق مجرما
فإذا عشنا لم نندم
وإن متنا لم نُلم
فالحسين ليس مرحلة فحسب . .
بل مسيـــرة
وليس وسيلـة . .
بـلَ غَايـة
وليس أسلوبـا . .

بـل نتيجة
وليس تظاهرة . . . بلَ مبدأ أزليا
فسلام على سِبط محمد
سلام عليه يوم ولد
ويوم مات
ويوم يبعث حيا
سلام عليه
نبراساً لنا وموَئلا
وقُدوة وملاذاً أخيرا
في رحلة أحزاننا
من المهـد إلـى اللحــد .

الفصل الثالث

الجريرة التي أسقطت أُميّة

ليس ثمّة من سبب لسقوط عرش أمية إلا واتصل بجريرة كربلاء . وليس أقل تبصراً لدى بحث أسباب سقوط أمية ، من رده إلى عوامل أخرى ، تبعُد أو تقرُب من كربلاء ، حتى في أخذ المؤرخين لهذه العوامل بالتسجيل أو التحليل ، يأخذونها على أنها عوامل منفصلة بحد ذاتها ، لها خصائصها الكاملة التي إذا اجتمعت شكّلت عاملاً وسبباً لما جرى .

ولكن المدقق البصير لهذه العوامل التي تبدو للعيان متباعدة لا تمت لبعضها بصلة ، يجد أن ثمة خيطاً رفيعاً غير منظور يربط بعضها إلى بعض ، ويشدُّها لتكون في النهاية سلسلة واحدة متعددة الحلقات ، لكل حلقة خصائصها المميزة ، التي لا تنفلت عن الأخرى ، بل ترتبط إليها برابط موضوعي من لُحمة واحدة .

وردُّ أسباب سقوط أمية إلى عوامل تبعد عن جرائر كربلاء ، لهو إغماط لقدسية هذه الملحمة ، وكُفرٌ بيِّن لتَعلاَّت العناية الإلهية ، وإلغاء عمدي لكلِّ الشهادات التي سبقتها ، وعدم إيمان بنبوءات الرسل والأوصياء .

وسنعرض بالتفصيل للآراء التي تصدَّت لتحليل أسباب سقوط العرش الأموي ، ولكن قبل أن نخوض في هذه الآراء ، سنذكر لكل من سبق واطلع عليها ، بأن إحدى معجزات استشهاد الحسين ، كان سقوط أمية ، وهي معجزة زمنية لم تكن هدفاً بحد ذاتها لشهادة الحسين ، بل لحقت فيما لحقت به من معجزات أكبر منها . . ففي ميزان الإعجاز ، أيها أعظم أثراً . . المعجزة التي حقَّقتها هذه الشهادة في ضمير الأمة الإسلامية . . أم معجزة سقوط أمية . . ؟ طبعاً الجواب سيدور حول عظمة المعجزة الأولى ، فهي الأصل الذي هدفت له ملحمة كربلاء ، أما المعجزتان اللتان تقدمتها إحداهما ولحقت بها الأخرى – غضب الطبيعة والأفلاك والجن بعد المقتل مباشرة ، وسقوط أمية بعد عدد من السنين – فهما معجزتان كان لابد من حدوثهما تأثُّراً مُسبقاً أو لاحقاً بالمعجزة العظيمة التي كان مسرحها الضمائر والأفكار لمجموع أمة الإسلام .

وهنا لابد من طرح إجابة على سؤال من الممكن أن يجول في الأذهان ، وهو سؤال ذو ثلاث نقاط :

١ – لماذا هزم الحسين عسكرياً . . ؟
٢ – لماذا تأخر سقوط أمية . . ؟
٣ – لماذا ثار الحسين في عهد يزيد بالذات . . ؟.

للإجابة على السؤال الأول ، لابد من النظر بعين الاعتبار إلى كون هزيمة الحسين ما كانت لتتم على عهد يزيد ، إلا لأن هذا العهد كان الظرف المناسب لإظهار تناقضات السلطة الممثَّلة بيزيد كخليفة على المسلمين ، يُزاحم آل البيت حقَّهم في هذه الخلافة ، ولو شاءت العناية الإلهية لأنفذت لمهمة الاستشهاد حسيناً في غير هذا العهد ، فيما سبقه أو لحقه من عهود ، ولكانت أمدته بقوى أسعفته في حينه ، فينتصر ولا يستشهد ، ويسجل التاريخ نصره إلى جانب الانتصارات العسكرية التي تحفل

بها صفحاته الكثيرة .

أما لماذا تأخر سقوط أمية بعد استشهاد الحسين ، ما دامت عوامل هذا السقوط تكوَّنت بإعجاز من هذا الاستشهاد ؟ فذلك لسرٍّ آخر أعدته الحكمة العُلوية لكي تطول فترة الندم ، وتتفاعل عوامل النهوض في ضمير الأمة الإسلامية ، حتى إذا ما هبَّت ، هبَّت كبركان إختزن سخونته طويلاً فكانت ثورته حتى عنان السماء .

وكما هو معروف في علم الطبيعة ، أن كل ما يحصر دون متنفس تزداد قوة انفجاره ، وهذا ما ينسحب على علم النفس ، إذ أن هذا الموضوع يشكل عنصراً مهماً في عيادات طب النفس ، حيث يعرف بالكبت أو الكمون النفسي الذي يتبعه انفجار ، إما أن يكون إيجابيا فيبني ، أو سلبياً فيهدم ، للهدم لا للبناء .

أما لماذا ثار الحسين في عهد يزيد بالذات . . ؟ ففي العودة إلى متن الكتاب إجابة عنه ، إذ أنه كان مقدَّراً أن تكون ثورة الشهيد وشهادته في هذا الوقت بالذات وفي هذا العهد بعينه ، لا من أجل إظهار عورات وسوءات العهد إياه فحسب ، بل من أجل جعله كمثال لسوءات كل العهود التي يضيع فيها الحق ، وترتفع خلالها رايات الباطل ، وما كان أجدر بعهد يزيد لتمثيل هذه العهود .

ولنعرض الآن لجملة آراء حول أسباب سقوط أمية ، المباشرة منها وغير المباشرة .

في كتاب أبو الشهداء للعقاد رأي يقول : إن مصرع الحسين هو الداء القاتل الذي سكن جثمان الدولة الأموية حتى قضى عليها .

وفي كتاب له عن معاوية ، يرد العقاد ضياع الدولة الأموية إلى النزاع بين المضرية واليمانية الذي ابتدأ منذ أيام مؤسس الدولة الأموية معاوية .

وللمسعودي رأي يقترب من هذا المعنى ، إذ يذكر أن التفاخر بين نزار « قيس » ، واليمن ، وتحرك العصبية في البدو والحضر ، أدى إلى انتقال الدولة

من بني أمية إلى بني هاشم .

ويرى المستشرق جولد تسهير ، أن عمر بن عبد العزيز أحد أمراء أمية الذين تربوا في بيئة صالحة ، والذي كان جاهلاً بالأمور السياسية عجَّل بسقوط العرش الأموي .

ويصف الحكيم ماربين إقدام يزيد على قتل الحسين ، بأعظم خطأ سياسي صدر من بني أمية فجعلهم نسياً منسياً ولم يبق منهم أثر ولا خبر .

ويرى بعض المؤرخين أن سقوط الدولة الأموية كان بفعل نشاط المعتزلة لإحلال العباسيين محلهم ، مما أدى بخلفاء العصر العباسي الأول للأخذ بمذهبهم كالمأمون والمعتصم والواثق ، وحاولوا جعله مذهباً رسمياً للدولة .

ونزع البعض إلى اعتبار مصرع الوليد بن يزيد ، إيذاناً بنهاية الدولة الأموية ، بعد أن انتشرت دعوة الخوارج في سورية مع غياب هيبة الخلافة بفعل خلفاء أمية .

فإذا نظرنا إلى هذه الآراء بتجرد ، لما وجدنا الأسباب التي اعتبرتها كعوامل رئيسية لسقوط أمية ، لتخرج عما اتصلت به أهداف ثورة الحسين . فعليه السلام قام يقف في وجه الانحراف الذي بدأ على عهد عثمان ووصل إلى عهد يزيد ، والذي استمر إلى آخر خليفة أموي ، بحيث لم تتغير الأرضية التي يرتكز عليها الحكم ، وبالتالي ظلَّت الخصائص هي ذاتها لم تتبدل بتبدُّلِ الوجوه ، وظلت الآفات تنخر في هيكل العرش الأموي ، بل ازدادت فاعليتها في أواخر هذا الحكم ، حينما أخذت الخلافة تنتقل بقوة السيف كما فعل يزيد الثالث ومروان الثاني ، واستفحلت العصبية القبلية حتى أصبحت مرقاة لكل طامح بالعرش .

ومما يؤكد رأينا بأن سقوط أمية كان نتاجاً خالصاً مائة في المائة من إعجاز كربلاء ، أن الدولة الأموية بعد أن جعل مروان الجعدي مركز خلافتها بعيداً في حران بجوار قيس ، ومحاولته إنشاء عاصمة جديدة في عزِّ مجدها الحربي ، وحتى عصر هشام سنة

١٢٥هـ حيث كانت الدولة متينة البنيان ، لم تصمد لأكثر من سبع سنوات بعد هذا التاريخ ، وسقطت سقوطاً غير متوقع ، جعل الدهشة هي القاسم المشترك لكل من خبر قوتها وعاين إعجاز سقوطها المريع .

وإذا لم تكن جريرة قتل الحسين وآل البيت هي السبب الرئيسي الذي قوَّض الدولة الأموية . . فأي جريرة أكبر من هذه الجريرة يمكن أن تتفاعل داخل المجتمعات الإسلامية وتسبِّب كل هذه الثورات التي تلتها . . والتي كان من نتيجتها أن نجحت أخيراً في اجتثاث النظام الذي ارتكبها ، والتي بسببها قُتل حفيد الرسول « ص » وآل بيته الأطهار .

فها هو معاوية الثاني يقول :

« أيها الناس إن جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق منه لقرابته من رسول الله « ص » وهو علي بن أبي طالب » .

وعندما يتفاعل الندم مع لوم النفس في نفس إبن القاتل . . أفلا يجدر تفاعله في نفس رجل الشارع الذي اعتبر نفسه مسؤولاً عن خذلان الشهيد إبن الشهيد وأبو الشهداء الحسين « ع » ، مقابل مغانم زالت وبقي له الندم وتبكيت الضمير . . ؟.

ولم يقف هذا التبكيت على رجل الشارع بل تعدَّاه إلى أفراد الأسرة الأموية غير معاوية الثاني ، فإذا بعبد الملك يكتب للحجاج :

« لا تعرض لمحمد ابن الحنفية ولا لأحد من أصحابه ، جنبني دماء آل أبي طالب ، فليس منها شفاء من الحرب » .

وهذا علي بن عبدالله بن عباس جد أبي العباس وأبي جعفر يقطعه بنو أمية قرية — الحميمة — في أقليم البلقاء بالأردن ، حيث أنزله بها الوليد بن عبد الملك .

ولم يقف حدود تبكيت الضمير عند فرد من بني أمية ، ولا عند حدود فعل واحد ، فها هو هشام بن عبد الملك بعد أن علم بمقتل زيد بن علي وولده يحيى ، حزن عليهما حزناً شديداً وردد : « **وددت أني كنت افتديتهما** » .

ويأتي مروان آخر خلفاء أمية ، ليمتنع عن شتم ولعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

وفي مواقف خلفاء بني أمية الذين اعتلوا العروش بعد ثورة الحسين ، دِلالة كافية على أنهم بمواقفهم هذه ، كانوا يقدمون على فعل مسبق لما كانوا يحدسون تفجُّره بين يوم وآخر ، بدوام تذكُّر الناس مأساة آل البيت . لهذا قال عبدالملك : « **جنِّبني دماء آل أبي طالب** » ، ولأجله امتنع مروان عن لعن أمير المؤمنين ، وبسببه تنصَّل معاوية الثاني من فعلة جدِّه معاوية وأبيه يزيد .

حتى يزيد نفسه لما رأى حزن أهل بيته على قتل الحسين[1] ، وسمع تقديسه مع أولاد علي وعظمتهم ومظلوميتهم بين الناس ، صمت وأراد تبرئة نفسه مما جنت يداه بإلقاء المسؤولية على عماله ، وقد سمع ذات يوم يقول : « **إن سلطنة الحسين كانت أهون علي من هذا المقام العالي الذي فاز به آل علي وبنو هاشم** » .

وها هو يحيى بن الحكم يقول لبني أمية لما بلغه قتل الحسين : « **حجبتم عن محمد « ص » يوم القيامة ، لن أجامعكم على أمر أبدا** » .

ورد ذكر هذه الحوادث وما يليها في كتاب « **رأس الحسين** » لابن تيمية[2] ،

---

(١) لما رأت زوجة يزيد هند بنت عمرو بن سهيل ، الرأس المصلوب على باب دارها ، وشاهدت الدم الطري يتقطر منه ، عظُم المصاب في قلبها فدخلت على يزيد في مجلسه سافرة الحجاب وهي تصيح : « رأس ابن بنت رسول الله مصلوب على دارنا . . ؟ » فغطَّاها وقال لها : « أعولي على الحسين فإنه صريخة بني هاشم عجَّل عليه ابن زياد » .

(٢) « رأس الحسين » ط القاهرة ص ١٦١ وما بعدها .

وعلى الرغم من محاولة المؤرخ تبرئة يزيد ، إلا أنه يعود إلى ذكر ما قيل بما يتّفق وما تناقله الرواة بأسانيد قوية ، ويُعلِّق عليه بأنه اختلاق وبهتان ، وأن يزيد لم يعلم بقتل الحسين ، ولم يكن يريده ، ويُذكر عنه أنه أمر النعمان بن بشير أن يبعث مع السبايا إلى المدينة ، رجلاً أميناً معه رجال وخيل ، ويكون علي بن الحسين معهن . ثم أنزل النساء عند حريمه في دار الخلافة ، فاستقبلهن نساء آل معاوية بالبكاء والنواح على الحسين ، ثم أقمن للناحة ثلاثة أيام ، وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا ومعه علي بن الحسين وأخوه عمر ، فقال يزيد يوماً لعمر – وكان صغيراً جدا – : **أتقاتل هذا ؟** – وأشار إلى إبنه خالد بن يزيد – يريد بذلك ممازحته ، فقال عمر : **أعطني سكيناً وأعطه سكيناً حتى نتقاتل** . فأخذه يزيد وضمه إليه وقال : **شِنْشِنة أعرفها من خزم ، هل تلد الحية إلا حية ؟** .

ولما ودعهم قال لعلي بن الحسين :

« قبح الله ابن سمية [1] . أما والله لو أني صاحب أبيك ، ما سألني خصلة إلا أعطيته إياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي ، ولكن الله قضى ما رأيت »

ثم جهزّه وأعطاه مالاً كثيرا ، وكساهم وأوصى بهم رسولاً أميناً ، وقال له :

---

(١) ظن يزيد أنه بكلامه عن القبيح ابن سمية يبعد تهمة قتل الحسين عنه لإعماء عيون المسلمين عما اقترفه بحق سبط النبي وآل بيت النبوة . وقد رُوي عنه أنه قال بعد أن دمعت عيناه : « كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن سمية ، أما والله لو إني صاحبه لعفوت عنه » يقول هذا متناسياً عن عمد كتابه إلى واليه الوليد بن عتبة الذي أمره به أن يأخذ الحسين أخذاً شديداً ليس فيه رخصة ، وإن أبى فليضرب عنقه ويبعث إليه برأسه . لكن المسلمين لم ينسوا هذا كله . ولم يقتنعوا بحزن يزيد المصطنع الذي بدل أن يقتصّ من قاتلي الحسين بإعدامهم أو اقصائهم بأضعف الإيمان ، جزاهم وقرّبهم . وهذا ما فعله بابن زياد فلم يعزله ولا عاقبه ولا أرسل بعيب عليه . « رأس الحسين لابن تيمية ص ١٣٢ – ١٨١ » .

كاتبني بكل حاجة تكون لك .

ولما دخلت النساء عليه ، قالت فاطمة بنت الحسين – وكانت أكبر من سكينة :

يايزيد بنات رسول الله « ص » سبايا .

فقال :

يابنت أخي أنا لهذا كنت أكره

قالت :

والله ما تركونا إلا خرصا .

فقال :

إبنة أخي . . ما أتى إليك أعظم مما ذهب لك .

ثم أدخلهن داره وأرسل إلى كل امرأة منهن يستطلعهن عما فقدْنه ، فليس منهن إمرأة واحدة تدَّعي شيئاً بالغاً ما بلغ إلا أضعفه لها .

فهل بعد هذه الوقائع والتصرفات من مزيد لمن أبعد اسباب سقوط أمية عن فعل معجزة شهادة الحسين بكربلاء . . ؟ .

وكيف لا تصل الأمور إلى ما وصلت إليه بعدها ، عبر ما كان قبلها . . انطلاقاً من مسلَّمات اتصال أول الشيئ بآخره . . ؟ .

وما عذر أولئك الذين ابتعدوا عن جوهر الحقيقة ليَردوا سقوط عروش أمية إلى تعصب بني أمية للعرب ، بشكل أدى إلى تنمية الحقد في نفوس الموالي – المسلمون غير العرب ـ . . ؟ .

وأية حجة تبرِّر آراء بعض المحرفين الذين جردوا كربلاء من كل إعجاز مخالفين بذلك الحجج الإلهية ، وذاكرين أن الأطماع السياسية لفئة منظمة مستغلة إتخذت من مقتل الحسين ستاراً أشبه بقميص عثمان تلوح به لإزالة الدولة الأموية . . ؟ .

وسواء ردَّ بعض المؤرِّخين سقوط أمية إلى التفاخر بين قيس واليمن ، أم إلى مصرع الوليد بن يزيد ، أم إلى دعوة الخوارج ، أم إلى جهل عمر ابن عبد العزيز بأصول السياسة ، أم إلى أي سبب آخر . تظل خطيئة قتل الحسين التي اقترفها يزيد هي المؤشر الأوحد الذي بدأت منه بداية العد العكسي لسقوط الحكم الأموي ، إذ ظل المسلمون ينظرون إلى خلفاء أمية نظرتهم إلى مختلسين سرقوا الخلافة بوسائل القهر والإذلال ، وقتلة لعِترة النبي المقدسة التي راحت في سبيل رفع الظلم عن كاهل الأمة الإسلامية . وحفظ روحانيتها من العبث .

وكان المسلمون يسمعون قبل استشهاد الحسين على لسان الأخطل هذه الأبيات التي تصور لهم الإلهام السماوي الذي أوصل بني أمية إلى الحكم .

تـمَّت جـدودهـم والله فضـلـهـم
وجدُّ قوم سواهم خامل نكد

هم الذين أجاب الله دعوتهم
لما تلاقت نواصي الخيل واجتلدوا

ويوم صفين والأبصار خاشعة
أمدَّهم إذ دعوا من ربهم مدد

على الألى قتلوا عثمان مظلمة
لم ينههم نشد عنه وقد نشدوا

وبعد استشهاد الحسين ، صاروا يسمعون كل ما يصوِّر مثالب خلفاء أمية ، فقد قال عبيد الله بن الحر الجعفي واصفاً أمية :

يبيت النشاوي من أمية نوَّماً
وبالطف قتلى لا ينام حميمها

وما ضيع الإسلام إلا قبيلة
تأمر نوكاها ودام نعيمها

واضحت قناة الدين في كف ظالم
إذا اعوج منها جانب لا يقيمها

فاقسمت لا تنفك نفسي حزينة
وعيني تبكي لا يجف سجومها

حياتي أو تلقى أمية خزية
يذل لها حتى المات قرومها

فكانت هذه المعادلات الشعرية المتضادَّة سبباً في إيقاظ العقول الخاملة ، فقد حملت هذه الأشعار بعد المقتل ، روح الإحساس بالظلم الفادح من خلافة أمية ، وكشفت عن فهم تام لما كان ، وإلا ما آلت الأمور ، فكان أن بدأت مرحلة من الندم الجماعي تتفاعل بين أفراد المجتمع الإسلامي ، تُرجمت إلى مواقف وكلمات أظهرتها حالة المقت التي سادت في مختلف عهود بني أمية .

وإذا قالها قائل ، فذلك أهون الشرين ، أما إذا قالها خليفة أموي فلا معنى لها إلا تفسير « **وشهد شاهد من أهله** » . وهذه صورة للحكم الأموي كما صوَّره أحد خلفاء بني أمية ، إذ قال[1] :

فدع عنك أذكارك آل سعدي
فنحن الأكثرون حصى ومالا

ونحن المالكون الناس قسراً
نسومهم المذلة والنكالا

---

(١) هو الخليفة الوليد بن يزيد .

ونُوردهم حياض الخسف ذلاً
وما نألوهم إلا خبالا

فأي شاهد أبلغ من هذا على كل التساؤلات حول هوية الحكم الأموي . . ؟ وأي شهادة على تمزق الأسرة الأموية ، أدلّ من قولة العباس ابن الوليد لأخيه بشر حينما حرَّضه على خلع الوليد والبيعة ليزيد : « **يابني مروان إني اظن أن الله قد آذن في هلاككم** » . . ؟ وقوله شعرا :

إني أعيذكم بالله من فتن
مثل الجبال تسامى ثم تندفع

إن البرية قد ملّت سياستكم
فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

لا تبقرنَّ بأيديكم بطونكم
فثمَّ لا حسرة تغني ولا جزع

ومهما كانت المثالب التي آل إليها حكام بني أمية حتى اندثرت دولتهم وآلوا إلى الفناء ، فإن يزيد قد حوى عهده ما لم يَحْوِه حكم خليفة لا قبله ولا بعده .

في كتاب الفتن من صحيح البخاري أورد قول النبي « ص » : « **هلاك أمتي على يدي اغيلمة من أمتي** » ، وعن أبي هريرة قال « **سمعت رسول الله « ص » يقول : « هلكة أمتي على يدي غلمة من قريش** » .

وفي الصواعق المحرقة عن مسند الروياني عن أبي الدرداء عنه « ص » : « **أول من يبدل سُنتي رجل من بني أمية يقال له يزيد** » .

وفي مصادر أخرى . منها : معاوية ومقتل الحسين للخوارزمي ، وتاريخ أبي الفدا ، وكنوز الدقائق للمناوي ، وتاريخ الطبري ، وكتاب صفين ، قال رسول الله « ص » : « **إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه** » .

وفي فتح الباري ، أن أبي هريرة كان يمشي في السوق ويقول : « **اللّهم لا تدركني سنة ستين ولا امارة الصبيان** » وكان يشير بذلك إلى خلافة يزيد .

ولكن الأمة الإسلامية تجاهلت قول النبي « ص » ، ولم تمتثل له بقتل معاوية حينما ارتقى منبره ، وارتضت برشح الأطماع الذي كان يُطرش فوق عيونها من ميزاب معاوية فيعمي منها البصر .

وإذا كان المسلم بعد استشهاد الحسين يتذكر شيئا ، فإنه لن ينسى تذكُّر قتل يزيد للحسين وعِترة آل البيت ، وحمل رؤوسهم على أسنَّة الرماح ، وسبي حرم رسول الله « ص » إلى دمشق ، ونكته لثنايا ريحانة الرسول « ص » بقضيبه ، وترديده ذلك البيت الشنيع : « **ليت أشياخي . . ألخ** » .

وإذا لم ينس هذه الشناعة ، فلأنه تمثَّل وجدانيا وفكرياً خطورة قتل مسلم لمسلم بدون حق ، وشناعة إيذاء مؤمن لمؤمن ، وخطيئة ثلم أمر الأمة القائم بالقسط . . فكيف إذا كان هذا المسلم المقتول ، بمكانة سبط النبي . . وهذا المؤمن المؤذى هو الحسين بن علي ، حبيب الرسول وريحانته ، وسيد شباب أهل الجنة . . ؟.

هنا يتخذ القتل بعداً فوق بعده اللا إنساني . فزوال الدنيا لأهون من قتل مسلم لمسلم بدون حق ، فكيف بقتل مسلم لحفيد نبي الإسلام ، حيث كان يقصد في قتله قتل الحق الإلهي الذي يمثّله . . فيكون قد أضاف إلى قتله بدون حق ، جريمة قتل الحق أيضاً . . المتمثّل في تعاليمه وثورته . « **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا**

خطأ[1] » .

وفي إيذاء المسلم لمؤمن إيذاء للنبي ، وإيذاء النبي ، إيذاء لله ، وفي إيذاء الحسين نحى الآذون منحى يتجه إلى العناية الإلهية التي أعدّت الشهيد وهيأت له سبل الدعوة إلى حقها الأسمى ، فلم يعد الإيذاء مقصوراً هنا على « **مؤمن ما** » بل اشتمل على قاعدة الإيمان ذاتها ، التي وضع ركيزتها سيد من آمنوا وحافظوا على إيمانهم ، وسيد من استشهدوا في سبيل بقاء الإيمان مُترعاً في الصدور والحنايا .

وفي قولة الرسول الأكرم : « **إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبدا** » تفسيرٌ مؤكدٌ لمعنى ما سبق . ففي قلوب المؤمنين فحسب أودع قتل الحسين حرارة لا تبرد أبداً مهما اشتد صقيع الضَلالة حول القلوب ، ومهما علا صقيع الانحراف فوق الصدور . إنها حرارة قتل المسلم لمسلم بدون حق ، بل بظلم لم يسبقه ويلحقه ظلم . وهي دفء أذيّة غير المؤمن للمؤمن ، المستمدة طاقتها السرمدية من غضبة النبي وغضبة الله تعالى لغضبة رسوله .

حرارة لا تبرد لأنها مُستمدَّة من نار قتل سيد الحق بدون حق . وحرارة لا ينضب دفئُها لأنها كوت قلوب المؤمنين التياعاً لإيذاء سيد المؤمنين ظلماً وقسوة .

فمهما نسى المسلم . .فإنه لن ينس كلّ هذا الذي تمثّل خير تمثيل في تجبُّر يزيد ودمويته وموقفه الشامت من آل البيت ، حينما أشرف ركب السبي على ثنية جيرون ، فأنشد يقول :

لما بدت تلك الحمول واشرقت
تلك الشموس على ربى جيروني

---

(١) الآية « ٩٢ » من سورة النساء »

نعب الغراب فقلت قل أو لا تقل
فلقد قضيت من النبي ديوني

فمعنى « قضيت من النبي ديوني » ، أنه قَتَلَ للنبي « ص » ، ما سبق وقتل له « ص » يوم بدر ، ووضع نفسه بتوازٍ مع شخص الرسول الأعظم ، وهو الفاسق الشرير الذي قال فيه الرّسول « ص » :

« لا يزال أمر أمتي قائماً بالقسط حتى يكون أول من يثلمه رجل من بني أمية يُقال له يزيد » .

وقد رأى المسلمون نبوءة رسولهم « ص » تتحقق في شخص يزيد ، الذي ما أن عُقدت له تلك البيعة الشاذة ، حتى هبَّ ينهب المدينة ، ويرمي الكعبة بالمنجنيق ، ويقتل الحسين وأهل بيته ، ويمثِّل بجسده الطاهر في فلاة كربلاء ، ويحمل رأسه على رمح إلى دمشق .

وكان خليفة ماكراً ، افتتح عهده بشناعة كبيرة تجلت في قتل الحسين ، وختمه بوقعة الحرة ، قبل أن يقتله داء الجنب في مطلع شبابه .[١]

فلو ارجعنا كل الحركات التي ناوءت الحكم الأموي إلى مصدر واحد ، لوصلت إلى حيث تنطلق المظالم والانحرافات ، التي بدأت بسيطة وكبرت وتنوعت أساليبها مع كل خليفة أموي جديد ، ولو وضعنا إصبعنا على مكمن هذه الحركات ، لاتضح لنا أنها تستقي كلها من نبع واحد ، أوله في كربلاء حيث ينبع وآخره في الزاب حيث صبَّ جارفاً أمامه كل الركام من قشٍّ الحكام الظلمة الذي نصبه خلفاء بني أمية في

---

(١) إختلفت الروايات في موته .

درب أمة الإسلام ، باسم الإسلام ،الذي هو منهم براء ، فانقرضت عروشهم وسقطت دولتهم سقوطاً مروعاً وكأنها لم تقم .

وبقيت عقيدة الإسلام التي تكالبوا عليها قرناً من الزمان ، واعملوا فيها تشويهاً واستغلالاً وتنكيلاً باسمها حتى كفر الإسلام بهؤلاء المسلمين ، المحسوبين عليه إسماً ، الهادمين له من الداخل قولاً وفعلا .

فلا السيف نفعهم ، ولا الهدم ، ولا التنكيل والإرهاب ، وارتدّت سهامهم الحاقدة إلى نحورهم ، وكانوا بأفعالهم إنما يحفرون قبور نهاياتهم بأيديهم .

ولم تكُ كلمة الشهيد قبل مصرعه بكربلاء صيحة تُطلق في الهواء جزافا ، بل كانت نبوءة تحمل في معانيها مسلّمات المستقبل ، حينما خاطب قاتليه مبيِّناً لهم قرب نهاياتهم بقوله :

« أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريثما يُركب الفرس ، حتى تدور بكم دور الرحى ، وتقلق بكم قلق المحور » .

فلم يلبثوا بعدها إلا كما قال الحسين ، فدارت بهم الأحوال دور الرحى ، وانتقم الله منهم ، قتلة بقتلة ، وضربة بضربة .

وكان من فضل المعجزات الإلهية ، أن اقتلعت بغضبتها عروش أمية وامحت ذكرهم إلى الأبد ، فلم يُعثر لهم على أثر ، ولم يرد لهم ذكر إلا في باب الغدر والضلالة ، وقتل ذرية نبي الإسلام « ص » .

وظلّ ذكرُ الحسين وآل البيت يرتفع وينتشر كالضياء ، فيغمر بسناه وفوحه العاطر ، الدهور والأزمان والأكوان والضمائر والقلوب ، وصار كل مكان وطئته أقدامهم ، أعتاباً يقدِّسها الملايين من البشر ، يزداد عددهم يوماً بعد آخر .

وغدت مبادىء الحسين دستوراً لكل مظلوم وثائر وطالب حق فوق سطح هذه

الأرض ، تحت أي لواء انضوى ، وبأي لغة تحدث .

ومن يمجِّد آيات الله يقنع بأن الشهادة التي أقدم عليها الحسين « ع » ، قد خسرت في العاشر من محرَّم ، خسارة زمنية جسيمة ، وكسبت بعده كسباً دينياً أزليا .

فكانت هذه الشهادة الخصم الأقوى بعوامل ضعفها ، وكانت القوة الغاشمة التي صارعتها ، الخصم الأضعف بعوامل قوتها .

شهادة خاسرة في التوِّ والآن ، ورابحة في القادم والآت ، لأن الحق سيفها ، والباطل ميدانها .

ونهاية المطاف هي خواتم الأمور ، لأن الأمور مرهونة بخواتيمها لا ببداياتها ، وقد تُخذل البدايات ، وتُجزى الخواتم خيراً عميما .

غُررتم لئن صدقتم أن حالة
تدوم لكم والدهر لونان ، أخرج

لعل لهم في منطوى الغيب ثائراً
سيسمو لكم والصبح في الليل مولج

يود الذي لاقوه أن سلاحه
هنالك خلخال عليه ودملج

فيدرك ثأر الله أنصار دينه
ولله أوس آخرون وخزرج

ويقضي إمام الحق فيكم قضاءه
مبيناً ، وما كل الحوامل تُخدج[1]

---

(١) من أبيات لأبي العباس علي بن الرومي وقد لبنناها للتوافق .

المسيح .. هل تنبأ بالحسين..؟

أيها القاتلون جهلاً حسيناً
أبشروا بالعذاب والتنكيل
قد لُعنتُم على لسان إبن داود
وموسى وصاحب الإنجيل

لقد لَعن المسيح قاتلي الحسين وأمر بني إسرائيل بلعنهم ، وقال : « من أدرك أيامه فليقاتل معه ، فإنه كالشهيد مع الأنبياء مقبلاً غير مدبر ، وكأني أنظر إلى بقعته ، وما من نبيٍ إلا وزارها ، وقال إنك لبقعة كثيرة الخير ، فيك يُدفن القمر الزاهر »[1].

في هذا الإيراد ثلاث نقاط ذات دلالةٍ وأهميَّة :

١ – لَعْنُ المسيح لقاتلي الحسين ، وأمرُه لبني إسرائيل بلعنهم .

٢ – الحثُّ على المقاتلة معه ، بإيضاح أن الشهادة في هذا القتال كمثلها مع الأنبياء .

---

(١) راجع كامل الزيارات لابن قولويه ص٦٧

٣ - التوكيد على زيارة كل الأنبياء لبقعة كربلاء ، بالجزم التام على أن « **ما من نبي** » إلا وزارها .

وتذكر بعض المراجع التاريخية [١] أن عيسى بن مريم « ع » مرَّ بأرض كربلاء ، وتوقَّف فوق مطارح الطَّف ، ولَعَن قاتلي الحسين ومُهدري دمه الطاهر فوق هذه الثَّرى .

ولما مرَّ أميرُ المؤمنين بكربلاء في مسيره إلى صِفِّين حيث نزل فيها ، أومأ بيده إلى موضع منها وقال : « **هَهُنا موضع رِحالهم ومناخ ركابهم** » ثم أشار إلى موضع آخر وقال : « **هَهُنا مِهراقُ دمائهم ، ثقلٌ لآل محمد ينزل ههنا** [٢] » ثم قال : « **واهاً لك ياتُربةً ليحشرنَّ منك أقوام يدخلون الجنة بغير حساب** » ، وأرسل عبرته وبكى من معه لبكائه ، فأعلمهم بأن ولده الحسين يقتل ههنا من عصابة ، هو وأهل بيته وصحبه .

وفي المقاييس البشرية المتعارف عليها ، أن كل فرد ذي صفة معينة لابد وأن يتواجد أو يزور الأماكن التي يرتادها أو يجتمع فيها نظراؤه ، أو التي من المنتظر أن يقدم إليها شبيهٌ له ، وفي مقاييس العزَّة الإلَهية كانت ودائع النبوءات والشهادات تتردد على أفواه النبيِّين ، وتدور بين أشداق الوصيِّين ، فيمهِّدون للأمر ويدرِّبون النفوس على تقبُّلِ الشبيه المُنتظرلهم ، الذي سيتمم ما بدأوه في المجال الذي انتدبتهم العناية الإلهية له .

ونبيٌ كعيسى وشهيد كابن مريم « ع » ، لابُدَّ وأن يقف على أمر الشهيد الذي سيليه بعد أحقاب من الزمن ، ليُتِمَّ ما بدأه من إحقاقٍ للحق ، ونُصرةٍ للمظلوم ،

---

(١) ومنها إكمال الدين للصدوق ص٢٩٥

(٢) رجال الكشي ص ١٣

وإسعادٍ للبشرية المعذبة ، وتخليصها من نير العبودية .

والصحيفة التي قرأ بها عيسى عن مجيء الحسين ، قرأ بها يحيى عن مجيئ المسيح قبل أن يأتي ، وألهمها قولاً واضحاً ونبوءة محددة ، فقال « ع » : **« سيأتي من بعدي من لستُ أهلاً لأن أحلَّ له سيرَ نعليه** [1] » .

وفي الآية الكريمة « **وإذا أخذنا من النبيِّين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا** » ، ما يدل على أن ميثاق النبيِّين والشهداء مأخوذٌ منهم قبل أن يكونوا ، وأن لا مفر من الرضوخ لهذا الميثاق كما تشاء العزَّة الإلهية .

وفي إنجيل القديس يوحنا يبشِّر المسيح تلامذته بإرسال مؤيِّد لشهادته ، يُكمِل من بعده رفع راية الحقِّ الإلهي ، فوق الخطيئة والبرِّ والحُكم ، فيقول « ع » :

إني ذاهب الآن إلى الذي أرسلني
وما من أحد منكم يسألني : إلى أين تذهب . . ؟
غير أني أقول لكم الحق
من الخير لكم أن أمضي
فإن لم أمض ، لا يأتِكُم المؤيِّد
أما إذا مضيت فأُرسله إليكم
ومتى جاء ، أخزى العالم على الخطيئة والبرِّ والحُكْم [2] .

وقد فسَّر بعض اللاهوتيِّين إسم « **المؤيِّد** » بـ « **الرُّوح القدس** » لكن المعاني التي

---

(١) يوحنا : ١/ ٢٧ - ٢٨

(٢) يوحنا : ١٦/ ٥ - ٦ - ٧ - ٨

تدلُّ عليها لفظة « **الروح القدس** » جاءت في الأناجيل الأربعة ، مُغايرة لمعنى إسم « **المؤيِّد** » ، إذ لو تصفحنا صفحات الإنجيل المقدس ، وتمعنّا في عِظاتِ المسيح وأمثاله ، لتبيَّن لنا عدم تفوُّههِ بكلمة « **المؤيِّد** » إلا قبل رحيله ، وبأنه ذكر في كل عِظاتِه « **الروح القدس** » بالروح القدس ، ولم يُسمِّه بإسم آخر ، حتى يَحتملَ تأويل وتفسير « **المؤيِّد** » بالروح القدس .

ففي إنجيل يوحنا يحادث المسيح المرأة السامرية بقوله :

ستأتي ساعة يعبد فيها العباد الصادقون الآب بالروح والحق[1]
إن الله روح فيجب على العباد أن يعبدوه بالروح والحق .

فهنا إشارة واضحة بأن الروح هو الحق .
وحينما يكشف المسيح عن سرِّ الروح لنيقوديموس يقول :

مولود الجسدِ يكون جسداً
ومولود الروحِ يكون روحا[2]

وفي إنجيل لوقا ، تحديدٌ أكثر إيضاحاً لمعنى الروح القدس ، إذ يقول المسيح لتلاميذه :

« وعندما تُساقون إلى المجامع والحُكام وذوي السُّلطة ، فلا يهمنَّكم كيف تحتجُّون أو ماذا تقولون ، لأن الروح القدس يُلهمُكم فيما ينبغي أن تقولوا[3] » .

في هذه العبارة « **الروح القدس يُلهمُكم** » إشارة إلى أن الروح القدس شيءٌ

---

(١) يوحنا : ٤/ ٢١ - ٢٤

(٢) نفسه : ٣/ ٦

(٣) لوقا : ١٢/ ١١ - ١٢

هيولي غير ملموس أو مرئي ، وحينما يحضر فإنما يحضر إلهاماً وإيحاءً ، لا كجسم مادي .

وهذا ما أكَّدته قولة المسيح لتلامذته في الناصرة : « **روحُ الرب نازل عليَّ لأنه مسحني** » .

وكان بإمكان المسيح « ع » أن يستعيض بكل ما تفوّه به عن الروح القدس ، بكلمة « **المؤيِّد** » فيقول : « **المؤيِّد يُلهمكم** » بَدَل الروح القدس ، ولقال أيضاً : « **المؤيِّد نازلٌ عليَّ** » ، بَدَل روح الرب .

وفي كلِّ عِظاته يتكلَّم المسيح عن الروحِ القدس بصيغة « **الأقوى والأعلى** » ، ويضع نفسه دوماً في موضع « **الأدنى والمنفِّذ** » ، فروح الآب نَزَل عليه ، وروح القدس يُلهم تلاميذه .

ولكن في قولته : « **إذا مضيت أرسل لكم المؤيِّد** » صار معنى الروح القدس يُفسَّرُ على أنه إحدى مقدرات المسيح ، يُرسله متى يشاء بما يُخالف المعاني السابقة التي كان يتكلَّمُ فيها عن الروح القدس ويصفه بأبيه السماوي الذي أَرسَلَه وأَلهَمَه ويُلْهِمُ تلاميذه ، لا سلطة له عليه ، وإنما سلطة الروح هي العُليا فوقه ، وما عليه إلاَّ الرضوخ لها .

إذن فالفرق واضح وبيِّنٌ بين عبارتي « **الروح القدس يُلهمُكم** » وبين « **إذا مضيت أُرسِلُ لكم المؤيِّد** » . فالروح القدس في الأولى هو نفحٌ هيوليٌّ يتمدَّد في الفكر والضمير ، ولا سيطرة للمسيح عليه ، بل هو يخضع له . . والمؤيِّد في الجملة الثانية كائنٌ ماديٌّ له أبعاده ، ولعيسى سيطرةٌ على إرساله للبشر .

ولتوكيد هذا المعنى ، معنى أن الروح القدس نفحٌ هيوليٌّ لا كما فُسِّر بأنه « **المؤيِّد** » هو ما جاء في نشيد زكريا : « **وامتلأ أبوه زكريا من الروح القُدُس[1] فأنبأ**

---

(١) لوقا : ١/ ٦٧ وما بعدها

وقال » . . الخ .

وأيضاً ، فإن مريم بنت عمران عندما كانت مخطوبة ليوسف ، وُجدت قبل أن يتساكنا حاملاً من الروح القدس ، أي بنفحة من الله تعالى ، وبأمر من لدنه .

وفي القرآن الكريم : « **ويسألونك عن الروح قُل الروح من أمر ربِّي** »
وأيضاً : « **وآتينا عيسى بن مريم البيِّنات وأيَّدناه بروح القدس**[1] »
وفي إنجيل متى عبارة : « **هو الذي يعمِّدُ في الروح القدس** »
وفي إنجيل لوقا عبارة : « **إن الآب السماوي يمنح سائليه الروح القدس** »
وأيضاً بنفس الإنجيل : « **إن الروح القدس سينطق بلسانكم في الاضطهاد** »
وفي إنجيل يوحنا : « **الروح القدس يرشدكم إلى الحق** » و « **سيخزي الروح القدس العالم** » و « **خذوا الروح القدس** ».

وكلمة « **المؤيِّد** » لم يرد ذكرها إلا في آخر الأناجيل الأربعة ، وقد فُسِّرت في متن بعضها بـ « **الرُّوح القُدُس** » بما لا يدع مجالاً للشك بأن التفسير قاصر لا يبلغ مبلغه في قولة المسيح ، إذا وضعنا في الإعتبار أن تعبير « **الروح القُدُس** » قد ذُكر بالنص الواضح الصريح في مواضع كثيرة من الأناجيل الأربعة ، وجاء في معاني الآيات بما يخالف طبيعة « **المؤيِّد** » من حيث درجتهما ومجال قدرتهما .

فلو أضفنا إلى إسم « **المؤيِّد** » عبارتي : « **أُرسله لكم** » ، و « **متى جاء أخزى العالم على الخطيئة والبرِّ والحُكْم** » ، لاتضح لنا أن « **المؤيِّد** » بشرٌ وكيان ماديّ ، يُؤيدُه عيسى ويُعطيه راية الحقِّ التي استشهد من أجلها .

وبعد المسيح « ع » جاء محمد « **ص** » خاتماً للأنبياء ، وبعد رسالة الإسلام ما

---

(١) الآية ٨٧ من سورة البقرة

نزل للبشر رسل ولا هادون .

فهل كان المسيح يتنبأ بقدوم الحسين . . ؟.

من خلال التفسير السَّالف عرَّفْنا « **المؤيِّد** » بكائن ماديّ يؤيِّد شهادة عيسى « ع » ، وتأييد الشهادة لا يكون إلاَّ بأخرى مشابهة لها ، تستمدُّ آلامها وشكلها من قسوة النفوس في زمن حلولها ، ولو نظرنا لرأينا أن ليس ثمّة من شهادة عظيمة أعقبت شهادة عيسى بعد مماته ، سوى شهادة ريحانة الرسول الأعظم ، وسليل النبوَّة وغذيُّها من إبهام النبي « ص » ، وهي شهادة جرت على لسان شهيد المسيحية ، وأخذته إلى مطارحها في كربلاء قبل أن تكون بقرون .

وكأَن الشهيد عيسى « ع » لما تمثَّل له أهوال الشهيد الحسين « ع » فوق الأرض التي زارها والتي صارت مسرحاً لشهادته ، قد تأثَّر ولعن قاتليه ، وأمر بني إسرائيل بلعنهم ، وحثَّ الذين سيدركون أيامه على القتال معه .

فما هو الحجم المقياسي لشهادة الحسين في سفر المسلَّمات الإلهية ، والمعادلات البشرية . . ؟.

كشهادة . . قرُبت بعظمتها وخطَر نتائجها وعِظَمِها ، إلى حدود النبوَّة وقرَّبت شهيدها إلى حدود ما في النبوَّة من قُدْسية وخلود ، فكانت ظلاً للنبوَّة ، وكان الحسين « ع » شبيهاً بالرسل .

ولا عَجَب في هذا المقتضى ، ما دام لم يخرج عما أوصى به عيسى « ع » بني إسرائيل وما حثهم عليه من القتال مع الحسين ، بوصف الشهادة معه « **كالشهادة مع الأنبياء** » .

ولا عَجَب أيضاً في تشبُّه الحسين بالرُسُل ، ما دام لم يخرج عما أعلنه الرسول الكريم من قولته « **حسين مني وأنا من حسين** » مبتدئاً إعلانه بالتركيز على كون الحسين

منه ، قبل أن يكون هو من حسين .

ولنُلقِ مزيداً من نور البصيرة والتبصُّرِ على تسمية « **المؤيِّد** » الذي وعد المسيح بإرساله ليشهد للحق ، فنلاحظ بأنه وصفه بـ « **المؤيِّد** » بكسر الياء ، وليس بـ « **المؤيَّد** » بفتح الياء .

وفي قاموس اللغة يعني إسم « **المؤيِّد** » ، الذي يُثبِّت ويُقوِّي ويُعضِّد غيره ، وفي القولة « **أيدَّ فلانٌ فلاناً** » معناها وافقَهُ ودعَّم رأيَهُ وموقفه أمام الآخرين .

و « **المؤيَّد** » بفتح الياء وشدِّها ، يعني ذلك الشخص المُدعَّم والمُعضَّدِ رأيه وموقفه ، وهو يمثِّل في هذا الموضع إسم « **المفعول به** » بينما يمثِّل « **المؤيِّد** » بكسر الياء « **إسم الفاعل** »

ولو ذكر عيسى « ع » إسم « **المؤيَّد** » لصار « ع » هو « **المؤيِّد** » له في مكان « **الفاعل** » ولمثَّل هذا الذي سيُرسلهُ إسم « **المفعول به** ».

وفي الأصل اليوناني للإنجيل جاءت اللفظة بإسم « **باراكلتس** » أي المُعزِّي والمؤيِّد ، ومعنى « **المُعزِّي** » في العربية يجيء في نفس معنى « **المؤيِّد** ».

فلا يصحُّ إذن تفسير المؤيِّد بالروح القُدُس ، لأن في سلطة المسيح على إرساله ليشهدَ له ، معنى منافياً لهذا التفسير ، ومغايراً لسلطة الروح القدس على المسيح ، وهذا ما أكده « ع » لتلاميذه في العشاء الأخير إذ قال لهم :

الحقَّ الحقَّ أقول لكم
ما كان عبدٌ أعظم من سيده
ولا كان رسولٌ أعظم من مُرسِله (١)

---

(١) يوحنا : ١٣/ ١٦

لأن الذي أَرسلَهُ الله
يتكلم بكلامِ الله .

وفي موقف آخر له ذكر يوحنا على لسانه قوله : « **إن الروح القدس أعظم مني** » .

وفي صلاته الكهنوتية يقول « ع » مُخاطباً ربه : « **أنت الإِلٰهُ الحق وحدك ، ويعرفون الذي أَرسلتَه يسوع المسيح** »[(١)].

وأيضاً : « **ليؤمن العالم بأنك أنت أرسلتني**[(٢)] » و « **عرف هؤلاء أنك أَرسَلتني**[(٣)] » .

وإنَّا لواجدون في أعمال الرسل توكيداً قاطعاً على كون الروح القدس هو الله تعالى بقدرته وجلاله ، بحيث لا تحتمل تسميتُه تفسيراً قاصراً كالذي فُسِّر به ، ولا تأويلاً آخر من المحتمل ظهوره .

فقد كُتِب : « **ياحنانيا لماذا ملأ الشيطان قلبك حتى تكذِّب على الروح القدس ؟ إنك لم تكذب على الناس بل على الله** »[(٤)]

هنا نتبيَّن في كلمتي « **الرُّوح القُدُس** » و « **الله** » أنهما تأتيان متناوبتين مترادفتين تعطيان مدلولاً واحداً ، وتُشيران إلى الطبيعة الواحدة للروح القدس ، والله ، وبأن أحدهما هو الآخر .

والدِلالاتُ على كون الروح القدس هو الله تعالى ، وأن له السلطة العليا على الرسل ، وأن لا سلطة للرسل عليه . كثيرةٌ ومتواترة في الإنجيل المقدس ، ففي مطلع

---

(١) يوحنا : ١٦/ ٣
(٢ - ٣) نفسه : ١٧/ ٢١ - ٢٥
(٤) أعمال الرسل : ٥/ ٣ - ٥

دستور الإيمان يقول المسيحي : « **وبالروح القدس الرب المُحيي ، مسجودٌ له وَمُمجَّدٌ الناطقُ بالأنبياء** ».

فـ « **الناطقُ بالأنبياء** » ، تعني « **مُرسِلِ الأنبياء** » ، على اعتبار أن النبي هو كلمة الله المتجسِّدة ، ونُطقهُ يعني إرساله .

وفي الآية الكريمة عبارة : « **ذلك عيسى ابنُ مريمَ ، قولَ الحق** »[1]

ويذكر يوحنا بأن الله روح ، والذين يسجدون له فبالروح والحقِّ ينبغي أن يسجدوا .

وروح الله في العهد القديم يشير إلى الريح : « **وكانت الأرض خَرِبَةً وخالية ، وروحُ الله يرفُّ على وجه المياه**[2] . » ويشير إلى النفس : « **لو استرجع الله إليه روحَه ونسمَته ، لفاضت روح كلِّ جسد في الحال ، ولعاد الأنسانُ إلى التراب**[3] » فالروح بصفته ريحا ، يعني السر والقوة ، وبصفته نَفَساً إلهياً ، يعني العنصر الحيوي الذي يُحيي اللحم والدم ، فروحُ الله هو الحي المُحيي .

وفي الإشارة إلى بعث الرسالات السماوية من لَدُنه تعالى ، حينما تستولي عزَّته على مختاريه ، فيُلهمُهم ويرسلُهم لأتمام رسالة تحريرية أو نبويَّة ، قال الربُّ لأرميا : « **ها أنذا جعلت كلامي في فمك** » ، وفي أشعيا النبي جاء عن بعث عيسى : « **فيستقر عليه روح الرب روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة** »[4]

وهكذا يكون روح الله صادراً عن الله ، فهو إذاً روحٌ قُدُسٌ مقدَّس . وفي عماد

---

(١) سورة مريم ٣٤

(٢) سفر التكوين : ٢/١

(٣) ايوب ١٤/٣٤

(٤) أشعيا : ٢/١١ - ٤

المسيح توكيد لهذا المعنى ، وفي الحمْل به من العذراء مريم ، تكريسٌ له ، فقد أُنبئَت العذراء : « **إن الروح القدس يحلُّ عليك ، وقوةُ العلي تظلِّلك ، فالقدُّوس المولود منك يُدعى ابن الله** ».

ويجيءُ مقصدُ الإرسال الإلهي للرُسُل ، مُتَمَّماً في هذا القول ليوحنا : « **لأن الذي أَرسلهُ الله يتكلم بكلامِ الله** »[1].

وتؤيِّد هذه القولة ، قولة أخرى لعيسى « ع » حينما أَنبأ تلاميذه بخيانة يهوذا إذ قال لهم :

الحقَّ الحقَّ أقول لكم
من قَبلَ الذي أُرسِلَه قَبلَني
ومن قَبلَني قبلَ الذي أَرسَلَني[2].

فهنا ثمَّة تعبيران واضحان لا لُبسَ فيهما ، يؤكدان أن ثمَّة قوةٌ عليا لا سيطرة للمسيح عليها ، هي التي أرسلته ، وهي قوة الروح القدس التي عناها « ع » بأنها قوة أعظم منه ، بينما يؤكِّد المعنى الثاني ، على أن ثمة من هو تحت سيطرته وقدرته ، بحيث يتمكن مع هذه القدرة على إرساله بنفسه للبشر ، كما أرسلَهُ هو الروح القدس بدوره . فالكتب السماوية تعلِّمُنا بأن الله ليس مادة ، بل هو خالق المادة والروح معاً ، وهو نور السماوات والأرض ، ليس كمثله شيءٌ ، لاتحيط به الأبصار ، ولا تدركه العقول ، لايحده زمان ولامكان وليس فكرة تعيش في العزلة بغير قابلية اتصال بالناس ، بل لسرِّه تعالى إعلان يفصح عن أَزليَّته ، كلَّم به مختاريه ، وفوَّض إليهم مهمة إبلاغ كلمته للبشر ، وطريقة القدرة الإلٓهية في هذا

---

(١) يوحنا : ٣٤/٣

(٢) يوحنا : ٢٠/١٣

الإعلان ، تختلف باختلاف المواقف والظروف والموضوعات .

فبعضهم كلّمه تعالى بوساطة الرؤيا والحلم : « إن يكن فيكم نبي للرب ، فبالرؤيا أتعرّف له ، في الحلم أُخاطبه » . وكلّم آخرين بوساطة إلهام داخلي : « فكانت كلمة الرب إليّ قائلاً » [1] . . . أما موسى فكلمه تعالى مواجهة : « أما عبدي موسى فليس هكذا ، بل هو أمين في جميع بيتي ،فماً إلى فم أخاطبه وعَياناً لا بألغاز [2] » .

وكان الأنبياء والمصطفون على يقين أن الله هو المتكلّم ، فكانت كلمتهُ تجتاح نفوسهم بقوة وتعبئ إمكاناتهم بشكل عجيب ، حتى أنهم يُعزون مصدرها إلى عمل الروح القدس . وفي هذا المعنى يقول القديس بطرس : « لم تأتِ النبوءات قط عن إرادة بشر ، بل إنما تكلم رجال الله القديسون محمولين بإلهام من الروح القدس »

والوحي الإلهي يتضمن دائماً موضوعاً دينياً ، فالله يعلن عن سر تدبيره وما يريده للبشرية ، ويحدّد للإنسان طريق خلاصه ، كما يُعلن عن ذاته ليتمكن الإنسان من الالتقاء به .

ويُعلن الله عن وجوده من خلال الكون ، ويُعلن أيضاً عن ذاته بنوع خاص ، من خلال تاريخ شعبه ، فأعماله تبيّن من هو ، إنه الأله الرّهيب الديّان ، والإله الرحيم المعزّي ، ومعرفته هذه تُملي على البشر موقفهم منه ، وهو موقف إيمان وثقة ، وموقف رهبة ومحبّة .

وقد امتاز مختارو الله بالتنفيذ الأمين والمُطلق لما كشفه الله لهم وأمرهم به ، وقد

---

(١) أرميا

(٢) العدد : ٤/١٢

قاموا بمهمَّتهم بإلهام من الروح القدس ، وفي عملهم لم يكونوا مجرد ادوات صمّاء غير مسؤولة ولم يقفوا منه موقف المحايد المتفرج ، إنما كانوا أشخاصاً أحراراً اختارهم الله لتلقِّي الوحي الإلهي وتقديمه للأجيال التالية ، فكانوا في الفكر والقول والفعل ، يعملون بتحريك من الروح القدس وبعون منه ، إذ كان ينير عقولهم ، ويقوِّي إرادتهم ، ويستخدم مَلَكاتهم الفكرية والأدبية في التعبير عن الوحي الإلهي ، ويسدِّدُ خُطاهم ساعة يحلُّ أجلُ المسيرة المُلهمَة .

والحسين « ع » سبط الرسول ، وسيد شباب أهل الجنة ، وأبو الشهداء في عمر البشرية ، كان واحداً من أولئك الذين خصَّهم تعالى بذلك الإلهام الداخلي ، وأنفذَهُم بوحي منه لمعالجة موضوعٍ ديني ، وقيادة بشر ضلُّوا عن طريق خلاصهم . فتقدم بثباتٍ إلى حيث مصرعه وموطن استشهاده .

ومن مقتضى هذه القُدُرات التي اختصَّ بها تعالى مختاريه ، نجد بأن « المؤيِّد » الذي تلفَّظ المسيح باسمه ، هو إسم يُستدلُّ به على كائنٍ بشري مختار ، يختلف بتركيبه ورُتبته كليَّةً عن خاصيَّة إسم الروح القدس المُستدلِّ به على ذاتِ الله العليا . وبهذا ينتفي التفسيرُ القاصر الذي يَدَّعي بأن المؤيِّد ، هو الروح القدس ، لأنه من غير الممكن ولا المعقول أن يقصد المسيح بقولته بأنه سيرسل من لَدُنه ، ربَّهُ الأعلى ، كذلك من غير المنطقي أيضاً أن يكون قصدُه « ع » إرسال رسول آخر مثله ، لكن الاستدلال الأقرب إلى التفسير المنطقي المعلِنِ عن عقلانية ، هو قدرته « ع » على إرسال من هو أدنى رتبة منه كنبي .

فلفظتا « **الذي أرسِلُه** » و « **الذي أرسَلَني** » ، معطوفتان على لفظة « **المؤيِّد** » ، المعطوفة بدورها على عبارتي « **هو يشهدُ لي** » و « **أَرشدَكُم إلى الحقِّ كله** » ، لَتَعرُّف بوضوح وتحديد مُهمَّة المؤيِّد الرئيسية والوحيدة ، والمتلخِّصة في تأييد شهادة عيسى « ع » والارشاد إلى الحقِّ كلّه الذي بشر به ، وهذا التأييد لا

يمكن إلاَّ أن يكون من ذات لحمة الهدف الذي يرمي إليه ، فالشهادة لا تؤيِّدُ إلا بشهادةٍ مماثلة ، ولا تؤيِّدُ البطولة إلا البطولة ، وعلى هذا المقياس تتجانس الأمور ذوات الخصائص الواحدة .

فاذا ما قرناً كلَّ ماسبق من عبارات بعبارة الحسين « ع » « **فمن قَبلني بقبول الحقِّ ، فالله أولى بالحق** » ، فإن تساؤلاً عقلانياً تدعمه قناعة بدهية ، تلِجُ في خاطر الدِلالاتِ المنطقية ، ليخرج منه أكثر شفافية ونصوعا ، ليطرح هذا السؤال : هل كان عيسى « ع » يقصد الحسين « ع » في حديثه عن المؤيِّد . . . ؟ .

وقبل أن يستدل عقلنا البشري ووحينا الداخلي على منطقية جواب لهذا السؤال ، يجدر بنا أن نمضي في تفسير لمدلول قولة عيسى حول رسالة « **المؤيِّد** » ، لعلَّنا نصل في خاتمة هذه الرحلة مع المنطق والعقل ، إلى فهم باطني ووجداني وعقلي واضح لماهيَّة المؤيِّد . .

فقد قال عيسى : « **ومتى جاء أخزى العالم على الخطيئة والبِرِّ والحُكْم** »

فعلى الخطيئة ، فلأن الخطيئة ستسود ، وتصبحُ من المُسلَّمات في وجدان الكائن البشري الفرد ، وفي سويداء الحاكم على أمور هذا الفرد ، بحيث تصبح هذه الخطيئة من الفداحة بمكان في زمن مجيءْ المؤيِّد حيث يمحوها بشهادة مُدوِّية .

وعلى البِرِّ ، فلأن البرَّ لا يُعمل به ، والحقَّ تحيد عنه النفوس ، ويلزم الناس طاعة الشيطان ، ويتركون طاعة الرحمن ، ويُظهرون الفساد ، ويُحِلُّون حرام الله ويُحرِّمون حلالَه .

وعلى الحُكم ، فلأن الحكم يكاد أن ينجح في اقتلاع جذور دين الله الواحد على زمن الرسالة الإلهية الثالثة – الإسلام – ولابد من إعادة هذه الجذور إلى تربتها

الإلهية .

ولنتبصر في كلمة الحسين الشهيد التي هتف بها ضد هذا الاقتلاع : « **يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون** » ، لتزداد القناعات قُرباً من أذهاننا ، وتغلغلاً في داخل صدورنا .

ولئن جرت لفظة الحقّ ومؤيِّده على لسان عيسى « ع » . . فذلك أدعى لنا كي نتبصر ملياً في « **قبول الحق** » ، ذلك التعبير الذي جرى أيضاً على لسان الحسين « ع » فالحقُّ لِلّه تعالى ، وعزته أَوْلَى به ، وقد حملت لواءه الرسالات السماوية الثلاث ، وكان القاسم المشترك الأوحد الذي دعت إليه وانتشرت لأجله .

وفي هذا السِّر تكمن كلمة الشهيد الحسين « **أَللَّهُ أولى بالحق** » فهو لم يقُلْ : محمد . أو عيسى ، أو موسى . . ولا عنى الإسلام ، أو المسيحية ، أو اليهودية . . بل قال : « **الله** » ، لأنه تعالى باعث الرسالات من لَدُنه ، ومُنظِّم قولة الحق وأفعاله . ومُختار حَمَلَتِه وشهدائه .

وما قال « ع » عبارته هذه . إلا بعد أن رأى بعينه . وسمع بأذنه ، ولمس لمس اليد . كيف أن الحقّ لا يُعمل به . والباطل لا يتناهى عنه .

وقد دعا « ع » إلى الحق الإلهي بالحسنى والقدوة المنزهة . فقال : « **أدعوكم إلى إحياء معالم الحق . فإن تجيبوا تهتدوا سبل الرشاد** » .

والمسيح « ع » حينما حدَّث تلاميذه واعداً إياهم بإرسال « **المؤيِّد** » ، روح الحق . ويعدهم بالشهادة له . وإرشادهم إلى الحق . . لم يكن ليعنيهم هم بذاتهم – كتلامذة له – بل كان القصد مجازياً من خلالهم ، على سُنَّة الأمثال التي ألقى بها عظاته وتعاليمه ، وحينما حدَّثهُم ، كان يحدِّث البشرية من خلفهم ، وكل المضطهدين من بعدهم . فعليه السلام جاء مبشِّراً وهادياً لمجموع الجنس البشري ،

وليس فحسب لأثني عشر تلميذاً عمَّر أكبرهم حتى الثمانين.

وفي زيارته «ع» لكربلاء حيث مصارع الحسين، تنبأ باستشهاد هذا الشهيد، ولعن قاتليه، وطالب من يُدرك أيامه بالقتال معه، وقبل موته وعد بإرسال مؤيِّد يشهد له بين البشر، وذلك كي تبلغ رغبة العلي القدير مَرْقاتِها السرمدية، وتَتِمُّ نبوءات الأنبياء، وتأخذُ الرسالات السماويَّة الثلاث مُستقرَّها في الضمائر، وتتمدَّد عقيدة الدين الكلِّي الواحد، في ذرات الصدور وحنايا الأضلع بشكل نهائي، فلا تقوى كلُّ الضلالات على زحزحتها.

وهذا ما أثبتته الشواهد الزمنية والبشرية.

وهذا ما رسَّخهُ تكرار الدهور، فتسامت الرسالات فوق قوى الشَّر، وتعاظمت العقائد الدينية في النفوس، فلم يعُد سهلاً اجتثاثها.

ونظرة واحدة إلى الملايين المؤمنة من البشر التي تؤُمُّ قبر الحسين ومزارات آل البيت في كل مكان، لكافية كي تدعم الرأي بتعاظم قوة العقيدة وتمكُّنها من النفوس، ورغبة المؤمنين في أن يظلَّ لقتل الحسين، حرارة متأججة لا تبرد في قلوبهم أبداً، طالما هم مؤمنون، وصراطهم مستقيم.

فكيف سيكون ما كان، لولا الذي كان من استشهاد سيِّدِ شباب أهل الجنة، وإزهاق الباطل الذي عبَّر عنه القرآن الكريم بقوله: «**إن الباطل كان زهوقا**»؟.

وكيف كان وسيكون، من خلق هذا الشهيد لولا اختيار العناية الإلهية له، ولولا تعهد جده النبي الأكرم بتنشئته تنشئة نبوية؟ فارتقت إنسانيته إلى حيث نبوَّة الجدِّ «**أنا من حسين**»، وهبطت نبوَّة الجدِّ إلى حيث إنسانيته «**حسين مني**».

ولا عَجَب في ذلك، فالخصائص الوراثية تنتقل من الجدِّ إلى الأب والأم فالحفيد، والحسين في هذا ورث خصائص جدِّه من حيث الغيرة على الدين،

والاستعداد لبذل كل ما هو غالٍ في سبيله .

وقوله الرسول : « **حسين مني وأنا من حسين** » ، و « **اللّهم أحبه فإني أُحبُّه** » ، فيها شهادةٌ وتكليف .

شهادة . . بأن النبي « ص » قد عهِد براية الإسلام الذي أُنزل عليه ، إلى سبطه الحسين الذي هو بضعة منه .

وتكليف . . للإبن الذي أحبه وطلب من ربه أن يُحبه ، بالاستشهاد صوناً للعقيدة ، ودفاعاً عن روح الدين من العبث والاستهتار ، اللذين كادا يؤديان إلى اضمحلاله ، فكانت هذه الشهادة ، وهذا التكليف ، هما العنوان الضخم والراموز الخالد لنهضة الإبن في سبيل عقيدة الجد ، حتى استحق عن جدارة مغزى قول : « **الإسلام بدؤه محمَّدي وبقاؤه حسيني** ».

فالحسين البضعة الرسولية ، قام بمهمةٍ لا تقل خطراً عن مهمَّة جده ، فأبقى على الإسلام كما بشَّر به جده الكريم ، وأودع في صدور المسلمين وديعة ثمينة ، تنبِّههم في نومهم وقعودهم ، بوجوب الحفاظ عليها ، كأندر وأغلى ما يملكون .

فالعقيدة ككلِّ علم ، عاملٌ يزدوج بالحياة ، فينفعل بها ليحيا ، ويمضي معها لترقى ، فإذا لم يتفاعلا ، ظلت الحياة فاجرة حمقاء ، وظلت العقيدة لهباً قُلِبَ فوقه مكيال ، فانطفأ نوره وحجبت حرارته ، بدل أن تكون منارة ساطعة يُهدي ضياء نورها عُميَ البصائرِ والمهجِ والحنايا .

وتظل اجتهادات البشر ضئيلة الحظ من الجدوى والفاعلية ، إذا لم تضيئها التماعاتٌ من الحلم السماوي ، وتظل الحقيقة في منأى عن تهمة مغالطة نفسها ، وتسمو بعلوِّها فوق شُبُهات الوساطة والاقتراع ، وحَسْبُ مُعلِنها ومُتَبَنِّيها ، حَسْبُه الله مُلهِماً ، وغمرُ سناها هادياً ، وصدقُ كَلِمها مجرى للسانه ، وهيوليةُ جوهرها

وعظمته سُدىً ولُحمةً ، موْئِلاً لقلبه وملاذاً لضميره اللَّهوفِ إلى السماويات .

نعم . . إنها الحقيقة الكاملة مانحة السعادة الصادقة للواصل إلى أعتاب ملكوتها ، ملكوت الله تعالى ، الحقيقة غير المرئية ، والحقيقة المرئية في أغوار البصيرة والعمق الوجداني المؤمن .

فهل نبت الحسين غرسة في حديقة النبوَّة والشهادة بلا تربة ممهدة . . ؟.

وهل ثار وتحرَّك بلا سر علوي . . وهل نجح ذلك النجاح الساحق إعتماداً على تخطيط بشري . . أم أن ما كان ،كان واجباً فُرض عليه تأديته . داعياً إلى سبيل الرب ، بينما الناس كلهم على الباطل إلْبٌ . . ؟.

لنقرأ :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يُقاتلون في سبيل الله فيقتُلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التَّوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم »[1].

وهكذا كان الحسين الشهيد أقرب الشهداء شبْهاً بالمسيح ، وكانت شهادتُه أقرب الشهادات إلى جوهر المسيحية . وبها اختُتِمت الشهادات الكبيرة ذات الفاعلية المُحوِّلة في مسار الأديان وعقائد البشر .

فهل كان المَسيح يتنبأ بالحسين . . حينما تحدث عن مؤيِّد . . ؟
لِنَتأمَّل .

---

(١) سورة التوبة.

كربلاء .. الأرض المقدّسة

همس النبي « ص » في أذن ريحانته الحسين « ع » حينما كان غافياً فوق قبره في الليلة التي أعلن بها ثورته على يزيد ، وقال :

« حبيبي ياحسين كأني أراك عن قريب مُرمَّلاً بدمائك مذبوحاً بأرض كربلاء » .

ولما وصل سيد الشهداء بركبه إلى أرض كربلاء ، سأل عن إسم الأرض التي يقف عليها فقيل له : تُعرف بكربلاء . فقال : « **اللّهم أعوذ بك من الكرب والبلاء**[1] » .

وقيل عنها قديماً « **كور بابل** » ثم اختصرت إلى إسم كربلاء تسهيلاً للفظها .

وبابل كما جاءت في نبوءة أشعيا هي « **صحراء البحر** » ، وكانت في سهل متّسع يقطعه الفرات[2] ، وفيها غدران كثيرة حتى ليظن الناظر إليها ، بأنها صحراء طافية فوق

---

(١) راجع البحار ج١٠ ص١٨٨

(٢) سفر أيوب ص٨٧٠ فصل ٢١ نبوءة أشعيا .

بحر ، فأُطلق عليها هذا الإسم .

وفي هذا التفسير شيء من المعقول ، إذ أن كربلاء منطقة صحراوية حارة ، وفيها الفرات وبعض الغدران ، وتسمية « **صحراء البحر** » فيها شبه كبير بتسمية « **كور بابل** » ، فالكور معناه في العربية هو ذلك الجهاز الذي ينفخ الهواء فوق جمر الحداد لإحماء الحديد ، وبابل هي « **الصحراء الحارة** » ، فصار اللفظ « **كور بابل** » يعني – لهب صحراء بابل – كلهب كور الحداد .

وكربلاء تقع على بعد عدة كيلو مترات من مشرعة الفرات شمال غرب الكوفة [(١)] ، وكانت في عهد البابليين معبدا ، والإسم محرَّف من كلمتي « **كرب** » بمعنى معبد أو مصلًّى أو حرم ، و « **أبلا** » بمعنى إله باللغة الآرامية ، فيكون معناها « **حرم الإله** ».

وفي تعوُّذ الحسين من الكرب والبلاء ، مُرادف لفظي آخر جاء متطابقاً إلى حد كبير مع لفظة « **كربلاء** » موصولة . فالكرب ، هو الشدة المصحوبة بالألم . والبلاء ، هو النهاية وبلوة الموت .

ولو نسبنا اللَّفظة إلى مرادف آخر ، لوجدناها تصح بلفظة – كرٌّ ، وبلاء – ومعنى الكرِّ هنا ، هو أحد وجهي الهجوم والتراجع في المعارك ، وهو ما يعني الهجوم – الكر – لأن التراجع يعني – الفر – وهكذا يقال في وصف معركة : « **قتال بين كرٍّ وفر** » أي بين إقدام وهروب .

أَما لفظة « **بلاء** » فمعناها متمِّم لمعنى لفظة « **كر** » ، وبلاء هنا بعد لفظة كر ، غير تلك البلاء بعد لفظة كرب ، فاللفظتان إذا عُطفتا على ما قبلهما ، فسَّرتا معنى ما

---

(١) تقع كربلاء على خط الطول ٤٣ درجة و٥٥ دقيقة شرقي غرينتش ، وعلى خط العرض ٣٤ درجة و٤٥ دقيقة شمال خط الاستواء في المنطقة المعتدلة الشمالية.

سبقها ، فالبلاء بعد كرب ، تعني الشدة والموت . وبعد الكر ، تعني المضاء والنجاح في القتال والهجوم . وهكذا يُقال في وصف أحد الشجعان : « **أبلى بلاء حسنا** » أي قاتل بشكل جيد وماض .

وعلى هذا المقياس تفسر لفظة « **كر ، بلاء** » بمعنى : « **إقدام ، وبسالة** » وفي مجلد « **سفر أيوب** » نقرأ هذا الوصف لنبوءة[1] :

« عند نهر الفرات في بابل قال الرب : هيئوا المِجَنَّ والمِجْنَبَ وازحفوا للقتال ، وشدوا على الخيل واركبوا ايها الفرسان ، وانتصبوا بخوذكم ، أصقلوا الرماح والبسوا الدروع . ما بالي رأيتهم قد فشلوا ونكصوا إلى الوراء ، قد كسِر جبابرتهم وانهزموا انهزاماً ولم يلتفتوا ، هول من كل جهة يقول الرب ، الخفيف لا يهرب ، والجبار لا يفلت ، في الشمال بجانب نهر الفرات عثروا وسقطوا ، في هذا اليوم يأكل السيف ويشبع ويُروَى من دمائهم ، لأن للسيد رب الجنود مذبحة في أرض الشمال عند نهر الفرات » .

هذه الرؤيا رآها إرميا ، ولا نجد لها تفسيراً معقولا ، وقد ثبتناها هنا لورود كلمات فيها مثل : بابل ، مذبحة عند نهر الفرات . ولا ندَّعي إمكانية تحليل هذه الرؤيا ، لأنها ليست موقفاً أو حدثاً حتى نجمع أجزاءها ونركِّبها ونخرج منها برأي ما ، ولكنها رؤيا تقع في خانة ما يحلم الإنسان به وما يتراءى له في نومه أو يقظته ، وهي تدخل في باب الرؤى لأفراد غير عاديين ،مثل إرميا، ولا بد أنَّا واجدون بها قبساً من واقع تحقَّق بشكل أو بآخر ، قريب الشبه بها ، غير بعيد عن إمكانية كينونته كما تراءى .

وفي الرؤى أحداث تاريخية وقعت بعدها بسنين ، بل وقرون ، وبها أسماء لم تزل إلى يومنا هذا موجودة ، مثل : النيل ، والفرات ، وبحر القلزم ، وشيلو ، وأريحا ،

---

(١) نبوءة إرميا : ٤٦/ ٣ - ٧ - ١٠ ص٤٨٧ - ٤٨٨

ودمشق ، وأرض الكلدانيين ، وآشور ، وسدوم وعموره ، وقد لا تكون – على هذا القياس – رؤيا إرميا ببعيدة عما حدث لاحقاً فوق أرض بابل – كربلاء – بجانب نهر الفرات من مذابح وتنكيل .

وتظلُّ بقعة كربلاء المقدسة ، هي الرمز الأسمى لملحمة عقيدة الإسلام الكبرى ، وهي لم تكن كذلك قبل أن تُرْوى بدماء آل البيت الزكية .

وقد تعدَّدت الأقوال في موطن رأس الحسين الشريف ، وهل هو في كربلاء مدفون مع الجسد الطاهر أم في مكان آخر . . ؟.

ففي « **رسائل المرتضى** » ذكر : أن رأس الحسين أعيد إلى بدنه في كربلاء . وفي « **عجائب المخلوقات** » للقزويني ، ورد أن الرأس رد إلى الجسد في العشرين من صفر . أما « **الشبراوي** » فيقول : إن إعادة الرأس تمَّت بعد أربعين يوما .

وقد أسند عدد كبير من المؤرخين عودة رأس الحسين إلى جسده ما بين العشرين والأربعين يوماً بعد المصرع ، ومن هؤلاء : « **إبن نما الحلي** » في كتابه مثير الأحزان ، « **والطبرسي** » في أعلام الورى ، « **والفتَّال** » في روضة الواعظين ، « **وإبن شهراشوب** » في المناقب ، « **وإبن حجر** » في شرح همزية البوصيري ، وأكد عودة الرأس « **أبو الريحان البيروني** » و « **المناوي** » .

وحدَّثت روايات أخرى ، بأنه دُفن بدمشق عند باب الفراديس بعد أن وُجد بخزانة يزيد بعد موته[١] .

وفي إحدى الروايات ، أن الرأس أُرسل إلى عمرو بن سعيد والي يزيد على المدينة ، فدفنه بالبقيع بجوار قبر أمه فاطمة الزهراء[٢] .

---

(١) إبن أبي الدنيا

(٢) رواية محمد.بن سعد

وقيل أيضاً إنه طيف به حتى وصل إلى عسقلان فدُفن بها ، ولما استولى عليها الإفرنج في الحروب الصليبية ، رُدَّ الرأس إلى القاهرة ودُفن بالمشهد الحالي المعروف بالمشهد الحسيني قرب خان الخليلي[١] .

وأكد « **السائح الهروي** » هذه الرواية وحدد لها سنة خمسمائة وتسع وأربعين .

وفي رواية أخرى[٢] ، أن الرأس بمسجد الرقَّة على الفرات ، وأنه أُرسل إلى هناك بناء على أمر يزيد الذي قال : « **لأبعثنَّه إلى آل أبي معيط عن رأس عثمان** » ، ولما وصلهم الرأس دفنوه في بعض دورهم .

ولكن أقرب الروايات إلى الإمكانية والواقع ، هي تلك القائلة بأن زين العابدين « ع » طلب من يزيد الرؤوس ، فلم يمانع ،ودفع له رأس الحسين ورؤوس آل بيته وصحبه ، فعاد بها إلى مصارعها حيث دفنها مع أجسادها[٣]

وأيّاً كان مدفن الرأس ، فإن لهذه التباينات حكمة ربانية هدفت إلى وضع الحسين وأهل بيته موضع الإجلال والتعظيم في أكثر من مكان ، وحتى تكون واجبات زيارة هذه الأماكن الشريفة فريضة على كل مؤمن ، ويكون هذا التباين وحياً يحضره الإنسان في وجدانه ، سواء قَرُب أم بَعُد من القبر أو مدفن الرأس ، وفي هذا تجلّة وحكمة عليا ، نقف عن الخوض في ماهيتها إجلالاً وتكريماً لها .

ولعل أبلغ تصوير لهذا المغزى ، أبيات لأبي بكر الآلوسي يقول فيها :

---

(١) قيل في بعض المصادر أن المشهد المشهور في مصر بُني بعد سنة ٥٠٠هـ ، ويُدعى بـ « تاج الحسين »

(٢) لسبط بن الجوزي .

(٣) كانت العرب على عادة ، إذا قتلوا من ليس منهم سلّموا رأسه وبدنه إلى أهله . وقد فعل الحجاج هكذا بابن الزبير إذ سلّمه لأهله بعد قتله .

لا تطلبوا رأس الحسين
بشرق أرض أو بغرب
ودعوا الجميع وعرِّجوا
نحوي فمشهده بقلبي .

ولدعبل في قصيدته العينية التي رثى بها الحسين « ع » ، أبيات بنفس المعنى ، يقول فيها :

رأس ابن بنت محمد ووصيه
يا للرجال على قناة يُرفع
والمسلمون بمنظر وبمسمع
لا جازع من ذا ولا متخشِّع
ايقظتَ أجفاناً وكنت لها كرى
وأنمت عيناً لم تكن بك تهجع
كحلت بمنظرك العيون عماية
وأصمَّ نعيك كل أذن تسمع
ما روضة إلا تمنَّت أنها
لك مضجع ولخط قبرك موضع

وكربلاء جارة نينوى ظلت ارضا بلقعا خواء إلى ان قدر لها ان يُساق إليها ركب الحسين ، فتقدَّست من دماء آل البيت .

وقيل إنه عليه السلام اشترى أربعة أميال من جهات قبره الشريف من أهالي نينوى والغاضرية ، بستين ألف درهم وتصدَّق بها عليهم ، واشترط أن يرشدوا إلى

قبره ويضيفوا من زاره ثلاثة أيام[1] .

وكان حرم الحسين الذي اشتراه أربعة أميال في أربعة أميال ، فصار حلالاً لولده ومواليه وحراماً على غيرهم .

وفي الحديث عن الصادق « ع » ، أن أهل نينوى والغاضرية لم يفوا بشرط الحسين بوجوب الإرشاد إلى قبره ، وإضافة زائريه ثلاثة أيام .

وفي البداية والنهاية ذكر أبو الفداء ، أن الماء لما أُجري على قبر الحسين « ع » ليمحى أثره ، جاء أعرابي من بني أسد فجعل يأخذ قبضة قبضة ويشمها ، حتى وقع على قبر الحسين ، فبكى وقال : « **بأبي أنت وأمي ماكان أطيبك وأطيب تربتك** » ، وأنشد قائلاً :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه
وطيب تراب القبر دلَّ على القبر

ورغم كل ذلك ظل قبر الحسين ومدفن رأسه محجة يتنسَّم في أفيائها متعبو الأرض ومضطهدو العروش .

وصارت كربلاء بعد مقتل الحسين وعِترَة آل البيت وصَحْبه الأطهار ، الأرض ذات الثرى الطاهر ، والذريات القدسية ، بعد أن كانت صحراء خواء ، ترتع في فلاتها العُسلان والذئاب .

صارت ملجأ للمعذبين المظلومين ، بعد أن عُذِّب وظُلم فوق أرضها البررة الأخيار ، فسبحان الله كيف يجعل من أرض العذاب والظلم ملاذاً للمعذبين

---

(١) راجع كشكول الشيخ البهائي ط القاهرة نقلاً عن كتاب الزيارات لمحمد بن داود القمي . وحكا عنه ابن طاووس في مصباح الزائر .

والمظلومين . . !

كـــأن ضريحك زهـــر الـــربيـــع
مـــرَّ عـــلـيـــه نسيم الخريف

أنشرك مـــا حـــمـــل الـــزائـــرون
أم المسك خالط ترب الطفوف[1] .

ولعل أبلغ وصف لكربلاء ، ذلك الذي قالته الحوراء زينب الكبرى ترثي به أخاها الشهيد وإخوته وصحبه ، بما يتناسب والمكانة الجليلة التي صارت إليها أرض الطف ، بما احتوته من أجساد ورؤوس طاهرة ، رفعتها إلى مرتبة من القداسة لم تبلغها أعتاب أخرى [2] ، فقالت [3] :

على الـــطَّـف السلام وســاكـــنـيـــه
وروح الله في تلك القباب

نفوس قدَّست في الأرض قُدساً
وقد خُلقت من النطف العذاب

---

(١) للمهيار الديلمي

(٢) تشرَّفت بزيارة كربلاء المقدسة ، ووقفت خاشعاً أقرأ قول الرسول الكريم المنقوش على قفص ضريح سيد الشهداء « ع » وقد جاء فيه :

بُورك لولدي الحسين في ثلاث : ولده وقبره ومشهده . ألا وأن بين قبري وقبر الحسين روضة من رياض الجنَّة . ألا وأن كربلاء روض من رياض الجنَّة . ألا وأن قبر الحسين على مَترعةٍ من تُرع الجنَّة ، الشفاء في تربته ، والإجابة تحت قبَّتِه ، والأئمَّة من ذريَّته .

(٣) من أعذب وأرق المدائح التي قيلت في رثاء الشهيد « ع » وصَحْبه ، إنها انسيابات نفس حنونة لأخت مفجوعة بذبح أخيها ، هي التي شهدت أحزانه ، وعايشتها مُعاينة مُعاينة ، وهي التي سفحت آلامها ودموعها فوق جسد أخيها المفصول الرأس ، وقدَّمته قرباناً لله الذي شاء له هذا الاستشهاد .

مضاجعُ فتيةٍ عبدوا فناموا
هجوداً في الفدافد والروابي

عَلَتهم في مضاجعهم كعاب
بأردان منعمة رطاب

وصيَّرت القبور لهم قصوراً
مناخاً ذات أفنية رحاب.

سمو الشهادة في علم الجمال

شاعرية النفس التي تتعلق بعالم المُثُل وكمال الأخلاق ، هي التي تبحث عمّا في هذا العالم من جماليات تزحم بعضها البعض في منولوج منوع من المعاني والصور الخلابة ، لتُترجم ما يحتويه من رموز غيبية ، وخَلَب عقلي ، ورَوَاء نفسي .

وهذا العالم من المثل والاخلاق ، تقلّص متلبّسا شخصية ، ووزّع سناه كما توزّع بلّورةٌ صافية ضوء الشمس المنعكس عليها .

هذه الشخصية التي جسّدت هذا العالم ، هي شخصية الحسين « ع » بما احتضنته من إعجاز الله في خلقه ، وأفكارهم وأفعالهم ، فكانت خِلقتهم وخُلُقهم ومواقفهم ، صورة أمينة لما استودعه الله فيهم من سر إعجازه في الخلق .

هي شخصية غزت القلوب ، واقتحمت النفوس ، واستوطنت الحنايا ، بمقدار ما ظهر فيها من شعاع الخالق ، وما حوّطتها به نعمته واختياره .

وهي قدوة التقت فيها شُعلة النبوة المقدسة ، بالمثالية البشرية التي ما تركت قلباً إلا ومسّته ، ولا فكراً إلا وألهبته .

ومن آيات القلب والفكر أن يعشقا الجمال ، ويتحدّيا المنافع الأرضية ، ويؤثرا مواقف البطولة على إيثار السلامة .

وإذا تجانست مواقف القلوب والأفكار على صعيد واحد ، جعلت من أصحابها شعراء وأدباء ، يرسمون بالكلمات عالماً من الجماليات لا يُحد ولا تلحق بجموحه أشد الأخيلة انطلاقا .

وفي هتاف القلوب ورسم الأفكار ، صدى لما استعر فيها من أصوات رجّافة ، إنبعثت لها من أعماق الدهور حيّة تنثال إلى مواطن الجمال فيها ، فتمسُّها وتُكهربها ، وتخطُّ على صفحة أعماقها الصافية ، خطَّ حنان واستذكار .

فشهيد كالحسين إنتهت إليه كل سمات العظمة ، قمين بأن تستوحيه العقول والأفئدة إلهاماً دواماً ، إمتدت أنوار قدسيته أجيالاً وأعقاباً ، وما زالت تمتد إلى ما وراء الأزل ، متمِّمة حكمة الإله في سر اختياره وإبداعه « **ويأبى الله إلا أن يتم نوره** » .

فالحب لا يتم كماله إلا اذا صاحبه الإخلاص والوحدانية ، حتى يغدو المحبُّ متيَّماً بحبيبه ، يستعذبُ من أجله كلَّ عذاب وألم .

وقد ذهب الشاعر « **ديك الجن** » مذهب العاشق المتيم بالحسين وأهله ، حتى أسقمه التفكير بحبيبه ، فصار النسيم لديه سموماً ، والكرى هاجراً أبديا ، فقال في هذا المعنى يُرثي الحسين :

أصبحت مُلقى في الفراش سقيماً
أجد النسيم من السقام سموماً

ماء من العبرات حرّى أرضه
لو كان من مطر لكان هزيما

وبلابل لو أنهن مآكل
لم تخطىء الغسلين والزقوما

وكرىً يروعني سرى لو أنه
ظل لكان الحر واليحموما

مرَّت بقلبي ذكريات بني الهدى
فنسيت منها الروح والتهويما

ونظرت سِبط محمد في كربلا
فرداً يعاني حزنه المكظوما

تنحو أضالعه سيوف أمية
فتراهم الصمصوم فالصمصوما

فالجسم أضحى في الصعيد موزعاً
والرأس أمسى في الصعاد كريما.

وديك الجن من أبرز الشعراء الذين رثوا أهل البيت ومدحوهم ، ولم يجاره في هذا المضمار إلا شاعر واحد هو « **السيد الحميري** » ، وللشاعر الجن أبيات في أهل البيت ضمنها إحدى مرثياته عن الحسين يقول فيها :

ياعين في كربلا مقابر قد
تركن قلبي مقابر الكرب

مقابر تحتها منابر من
علمٍ وحلم ومنظرٍ عَجَبِ
من البهاليل آل فاطمة
أهل المعالي السادة النُّجُبِ .

وفي رثاء الحسين قيل الكثير من الأشعار والأقوال ، تضيق بها الأسفار لو جُمعت ، وكانت هذه الأشعار إذا ما تطرَّقت إلى وصف مَلحمة الطَّف ، تنحو باللائمة على أنفس أصحابها ، وتصوِّرُ شعورهم حيال ذكراها ، وتستمطرُ اللَّعنات على مرتكبيها .

ففي سماء حب أهل البيت إنطلق كالشهاب الوامض ، نجم شاعر فحل تسامعت به العربية ، هجَّاء في الملوك ، طاعن في أعداء أهل البيت ، وكان يقول : « **مكثت نحو ستين سنة ليس من يوم ذرَّ شارقه إلا وأنا أقول فيه شعرا** » .

وكان يرتجل أشعاراً مقذعة ، فيُسأل عن مستحقيها فيقول : « **لم يستحقها أحدٌ بعينه بغد ولسوف يستحقها كثيرون** » .

هذا الشاعر هو « **دعبل بن علي الخزاعي** » ، وقد وقف موهبته الشعرية على الإخلاص والولاء لأهل البيت ، فقال في إحدى مراثيه للحسين :

إن كنت محزوناً فمالك ترقد
هلا بكيت لمن بكاه محمد
هلا بكيت على الحسين وأهله
إن البكاء لمثلهم قد يحمد

لتضعضع الإسلام يوم مصابه
فالجود يبكي فقده والسؤدد

فلقد بكته في السماء ملائك
زهر كرام راكعون وسُجَّدُ

إلى أن يقول :

هذا حسين بالسيوف مبضَّعُ
متلطِّخ بدمائه مستشهد

عارٍ بلا ثوب صريع في الثرى
بين الحوافر والسنابك يقصد

ياجد من ثكلي وطول مصيبتي
ولما أعافيه أقوم واقعد

ولدعبل قصيدة عظيمة في رثاء الحسين ومدح آل البيت ، مكوَّنة من مائة واثني وعشرين بيتاً ، قال عنها أبو الفرج في الأغاني :

قصيدة دعبل « **مدارس آيات خلت . . . الخ** » من أحسن الشعر وفاخر المدائح المقولة في أهل البيت عليهم السلام ، قصد بها علي ابن موسى الرضا « ع » بخراسان ، قال : دخلت على علي بن موسى الرضا « ع » فقال : أنشدني ، فانشدته « **مدارس آيات** » حتى انتهيت إلى قولي :

إذا وتروا مدوا إلى واتريهم
أكفاً عن الأوتار منقبضات

فبكى حتى أُغمي عليه، وأومأ إليَّ الخادم كان على رأسه: **أن اسكتْ**، فسكتُّ. فمكث ساعة ثم قال لي: **أعد**. فأعدتُ حتى انتهيت إلى هذا البيت أيضاً، فأصابه مثل الذي أصابه في المرة الأولى، وأومأ الخادم إلي: **أن اسكت**، فسكت. وهكذا ثلاث مرات. فقال لي: «**أحسنت**» ثلاث مرات، ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم مما ضُرب بإسمه ولم تكن دُفعت إلى أحد قبلُ، وأمر لي من منزله بحلى كثير أخرجه إليَّ الخادم، فقدمت إلى العراق، فبعت كل درهم منها بعشرة، إشتراها مني الشيعة، فحصل لي مائة ألف درهم، فكان أول مال اعتقدته.

مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العرصات

لآل رسول الله بالخيف من منى
وبالبيت والتعريف والجمرات

ديار علي والحسين وجعفر
وحمزة والسجاد ذي الثفنات

ديار لعبد الله والفضل صنوه
نجي رسول الله في الخلوات

وسِبطيْ رسول الله وإبني وصيِّهِ
ووارث علم الله والحسنات

إلى أن يقول :

قبـورٌ بجنب النهر من أرض كربلا
معرسهم فيهـا بشـط فـرات

تُـوُفُّـوا عطـاشـى بالفرات فليتنـي
تُـوُفِّـيت فيهم قبـل حـين وفاتي

إلـى الله أشـكو لـوعة عند ذكـرهـم
سقتني بكأس الثكـل والفظعات

حتى يصل إلى الأبيات التي أبكت علي بن موسى الرضا «ع» فيقول :

مـلامـك في آل النبـي فانهـم
أحبـاي مـا دامـوا وأهـل ثقاتـي

بنفسي أنتم من كهـول وفتيـة
لفـكِّ عنـاةٍ أو لحمل ديـات

فيـا عين بكيهـم وجـودي بعبـرة
فقـد آن للتسـكاب والهملات

ألم تـراني مـن ثلاثين حجَّـة
اروح وأغـدو دائـم الحسرات

ديـار رسول الله أصبحـن بلقعـا
وآل زيـاد تسكن الحجـرات

وآل رسول الله تُدمى نحورهم
وآل زياد آمنو السربات

وآل رسول الله تُسبى حريمهم
وآل زياد ربَّة الحجلات

إذا وتروا مدوا إلى واتريهم
أكفاً عن الأوتار منقبضات

***

وإذا كان عاشقو الجمال وكارهو القبح قد جعلوا همهم رثاء الحسين والتفجُّع على صفوة آل البيت ، فيما أقبل من أيام وسنين بعد الفاجعة التي شهدتها كربلاء ، فإن شاعراً جريئاً هو « **يحيى بن الحكم** » الذي قال البلاذري عنه في أنساب الأشراف ، بأنه كان والياً لعبد الملك على المدينة ، كان قد وقف موقفاً جريئاً متفاعلاً مع مصاب آل البيت ، وذلك حينما أُدخل ركب السبي والرؤوس على يزيد ، وكان حاضراً وقتها حيث هاله ما رأى فأنشد ملتاعاً :

لهام بجنب الطف أدنى قرابة
من إبن زياد العبد ذي الحسب الوغل

سُميَّة أمسى نسلها عدد الحصى
وبنت رسول الله ليست بذي نسل

فما كان من يزيد إلا أن ضربه في صدره وقال : **أسكت** . وفي رواية أنه أسر إليه وقال : **سبحان الله في هذا الموضع ما يسعك السكوت ؟** .

ومن دلالات جرأته أنه لما وُلِّيَ أخوه مروان الخلافة ــ وكان يُلقَّب خيط باطل ــ أن أنشده هذا البيت :

لحا الله قوماً أمَّروا خيط باطل
على الناس يُعطي ما يشاء ويمنع

* * *

والنفوس النزَّاعة إلى مثوى الحسين تطلب السكينة والسلوى ، إنما تتمثل في نزوعها ، آيات الحب والجمال ورضى القلب . وقد قال الإمام الصادق « ع » لأبي عبد الله جعفر بن عفان الطائي :

« ما من أحد قال في الحسين شعراً فبكى وأبكى به ، إلا أوجب الله له الجنة وغفر له » .

وكان الشاعر « **ابن عفان** » النزَّاع إلى قدسية كربلاء ينشد شعراً في مجلس الإمام الصادق « ع » عن الحسين أبكى منه الجميع ، حينما قال له الإمام :

« يا جعفر والله لقد شهدت ملائكة الله المقربين ههنا يسمعون قولك في الحسين « ع » ولقد بكوا كما بكينا وأكثر » .

ومن شعر ابن عفان في رثاء الحسين :

ألا يا عين فابكي ألف عام
وزيدي إن قدرت على المزيد

إذا ذُكر الحسين فلا تملي
وجودي الدهر بالعبرات جودي

فقد بكت الحمائم من شجاها
بكت لأليفها الفرد الوحيد

بكين وما درين وأنت تدري
فكيف تهم عينك بالجمود

أتنسى سِبطَ أحمد حين يُمسي
ويُصبح بين أطباق الصعيد

* * *

ولشاعر العربية « **أحمد شوقي** » بيتان في قصيدته « **الحرية الحمراء** » يقول فيهما :

في مهرجان الحقِّ أو يوم الدم
مُهج من الشهداء لم تتكلمِ

يبدو عليها نورُ نوْرُ دمائها
كَدم الحسين على هلال محرَّم

* * *

وللعلاَّمة الشيخ « **عبد الله العلايلي** » قصيدة مطولة في ذكرى الحسين تقول أبياتها :

عَرَى الدين من أحلاس شر وفتنة
دواهي طغت وازورَّ من وقعها الهدى

فهاج إمام الحق من كل وجهة
وهاج إمام الدين من كل منتحى

فما قرَّ في وجـه الظلوم وما التوى
على مِرَّة الـظُلاَّم أو شدَّة الهوى

أرادوا بـه ذُلاً فـكـان جوابـه
زئيراً كليث الغاب حُفِّز للشَّرى

سرى جاهداً يستندب الرَّوُع بغيةً
كأن الردى في الذلِّ والعيش في الردى

إلى أن يقول :

فـيـا كربلا. كهف الإباء مجسَّماً
ويـا كربلا. كهف البطولة والعُلا

ويا كربلا . قد حُزت نفساً نبيلة
وصُيِّرْتِ بعد اليوم رمزاً إلى السما

ويا كربلا . قد صرت قِبلة كل ذي
نـفس تصاغر دون مبدئها الدُّنا

ويا كربلا . قد حزت مجداً مؤثلاً
وحزت فخاراً ينقضي دونه المدى

فـخـار لـعـمري سطَّرتْه ضحية
فكـان لمعـنى المجد أعـظم مجتلى

فللمسلم الأسمى شعار مقدَّس
هما قبلتان للصلاة وللإبا .

* * *

وللشاعر « محمد مهدي الجواهري » قصيدة من ثمانية عشر بيتاً يقول في مطلعها :

شممت ثراك فهب النسيم
نسيم الكرامة من بلقع
وعفرت خدي بحيث استراح
خدا ثغري ولم يضرع
وحيث سنابك خيل الطغاة
جالت عليه ولم يضرع
وطفت بقبرك طوف الخيال
بصومعة المُلهم المُبدع

إلى أن يقول :

وياغصن هاشم لم ينفتح
بأزهر منك ولم يفرع
ويا واصلاً من نشيد الخلود
ختام القصيدة بالمطلع

يسير الورى بركاب الزمان
من مستقيم ومن أضلع
وأنت تسير ركب الخلود
ما تستجد له يتبع

* * *

وللصوفي الباكستاني الشاعر « **محمد إقبال** » قصيدة يقول فيها :

في الكعبة العليا وقصتها
نبأ يفيض دماً على الحجر
بدأت بإسماعيل عبرتُها
ودم الحسين نهاية العبر.

* * *

ولعلَّ من اجود ما قيل من فاخر المراثي الحسينية ، في العصر الحديث . . تلك التي دوَّنها « بولس سلامة » الشاعر المسيحي الفذ في ملحمته الشعرية العظيمة المعروفة بـ « عيد الغدير » والمؤلفة من ثلاثة آلاف بيت ، والتي كان الشاعر ينظمها في غرفة مظلمة ، حيث كانت دموعه تتسابق مع كلماتها . وحيث كان يجيب اذا سُئِل عن سر بكائه . . « إن ملحمة كربلاء هي ملحمتي الذاتية كفرد إنساني » .

يقول في إحدى قصائد الملحمة :

كسر النسرُ طرفه إعياء
بعدما قرَّح الجفون بكاء

لو أصاب الفرات رزء حسين
لانطوى النهر كالرداء انطواء
ولغاضت شطآنه واستطار
الرمل في خاطر الأثير، هباء

إلى أن يقول:

يا ضياء الغروب في كربلاء
دونك الشمس في الغروب ضياء
كيف باتت والكوكب الضخم
يهوي مثلما تسقط الجبال انكفاء
يا سليل المطيبين جدوداً
يفضح الشمس عزة وانتماء
مجدُكم صيَّر النبيل نبيلاً
وحباه من العُلى ما شاء
دمك السمح ياحسين ضياء
في الدياجير يلهم الشعراء
أي فضل لشاعر منك يعتام
اللالىء، يصوغ منها رثاء
شاعر مقعد جريح مهيض
كل أيامه غدت كربلاء

* * *

والشاعر «الفرزدق بن غالب» الذي التقى الحسين في الصفاح في إحدى محطات

خروجه[1]، وأخبره بأن قلوب الناس معه وسيوفهم مع بني أمية ، له في الحسين قصيدة تعدُّ من أجمل ما قيل في تصوير فضائل سيد الشهداء إذ يقول فيها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحلُّ والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقي النقي الطاهر العَلَمُ

يكاد يمسكه عرفان راحته
ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

إذا رأته قريش قال قائلها
إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

يغضى حياء ويغضى من مهابته
فما يكلم إلا حين يبتسم

في كفه خيزران ريحها عبق
بكف أروع في عرنينه شمم

مشتقة من رسول الله نسبته
طابت عناصره والخيم والشيم

---

(١) يروى أن الفرزدق خرج من البصرة يريد العمرة فرأى عسكراً في البرِّية فاستعلم عنه ولما علم بأنه عسكر الحسين قال : لأقضينَّ حق رسول الله « ص » وأتى وسلَّم عليه فقال الحسين : من الرجل . قال : الفرزدق بن غالب . رد الحسين : هذا نسب قصير . قال الفرزدق أنت أقصر مني نسباً أنت إبن بنت رسول الله .

لا يستطيع جواد بُعْدَ غايته
ولا يدانيه قوم إن هموا كرموا

من يعرف الله يعرف أوَّليَّة ذا
فالدين من بيت هذا ناله أمم

* * *

والشاعر « السيد الحميري » الذي قيل فيه إنه من أشعر الناس ، ما جاراه شاعر قط في رثاء أهل البيت إلا ديك الجن ، وله في قصيدة رثاء للحسين أبيات يقول فيها :

أُمرُر على جَدَث الحسين
وقل لأعظُمهِ الزكية

يا ياأعظماً لا زِلت من
وطفاءَ ساكبة رويَّة

ما لذَّ عيشٌ بعد رضِّك
بالجياد الأعوجية

ياعين فابكي ما حييت
على ذوي الذمم الوفية

لا عذر في ترك البكاء
دماً وأنت به حريَّة

وله قولة في الحسين حينما خاطب أصحابه يقول فيها :

لست أنساه حين أيقن بالموت
دعاهم وقام فيهم خطيبا

ثم قال ارجعوا إلى أهلكم
ليس سوائي أرى لهم مطلوبا

* * *

فإذا صنع عشق الشهداء شاعراً، فإن الندم على نصرتهم صنع شاعراً فحلاً ما قال بيتاً بعد مصرع الحسين، إلا وضمّنه ندمه لعدم نُصرته لمّا جاء يستصرخه بنفسه للخروج معه، وما كان من رفضه هذا وعرضه فرسه على الحسين للنجاة عليها، وما كان من إعراض الشهيد وقولته له: « **لا حاجة لنا فيك ولا في فرسك وما كنت متَّخذُ المضلِّين عضدا** ».

هذا الشاعر هو « **عبيد الله بن الحر الجعفي** »، وكان قائداً من شجعان العرب، عمل مع عثمان ومعاوية، وتغيَّب عن معركة كربلاء عمداً، وبعدها صار يُرى على الدوام، فائض النفس، ضارباً يداً فوق أخرى، ومردداً: « **ماذا فعلت بنفسي** » . . ؟ ومُنشداً بأسى وحسرة ندمه، وقائلاً:

فيا لك حسرة نادمت حياً
تردَّدُ بين حلقي والتراقي

حسين حين يطلب بذل نصري
على أهل الضلالة والنفاق

غداة يقول لي بالقصر قولا
اتتركنا وتزمع بالفراق

ولو أني أواسيه بنفسي
لنلت كرامة يوم التلاق

مع إبن المصطفى نفسي فداه
تولَّى ثم ودع بانطلاق

فلو فلق التلهف قلب حي
لهمَّ اليوم قلبي بانفلاق

فقد فاز الأولى نصروا حسيناً
وخاب الآخرون إلى النفاق

ولما طلبه إبن زياد وسأله تبرير تغيبه عن موقعة كربلاء ، غافله وركب فرسه وانطلق بها ، ولما حضرت شرطة إبن زياد خلفه ، طلبوا منه إجابة الأمير ، فرفض مُغلظاً كلامه لهم ، ثم اجرى فرسه حتى وصل كربلاء ، فنظر إلى مصارع الحسين « ع » ومن قُتل معه ، فاستغفر لهم ثم مضى إلى المدائن وقال في ذلك [1] :

يقولُ اميرٌ غادر وابن غادر
ألا كنت قاتلتَ الحسين ابن فاطمه

---

(١) راجع التاريخ الكامل.

ونفسي على خذلانه واعتزاله
وبيعة هذا الناكث العهد لائمه

فيا ندمي ان لا أكون نَصرتَه
ألا كل نفس لا تسدِّد نادمه

وإني لأني لم أكن من حُماته
لذو حسرة ما أن تفارق لازمه

سقى الله ارواح الذين تبادروا
إلى نصره سقياً من الغيث دائمه

وقفت على أجداثهم ومحالهم
فكاد الحشى ينقض والعين ساجمه

تآسوا على نصر إبن بنت نبيهم
بأسيافهم آساد غيل ضراغمه

إلى أن يصل ندمه حداً يجعله يتمنّى قتال الذين ظلموا الحسين ، فيقول :

أهمُّ مراراً أن أسير بجحفل
إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه

فكفُّوا وإلا ذدتكم في كتائب
أشدُّ عليكم من زحوف الديالمه

ولكن الموت عاجل هذا الشاعر النادم على خذلانه الحسين ، وقد تعدَّدت الروايات عن موته ، فمنها ما ذكر أنه أغرق نفسه في الفرات خوفاً من الوقوع في أسر

مصعب بن الزبير ، وفي رواية أخرى أنه قُتل في الأنبار وأن مصعب نصب رأسه في الكوفة ، وفي رواية ثالثة أنه بقي في منزله على شاطىء الفرات إلى أن مات يزيد .

وكيفما كانت حياة هذا المقاتل الشاعر أو ميتته ، فإنه بندمه الذي أفاض على نفسه كان ممن عَناهم الله بقوله :

« قل هل انبّئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا [1] **»** .

وهذا وذاك شاعر تُبهْلِلُ نفسه مخارف الدنيا وبُلَهنِية العيش ، تراه في موضع يُذكر فيه الحسين وقد تحوَّل إلى ناسك متبتِّل يقنع بالبلغة تستقر في حلقه ، لا تغادره لجفافها إلى فوق أو تحت .

وهذا وذاك شاعر لا تتحرَّك كوامنه إلا للفجِّ من المشاعر المكثَّفة الصارخة ، تجده ينفعل بأخفت شعور يصله من عَلياء أهل البيت ، فيُعطي أبلغ ما عنده من فصاحة ، ويُرسل أفصح ما لديه من بلاغة شعراً ونثرا .

وشاعر يبخل بمدحه للملوك يملأ بعده جرابه ذهبا ، ويسخو أيما سخاء في مدح الحسين وآله على غير أمل في درهم واحد ، وعلى توقُّع نوال الأذى والمشقة والإحن .

وشاعر آخر لم تكن أهوال الدنيا ومقاتلها لترف له جفناً ، لكنه كان يبكي كطفل كلما نزعت أفكاره إلى ذكرى كربلاء ، فيُرسل الدمع الهتون أسى وحرقة .

هكذا شاعر الحسين « ع » عندما تحوطه هيولية الاستشهاد ، فيُحلِّق في فضائها كنسر جائع إلى الحقيقة ، وصفاء النفس ، فيتخلَّص من مُتعارفات العيش ،

---

(١) الكهف : ١٠٥ .

وفرضيات الأهواء والنوازع الأرضية .

وفي فضاء الشهداء تكمن المُثُل الحقة والأرْيحيَّة ، فلا مناص من التقرُّب منها إلا بجناحين قويين تسوقهما ريح خفية مجهولة ، إلى حيث يكون ما يجب ، وإلى حيث تتردَّد أنشودة العظمة مذ ارتفعت في العاشر من محرَّم .

أنشودة وضعها الحسين على الشفاه فما ملَّتها قط ، بل زادها كرور الأيام اشتياقاً لها ، وهي أهزوجة للعز استوطنت حناجر الأجيال ، تطرب لها العقول وتحنو عليها الأضلع والصدور كدرَّة ثمينة لا منجى لها بدونها .

فالدماء الزكية التي أُهدرت فوق ثرى كربلاء منذ ثلاثة عشر قرناً ، سجلت للبشرية مجدها ، كما قال جبران خليل جبران .

والشهادة التي أقدم عليها الحسين علمت الإنسان كيف يكون مظلوماً حتى ينتصر ، كما قال المهاتما غاندي .

وعلَّمت المشاعر كيف تلتهب وتتفاعل مع المواقف النبيلة والمبادىء السامية ، فتهتزُّ لتفاعُلها القرائح ، إهتزاز الصبِّ المستهام بصورة حبيبه ، وتخلِّدها كَلِماً وشعراً وجمالا ، إلى جانب ما خلَّده التاريخ منها سرداً وتسجيلا ، لتكون أخلد سيرة لأعظم شهادة ، وأجمل قول لأكمل صورة .

تجاوبت الدنيا عليك مآتماً
نواعيك فيها للقيامة تهتف

فسلام عليه سيداً للشهداء
سلام عليه يوم ولد
ويوم مات
ويوم يبعث حيا .

ضمير الأديان أفضال وألقاب

الشخصيَّةُ هي مُحصِّلة التربية والمَرْبت (١) فى عهد الطفولة الغضَّة ، حيث الفتى بمكوِّناته النفسية يُشبه الاسفنجة الماصَّة ، التي تختزن في مسامِّها ما تمتصه . لتفرغه مجدَّداً متى عُصرت .

فني أمسية من أماسي شعبان ولدت فاطمة حسيناً فأخذه النبي « ص » وأذَّن في أذنه كما يؤذِّن للصلاة .

أذان من فم نبي سرى كهمس قُدْسي في أذنٍ غضة لم تعِ بعدُ ماهيَّة الأصوات ، ونداء من شفاه منزهة سمعها مخلوق كأول ما سمع . . . « **الله أكبر . . لا إله إلاَّ الله** » فانطبعت في سويدائه واختلطت في دمائه وبذرت في ضميره تلك البذرة القدسية التي أعطت للإسلام الكثير .

بعدها بأشهر إعتلَّت فاطمة وجفَّ لبنها ، فكان النبي « ص » يأتي الطفل

(١) كلمة من وضع الشيخ عبد الله العلايلي ، وهي من مادة رَبَتَ أي ضرب على كتف الطفل لينام .

ويُلقمه إبهامه فيمصه ، فيجعل الله في إبهام رسوله غذاء الطفل الوليد . إلى أن أنبت تعالى لحمه من لحم رسول الله .

هام النبي الأكرم بحفيده هياماً كان يرى فيه ظلَّ نبوته . وكان من هيامه أن كان يردِّد أنَّى جلس ماكان يحبه من ترداد بقوله : « **حسين مني وأنا من حسين** ».

السبط الوليد كان يُعدُّه الجد النبي لتحمُّلِ عبء ثقيل بعد رحيله عن الدنيا ، حينما تهتز الأرض من تحت أقدام المسلمين ، وتميد الدنيا بالإسلام ، ويتزعزع هيكل العقيدة المحمَّدية بفعل الضلالات والظلم والتحريف .

« **اللَّهم أحِبهْ فأني أُحِبُّه** » كلمة رجاء من نبي لربه . في أن تلتفت عزَّته إلى ما سيزرع فيه من فضائل نبوية فذة ، فيباركه من عليائه ويهديه بإلهاماته ، لِيُتِمَّ رسالته بما يُرضي العناية الإلهية .

جاء عنه في أخباره « ع » أنه كان صورة تشكّلت من صورة جده النبي « **ص** » له شبهه في الخُلق والخِلقة ، تطلع إليه الجدُّ فرأى في مخايله سيماء مستقبل الأمة وسؤدُدها ، وحامل لوائها من بعده .

السبطُ النبوي– تطلع إلى جده فرأى فيه معنى الدين ومعنى العقيدة ، استشف من الآذان الذي كبَّره في سريرته وهو لمَّا يزل رضيعاً ، رؤى المستقبل الآت .

سيِّدُ الشهداء – سما في شهادته فوق سموِّ كلِّ الشهادات التي آتاها أرباب الديانات وشهدائها منذ زكريا ويحيى ، حتى المسيح . فكان إمام حقٍّ وسيِّدُ شهداء الحق .

سيِّدُ شباب أهل الجنة – أتمَّ حُجَّة الله في خلقه وفي دينه الحنيف . وأبرز مظلوميَّة آل محمد ، وأعاد دين النبي الذي بشَّر به إلى صراطه المستقيم ، فأفنى ذاته وأهله في هذا السبيل ، رخص نفسه الغالية فأغلى له تعالى نفسه على أنفس ساكني جنة

خلده ، فصار سيِّدهم بما عمل وضحَّى ، وصار أحبُّ أهل الأرض إلى أهل السماء

أبو الضَّيم – كان يوم ضيمه في عاشوراء أعظم المصائب ، وصفه الإمام الصادق بيوم أعظم مصيبة من جميع سائر الأيام ، وذلك أن أصحاب الكِساء الذين كانوا أكرم الخلق على الله تعالى كانوا خمسة ، فلمَّا مضى عنهم النبي « ص » بقي أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين « ع » فكان فيهم للناس عزاء وسلوة ، فلمَّا مضت فاطمة « ع » كان في أمير المؤمنين والحسن والحسين « ع » عزاء وسلوة فلمَّا مضى أمير المؤمنين « ع » كان للناس في الحسن والحسين « ع » عزاء وسلوة ، فلمَّا مضى الحسن « ع » كان للناس في الحسين « ع » عزاء وسلوة ، فلمَّا قُتل الحسين « ع » لم يكن بقيَ من أهل الكِساء أحدٌ للناس فيه بعده عزاء وسلوة . فكان ذهابه كذهاب جميعهم ، كما كان بقاؤه كبقاء جميعهم ، فلذلك صار يومه أعظم مصيبة ، وكان يوم ضيمه أعظم أيام الضيم .

ريحانة الرسول – التي بذرها صلوات الله عليه بِذرة وتعهَّدها فَسيلاً في حديقة النبوَّة فأزهرت وأفاحت ضوعها ، ونشرت عبق الحقِّ الإلَهي في أجواء العقيدة الإسلامية ، فكان ريحانة طيبة لرسول الله طاب من بعد طيب الأصل فارعُهُ .

صعد النبي « ع » المنبر يوماً ما وكان مغموماً كئيباً ، وأصعد معه الحسن والحسين ، ووضع يده اليمنى على رأس الحسن ، واليسرى على رأس الحسين وقال : « **أللَّهمَّ إن محمداً عبدك ورسولك ، وهذان أطائب عترتي وخيار أرومتي وأفضل ذريَّتي ومن أخلفها في أمتي ، وقد أخبرني جبريل أن ولدي هذا مخذولٌ مقتول بالسُّم ، والآخر شهيد مضرَّج بالدم ، اللَّهمَّ فبارك له في قتله واجعله من سادات الشهداء** » .

إرثُ النبوَّة حمله حبيب النبي الحسين « ع » في رحلة سرمديَّة إلى دنيا الخلود ، بعد أن زرعه خليَّة خليَّة في قلوب المؤمنين .

والذي نعلمه عن المربَتْ ، أنه يُنمِّي ما يكون في الخلال الأصلية ، ويزرع ما يجد مناسباً زرعه لاكتمال غايته . والحسين « ع » حينما أخَذه جدّه « ص » بالتربية أخذ معه الجسم والعقل والنفس ، وجعل من ذاته قُدوةً له في حركاته وسكناته .

ذكر أبو رافع مولى النبي « ص » ، أنه كان يلاعب الحسن والحسين بالمداحي.[1]

وعن أبي هريرة ، أن الحسن والحسين كانا يصطرعان بين يدي رسول الله « ص » .

وعن يَعلى العامري ، أن رسول الله « ص » خرج إلى طعام ، فإذا حسين في السِّكَّة مع غِلمان يلعب ، فتقدم رسول الله أمام القوم وبسط يديه ، فجعل الغلام يفرُّ ها هنا وها هنا ، وجعل رسول الله يُضاحكه حتى أخذه فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه وقبَّله .

وعن شدَّاد ، قال : خرج علينا رسول الله في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسيناً ، فتقدم النبي « ص » فوضعه ثم كبَّر للصلاة فأطال سجدة الصلاة ، فرفعت رأسي فإذا الصبي على ظهره وهو ساجد ، فرجعت إلى سجودي فلمَّا قضى الصلاة ، قيل : يارسول الله إنك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننَّا أنه قد حدث أمراً وأنه يُوحى إليك ، قال : كل ذلك لم يكن ، ولكن إبني ارتحلني فكرهت أن أُعجله حتى يقضي حاجته .

ويقص أبو هريرة في حديث له : « **أبصرت عيناي هاتان وسمعت أذناي رسول الله « ص » وهو آخذ بكفي حسين ، وقدماه على قدم رسول الله وهو يقول : تَرَقْ**

---

(١) ذكره إبن الأثير في « النهاية » والمداحي : أحجار يحفرون لها حفرة ، ويَدْحي الملاعب ، فإن استقر الحجر فيها غَلَب وإلاَّ غُلِب .
عن العلايلي ص٢٨٢

تَرَقْ عين بقة ، فرقي الغلام حتى وضع قدميه على صدر رسول الله ، ثم قال الرسول : « إفتح فاك ، ثم قبَّله ، ثم قال اللَّهم أَحِبهْ فإني أُحِبُّه »

إذا تمعنَّا في تربية الحسين منذ مطلع نشأته فهمنا سرَّ كلِّ خطواته التي أتاها في مُقبلِ رجولته ، وإذا فهمنا ما يتضح لنا من بعد إمعان ، لمسنا سرَّ عمل الفعاليَّة الصامتة التي مسَّت مشاعره مساً ترك أثره الغامض في قرارة نفسه بفعل الأحداث التي تناولت نفسه في فترة غضارتها ولَدانتها ، حينما أُصيب بجدِّه العظيم ، وفُجع بأمه الرَّؤوم ، وانطوت نفسه على حفيظة وهو يرى بيت أبيه تحت المراقبة الشديدة تُنتهكُ حُرمته بدون لباقة . هذه الأحداث التي لم تمر على نفسيته وفكره مراً عابراً دون أن تترك آثارها الخطرة .

شمعةُ الإسلام ـ أضاءت لملايين المسلمين درب خلاصهم وعرَّفت لهم موطئ أقدامهم ، وجنَّبتهم الزَّلَل في حُفر الضلالة ، والسقوط في فخاخ الخطيئة والتهاون ، وأبانت لبصائرهم بسطوعها المتجلِّي أبدا ، مسالك الحق ، وطردت عنها معالم الوحشة لقلَّة سالكيها ، فعبرها المؤمنون آمنين مُستنيرين بأنوار الشمعة التي أضاءت باحتراقها فوق ثرى كربلاء ، ولم تزل تضيءُ حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا .

درعُ الإسلام ـ ذبَّ عنه الأذى المتمثِّل بوَهَن العقيدة وانحلال روحانية الدين ، بعد أن غدت العقيدة ضَعفاً لا يتصل بقوة ، بعد أن كانت قوة لا تتصل بضعف . فأغار على مواطن الوهن والإثم ، بالقول والفعل ، وتلقى بصبر نادر عجيب كلَّ ما شهره في وجهه حَفَدَةُ الشيطان ، مُستحلُّو حرم الله ، وناكثو عهوده ، ومُخالفو سُنَّة رسوله والعاملون في عباد الله بالإثم والعُدوان ، فكان بتصديه للأذى اللاَّحق بالعقيدة ، درع الإسلام بحق . فلولاه لما كان الإسلام إلى ما صار إليه ، عقيدة ثابتة تترع في وُجدان المسلمين وضمائرهم ، بعد أن كاد يتحول إلى مذهب باهت يركن في ظاهر الرؤوس التي أدارتها نحو المذهبية الساذجة الحمقاء ، ممارسات القائمين على أمور

المسلمين من حكام وأذناب سلطة ومدَّاحي دواوين .

ضمير الأديان إلى أبد الدهور - كان احتراقه المادي فوق أرض الطَّف ، مرحلة أولى لاشتعال ضميري أبدي ، كمثل التوهُّج من الاحتراق ، والحياة من الموت . وباستشهاده الذي لم يسجِّل التاريخ مثيلاً له ، تكرَّست ثورته كضمير للأديان السَّماوية يستصرخ أبداً في شبه إلحاح مناطق الشعور في الأنفس ، وينبِّه بتواتر لا يهدأ مثاوي العقيدة في الحنايا . فكأنه من الدين ، المعنى الديني ، غناه في المُهج على مقدار ما فيه من معناه ، فالدين ذاتيَّةٌ مطلقةٌ ثابتة ، والهرطقة نسبيةٌ مضمحلةٌ ليست شيئاً إذا لم تكن الخطايا والدنايا كل شيء خلفها وحولها ، لا تجد قيمتها إلا في مدى إسفافها ومهاوي دركها .

حسيننا ضمير الأديان ، والضمير محبَّةٌ وتحابٌ وغيرة ، في تلافيفه حنوُّ المستقبل ونُصعانه ، ومن آياته المعبِّرة في صيغة تعبيرية عن حقيقتها : « **ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبُّونه . أذلَّة على المؤمنين . أعزَّة على الكافرين . . يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم** »[1].

قوم الله : يحبونه . . وهو لذلك يحبهم . . ولا يقبل منهم الارتداد إلى الضلالة بعد إيمان ، فإن ارتدوا يرعاهم بالتجارب ليخلصهم من الشوائب . . وسبيل التخلُّصِ : الإخلاص . لذلك يصطفي من رُسُله من يشاء ، ليعلموا الناس سلوك طريق الإخلاص المتَّصل ، بالخفي المغيَّب من حكمة الله ، وقد اصطفى من العرب رسولاً ، وأنبأه ، : أن يصبر ، إن كذَّبوه ، فلقد كذَّبتِ الأقوام أنبياءهم من قبل ،

---

(١) المائدة : ٥٤

بعد ما اجتهد أولئك الأنبياء بتبليغ ما كُلِّفوا من البينات ، والزُبُرِ ، والكتابِ المُنير[1] . ولكن . . « **كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ، وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات ، والله لا يهدي القوم الظالمين** »[2] .

فقدرة الله وحكمته قد تفصل بين المرء وقلبه ليفلت السلطان على النفس من يد صاحبه « **أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتدِه** »[3] .

أما الفئة السلبية فهي الفئة التي تنكر الحق وتضطهد حملة لوائه ، تفرح بحيلتها في إخفاء معالمه وبشائره ، هذه الفئة ليست بمفازة من العذاب .

إن الله يرفع درجات من يشاء لحكمة وعلم ، وخير الأمم أمَّةٌ هُديت إلى الحقِّ فهَدَت به ، فالحقُّ يجعل من الأمة خير الأمم ، ومن المؤمنين خير الخليقة ، « **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** »[4] .

مقياس خير الأُمم قبول الحق والعمل به ، ومقياس المقاييس لخير المؤمنين فئة هَدَت إلى الحق وعَدَلَتْ به ونهَتْ عن نقيضه .

فمن من المؤمنين فعل هذا . . ؟.

من الذي أعلن على رؤوس الملأ بقوله هذا :

« **إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدِّي . . أريد أن : آمر بالمعروف . . وأنهى عن المنكر . . فمن قبلني بقبول الحق . . فالله أولى بالحق ؛ ومن ردَّ عليَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقِّ ، وهو خيرُ الحاكمين** » . . ؟.

---

(١) تفسير القرآن المرتب للدكتور أسعد علي ص ٤٣٤ - ٤٣٥ .

(٢) آل عمران ٨٦

(٣) الأنعام : ٩٠

(٤) أعراف : ١٨١

إنه الحسين سيد الشهداء في ميادين الحق ، والذي كانت ثورته تمثيلاً عملياً لضمير الأديان على مرِّ الدهور .

فقد خرج طالباً الإصلاح في أمة جدِّه ، خير أمة أخرجت للناس بثلاثة مواقفها : الإيمان . . والأمر . . والنهي . . الإيمان بالله الأحد . . والأمرُ بالمعروف . . والنهيُ عن المنكر ، الأقانيمُ الخُلُقية الثلاثة المكتوبة في التوراة والإنجيل والقرآن .

قضية الحقِّ الأولى واحدة في كلِّ دين ، تظهر ببهاء رغم كل الأستار الصَّفيقة من صُنع الهراطقة . . وضمير الأديان ما هو إلا إيقاظ مستمر وتذكير دائم بهذه القضية ، وقد جسَّده الحسين حينما انطلق إلى كربلاء ليكون عاشوراء العقائد ، وليَبقى فداؤه على مرِّ الدهور ، ضمير الأديان المطوِّر المُبدع في محبة الله ، وفي العمل بتعاليمه .

أليست الحرية والإيثار إعلان سُنَّة مرضية للرب ، كما عرفناها من مبادئ ثورة الحسين . . هي ذاتُها جوهر وصايا الإنجيل العظمى . . ؟.

فحسين الصلاح ضمير . . ضمير كل الأديان إلى أبد الدهور . . يعلو همسه المنبعث من أعماق الدهور فوق ضجيج الحياة وصخبها ، ومن فوق الإنسانية المختنقة بلفحات الضراوة والمظلومية ، ليرُدها إلى نعيمها الطاهر الذي تحاول أباطيل الضلالة إزاحته من تحت أقدامها .

ولئن اعتُدي على الحقِّ الإلهي في غفلة من الزمن وفي حَلكة الظلام ، فلهذا الحق في ضمير الكون شاهد . .

وكان الحسين « ع » ضمير الأديان في عمر الدهور . . هو الشاهدُ الأوحد على محاولة إزهاق الحقِّ في ضمير الكون .

ولكن يأبى الله إلا أن يُتمَّ نوره . .

وتأبى حكمته إلا أن تبلغ مداها في فضاء العزَّة والجَّلالة ، لتغمر آفاق البشرية بالقدسية والعدل والنُبل .

لهذا المقصد الإلهي كان الحسين قَبَس هداية ، ومَشكاة طهر ، ونموذج أخلاق فاضلة ، فكان حقاً ضمير الأديان إلى يوم القيامة .

مقتطفات وآراء

الحسين حيٌّ في الضمائر

« ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء ».

وهكذا فالحسين « ع » حيّ . .

حيٌّ عند الله . . حي عند الناس . . حي في الضمائر . . حي في القلوب . . حي في الأفكار . . حي في المشاعر . . حي على المنابر . . حي في المجالس . . حي في الكتب . . حيٌّ . . حيّ .

وكلٌّ واعي الضمير منوَّر القلب يغترف من معين هذه الحياة السرمديَّة .

وكان من جملة المغترفين من المعين الإلهي ، الأستاذ الكاتب « **أنطون بارا** » في سِفرِهِ القيِّم « **الحسين في الفكر المسيحي** » .

وقد طالعته فشدَّني بأسلوبه الجديد كل الجدَّة في عالم التأليف والتحليل . إنه كتاب يكفيه سمواً أن لا يغمز إلا من قناة الفِكر ، ومُنطلق الرؤية . [1]

---

(١) من مقدِّمة الطبعة الأولى لسماحة السيِّد محمد الحسيني الشيرازي .

الحسين شهيد للمسيحية كما هو شهيد للإسلام

الحوار بين أتباع الديانات السماوية ، هو غاية ما تصبو إليه الشعوب المؤمنة في هذا الطور من الزمن ، وفي هذه الظروف العصيبة ، التي شمَّرت فيها قِوى الإلحاد عن سواعدها تبغي التخريب وإعمال معاولِ الهدم في صروح الأديان ، آملةً في وقوعها أخيراً تحت ضرباتها .

كلُّ كلمة تُقال أو تُكتب ، وكلُّ حرف يسطع بنور الحقيقة ، سيُضيف بُعداً ذا أثر على قضايا الحقِّ الأولى ، الحق الإلهي الذي ما أُنزلت الديانات السماوية الثلاث إلا لتوكيده وترسيخه في أعماق النفوس . للأخذ بيد بني البشر إلى حيث الصراط المستقيم ، والحقُّ المبين الذي ينظِّم علاقة الفرد بربِّه ، وبأخيه في الأنسانية .

لأجل هذا الحق كانت رسالة عيسى « ع » ولأجله أيضاً كانت رسالة محمد « ص » وفيما بينهما من قواسم مشتركة ما كانت لتتجانس لو كان في طبيعة الحقِّ الإلـهي اختلاف أو تغيير .

وكتاب السيِّد « **أنطو ن بارا** » - الحسين في الفكر المسيحي - ما هو إلا صدى لترجيعات أصوات آمنت بهذا الحق . فكان في مهرجان الإيمان راية صفاء تُرفع ، وعلم نوايا طيبة يُرفرف .

فمن أجدر من الحسين « ع » لأن يكون تجسيداً للفداء في الإسلام . ومن أجدر من الفكر المسيحي لأن يفهم رموز ومعاني هذا الفداء . الركن الأول في المسيحية . . . ؟ وبالتالي يُحِبُّ من يتقدم إليه راضياً مرضياً ، لوجه الله والحقِّ الإلـهيِ .

فالحسين من وجهة نظر مسيحية ، هو شهيد للمسيحية كما للإسلام وكما لغيرهما أيضا . لأن فداءه ذو أهداف إنسانية شمولية لا تختص بفرد دون آخر .

ويظل كتاب ابننا الأديب أنطون بارا من أفضل الكتب التي قرأتها في هذا الصدد ، إن من حيث اللغة ، أو من حيث الأسلوب والمضمون . وأعتبرهُ خطوة جبارة في طريق الحوار بين أتباع الديانات السماوية .

حوار نحن في أمس الحاجة إليه ، لِنُواجه به ما يُحيط بعقائدنا الروحية من أعاصير الإلحاد والكفر .

فليُبارك الله قلم الكاتب ، ونُبل مقصده ، وعظيم هدفه . وله في اجتهاده هذا أجران : أجـرُ العمل ، وأجـرُ المقْصد.[1]

---

(١) من كلمة لسيادة المطران الدكتور برتلماوس عجمي

ثـورة للإنسانيـة كلهـا

ما أجدر بثورة كثورة الحسين « ع » من أن توصف بالشمولية . فهي ثورة لكل إنسان فوق هذا الكوكب ، مسلماً كان أو غير مسلم . وهذا بعض ما يجب أن يُقال بحق هذه الثورة التي كانت وستبقى الثورة المثالية والرائدة بلا منازع .

ولعلَّ أحدث ما كُتب حول هذا المعنى ، كتاب خطه يراع الكاتب المسيحي « أنطو ن بارا » بعنوان « **الحسين في الفكر المسيحي** » حـلَّـل فيه بشيء كبير من الصدق والاخلاص ، ملحمة كربلاء ، وأبرز جوانبها وأهم أسبابها ونتائجها بروح موضوعية . بعد أن استنار بالشيء الكثير ممـا كُتب عن المِلحمة الخالدة ، مُستخلصاً من كل ذلك شمولية الثورة واتساعها .

وفصلاً بعد فصل يسير بنا الكاتب في رحلة كلها دروس وعِبَر ، حتى يختمها كما بدأها ، بكلمات صدق فيها مع نفسه ومع التاريخ ، وأعطى بها لثورة الحسين بعض ما تستحقه (١)

---

(١) من مقال للاستاذ علي الشرقي في مجلة المواقف البحرينية العدد ٢٦٢/٥ فبراير ١٩٧٩

يا شهيد الطَّف سيوفنا لك لا عليك

« **ما أجدر بالبشرية اليوم لأن تتوجه نحو منارة الحسين كيلا تضل** ».

بهذا القول يؤكد الكاتب المسيحي « **أنطون بارا** » على ضرورة التمسك بتعاليم الحسين والتوجُّـهِ نحو منارة مُثُله ، طمعاً في النجاة من الضلالة والضياع ، سيما في عصر الضنك هذا ، عصر المظلومية وعبادة المال .

وقد صدق الكاتب حين قال : « **الحسين ضمير الأديان إلى الأبد** » .

قبل كل شيء لنرى كيف كان الحسين ضميراً يقف على قدمين ، يفرح ، يحزن ، يتحسس ، يتألَّم ، يُدافع ، يُناصر ، وبكلمة واحدة كان مع الحقِّ ، والحقُّ معه أينما كان .

ألم تسمعوه يقول ليلة عاشوراء وروح المسؤولية تسير حتى على شفتيه : « **ألا ترون إلى الحقِّ لا يُعمل به ، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه . . ؟** » كأنه يريد أن يهزَّ أعماقنا بهذا الاستفهام الاستنكاري : « **ألا ترون . . . ألا ترون ؟** » .

وبعد كل هذا ، الحسين مدرسة أخلاق ، وجامعة إيمان هو عميدها . ولنا الشرف كل الشرف أن نقتبس ونأخذ منه .

إذن فعيب علينا أن نغالط أنفسنا بإحياء ذكرى الحسين كلَّ عام ، بينما نقتل أهدافه في كل ثانية من حياتنا ، بسلوكنا وأعمالنا . فلنكن حسينيين قلباً وقالبا [1] .

---

(١) من منشور وُزع في البحرين بمناسبة ذكرى عاشوراء المجيدة لعام ٧٨ أصدرته اللجنة الثقافية في الصندوق الحسيني الاجتماعي .

ثـورة الحسين إلهام لا ينضـب

الحسين بن علي «ع» وثورته كانا على الدوام محط إلهام الكثيرين من أصحاب الضمائر الحرة والأفكار السامية ، يجدون في سيرة سيد الشهداء ذُخراً أخلاقياً لا ينضب .

والكتاب الذي صدر للزميل «**أنطون بارا**» بعنوان «**الحسين في الفكر المسيحي**» ، فيه التماعات شتى ، بذل المؤلِّف لها الكثير من الجهد الملموس لإيفاء الموضوع حقه من البحث والتحليل والمعالجة الفكرية الهادفة ، فجاءت فصول الكتاب تجسيداً لرؤية فلسفية وفكرية جديدة .

إنه كتاب جديد في مُنطلقه ، وعميق في أبعاده ، وهادف في مضامينه الفكرية من أجل تجسيد معنى الاستشهاد والتضحية والفداء ، هذه الملاحم التاريخية الباقية على مـر السنين والأجيال ، والتي قـدَّمها للبشرية أبو الشهداء وسيدهم الحسين بن علي «ع» فكانت لها موئلاً وملاذا .

أن كتاب الحسين جدير بالدراسة المتأنِّـية الواعية لمن يريد التعمُّـق في خصائص الثورة الحسينية [١] .

---

(١) من مقالين للأستاذ عبد الله الشيتي ، في جريدة الرأي العام الكويتية العدد ٥٣٢٩ سبتمبر ٧٨ ، ومجلة النهضة العدد ٥٦٨ سبتمبر ٧٨ .

مـلحمـة كـربلاء بين المستشرقين والمستغربين

المستشرقون الذين تناولوا ثورة ابي الشهداء الحسين « ع » تناولوها بكثير من التجني والإجحاف . ونظروا لها نظرتهم إلى حادثة تاريخية مجردة من القُدْسية . بينما تناولها المستغربون – الكتاب المسلمون ذوو الثقافة الغربية – بكثير من الإهمال وضعف التبحُّر الموضوعي إذ غلبت عليهم العاطفة ، فانعكست على تحليلاتهم واستنتاجاتهم مما جعل منها كمّاً غير ذي أثر على الفكر .

وكان الخطأ الذي ارتكبه المفكرون المسلمون ، هو أنهم هدفوا بكتاباتهم ، الفكر المسلم ، ولم يَدُر بخلدهم يوماً أن يتجهوا إلى الفكر المسيحي أو اليهودي أو غيرهما . لإيصال أخلاقيات ثورة كربلاء ، أو لعرضها كما يجب أن تُعرض بحيث يفهمها الفكر الغربي المسيحي .

من هنا كان كتاب الأستاذ « **أنطو ن بارا** » وهو المسيحي العربي ، فريداً في بابه ، وقد أثـار جدلاً في الأوساط الثقافية والفكرية نظراً لمـا احتواه من موضوعية وطرح جديدين ، ولكون مؤلفه مسيحياً تصدَّى لتحليل سيرة وشخصية علم من أعلام الإسلام ، في وقت يُحجم فيه الكثيرمن الكتاب المسلمين عن الخوض في هذا النوع من الكتابة ، نظراً لصعوبته أولاً ، وتشعبه وحساسيته الفائقة ثانيا .

وقد قرأت كثيراً من الكتب التحليلية عن الحسين . لكني لم أقـرأ بوضوح رؤية ومتانة لغة ، ورشاقة أسلوب ، وروعة تحليل كتاب « **الحسين في الفكر المسيحي** » ، إلا كتاب عبد الله العلايلي . وإذا جاز لي تصنيف أفضل ثلاثة كتب قرأتها في حياتي عن الحسين ، فأقول : لعبد الله العلايلي أولاً ، ولأنطون بارا ثانياً ، وللعقاد ثالثا [1] .

---

(١) من مقدمة حوار مع المؤلف في مجلة صوت الخليج الكويتية العدد ٨٢٠ تشرين أول ٧٨ .

الفـداء بين عيسى والحسين

أنّى للبشرية أن تجد طريق خلاصها بعيداً عن تعاليم الحسين . . . كيف لها أن تسمو إذ لم تَمسُّها قُدْسية الطَّفْ؟ إن كربلاء ليست وقعة تاريخية انتهت في العاشر من محرَّم ، بل كانت منعطفاً حياتياً خطيراً استهدفت عقيدة الإسلام العظيم ، الذي حقَّق في صدر انطلاقته فتوحات ما كانت لتتم وتنجح لولا تمكن العقيدة في النفوس ، وتمدُّدها في ذرَّات الضمائر .

فهل للحسين « ع » الشهيد وأبي الشهداء وسيدهم ، شبيه في التضحية بين الأنبياء والشهداء . . . وهل لتضحيات أرباب الديانات قديمهم وحديثهم شبه بما ضحَّاه سبط النبي الذي قال عنه الرسول « ص » « **حسين مني وأنا من حسين** »؟.

هذا ما أجاب عنه كتاب « **أنطو ن بارا** » الذي صدر مؤخراً بعنوان « **الحسين في الفكر المسيحي** » حيث عقد المؤلِّف مقارنة ناجحة بين شهادتي عيسى والحسين « ع » معتمداً على كثير من المراجع والخلفيات ، مُبرِزاً بموضوعية صافية ، حسنة النوايا والمقاصد ، قضية الحقِّ الإلّهي الذي تقاسمته الأديان التوحيدية الثلاثة ، والذي لأجل نشره بين الخليقة جاءت الرُسُلُ هادية مبشِّرة .

فلنقرأ هذا الكتاب لنطَّلع على وُجهة نظر المسيحية في شهادة الحسين [1]

---

(١) من مقال للأستاذ أحمد مطر في جريدة القبس الكويتية ١٢ أكتوبر ٧٨ .

حوار الفكر بين الأديان

لم نقرأ قبلاً وجهة نظر مسيحية حول قصة كربلاء ، المتجلية في استشهاد الحسين وعترة آل البيت « ع » . ولا ندري لمَ هذا التقصير من جانب الفكر المسيحي لإبداء وجهة نظره في هذا الصدد ، مع أن الفداء والشهادة هما ركنا الدين المسيحي الذي يقوم عليهما .

لكن كتاب الأستاذ أنطو ن بارا « الحسين في الفكر المسيحي » ليُعتبر محاولة وتجربة جريئة من المؤلف للخوض في هذا الموضوع بأسلوب جديد كل الجِدَّة ، لم يعهده قارىء العربية فيما نُشر من مئات الكتب حول ذات الموضوع ، وهو في حد ذاته خطوة عملية ومُنطلقٌ لدراسات فكرية تعمِّق من الحوار بين أتباع الديانات السماوية ، بلا تعصُّب أو ضيق أفق ، ولكن بسعة صدر وشمول رؤية .

وكما قلنا إن خطوة المؤلف هي جرأة إيمانية يُشكر عليها . لأننا انتظرناها طويلا . فمن أجدر بأتباع الديانات السماوية الثلاث بتأمُّل آيات القول والفعل التي جاءت بها رسالاتهم، وحملها لهم نبيُّوهم كَلِماً وآيات عجاب ، لإهدائهم إلى سواء السبيل ، والصراط المستقيم . . ؟ .

لقد أفاض المؤلف وفصَّلَ بتحليل سيرة سيد الشهداء ، والتي يلمس القارىء لسطور كتابه إعجابه الشديد بهذه السيرة تيمُّناً بقول رسول الله « ص » : « إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبدا » .[1]

---

(١) من مقال للأستاذ ابراهيم عبد الموجود في جريدة الأنباء الكويتية العدد ٩٨٣ سبتمبر ٧٨ .

كتـاب فـريـد ولغـة مبتكرة

عدا كتب التاريخ الصرفة ، ما ضمَّت أرفف المكتبات العربية ، كتاباً واحداً يعرض لملحمة كربلاء بالتحليل الجيد والعرض المتقن .

كل الكتب التي تناولت سيرة الحسين العطرة ما خرجت عن ترداد ما رُدِّد مئات المرات ، وكأن عظمة هذه السيرة تكاد تقف عند حدود هذه التعابير المُعادة والمُكـرَّرة على وتيرة واحدة .

سيرة الحسين . . مبادىء . . ومُثُل . . وثورة . . لأعظم من حصرها ضمن الأطر التي حُصرت بها . وعلى الفكر الإنساني عامة ، لا الفكر المسلم والمسيحي فحسب . . أن يُعيد تمثُّلها واستنباط رموزها من جديد ، لأنها سر سعادة البشرية وسر سؤددها . . وسر حريتها ، أعظم ما عليها امتلاكه .

كتاب واحد فحسب قرأته ، فوجدت فيه ضالتي في فهم شخصية الحسين وثورته ألا وهو كتاب « **الإمام الحسين** » للشيخ العلامة عبد الله العلايلي . بعده لم يعد ثمة كتاب واحد يشدني ، إلى أن اطلعت على كتاب الأديب والصحافي « **أنطوان بارا** » الذي نحى بتحليلاته فيه منحى مبتكراً جديداً على أسلوب البحث ، سواء على صعيد السيرة أو التاريخ .

ولأول مرة اكتشفت إمكانية إيجاد لغة ملائمة لبحث يغوص في موضوع ديني تاريخي ، لغة لا يملُّها الفكر ، ويحتار في وصفها الذوق الرفيع ، لما ملكته من

رشاقة وغِنّة وإيقاع سهل ممتنع، يجمع بين إيقاع لغات الصحافة والأدب والبحث الجاد ، كان منها أن جعلت من سطور الكتاب سمفونية رائعة ، فيها من كلٍّ لون قَبَس ، ومن كلٍّ عطرٍ أريج ، ومن كلٍّ صوتٍ نغمة [1] .

---

(١) من مقال للأستاذ كرم قنصل في مجلة الكلمة السورية عدد ١٤ لعام ٧٩.

عاشوراء حسرة في ضمير المسلمين

على امتداد التاريخ الإسلامي ظلّت كربلاء مصدراً لإيحاءات فاجعة تذوب معها وُجدانيات المسلمين -في كل عصر- حزناً وحسرة .

وعلى امتداد التاريخ الإسلامي ظلّت الدهشة هي القاسم المشترك أمام حَلكة الظلام التي سادت النفوس وأعمت العيون عن الوقوف إلى جانب حقٍّ مبين ، وقادت إلى الالتفاف حول باطل لا يحتمل الشك في بطلانه .

وبين الحزن والدهشة صدرت آلاف الشروحات والتفسيرات لحادثة استشهاد الإمام الحسين عليه وعلى جدِّه أفضل الصلاة والسلام . تلك الحادثة التي تستعيدها الضمائر جيلاً بعد جيل في محاولة لفهم أسرارها وكشف رموزها ، كصورة فريدة للتناقض الصارخ بين الحقِّ المقهور وبين الباطل المنتصر .

وكتاب « **الحسين في الفكر المسيحي** » بحث فريد في موضوعه ، فلم يسبق الربط بين ثورة الحسين وبين فكر أهل الكتاب ، بالإضافة إلى أن كاتبه عربي مسيحي . إلا أنه كتاب نادر في بابه وأسلوبه ، وجهد ضخم لا يُماثل من نوعه ، ما كان ليكتمل لولا شفافية في نفس الكاتب، وقدرة طيبة على البحث والاستقصاء ، والاستيعاب الجيد ، والتمثُّل للحادثة عقائدياً وتاريخياً ، وقلم يعرف كيف يصوغ الرؤية بلغة فريدة ، ويستنبط التحاليل بأسلوب غير معهود ، خاصة إذا كان الموضوع على هذا العمق الفاجع في وُجدان القارىء[١] .

---

(١) من مقال للأستاذ علي عباس في مجلة صوت الخليج العدد ٨١٧ سبتمبر ٧٨ .

فهرست

	صفحة
مقدِّمة الكتاب	٧
مقدمة الطبعة الثانية	١٧
مقدِّمة المؤلف	٢١
ثورة الحسين . لمن . . ؟	٥٩
فداء الحسين في الفكر المسيحي	٦٩
ثورة الوحي الالهي	٨٩
معجزات الشهادة	١٠٥
حكمة اختلاف الشهادتين	١١٥
معجزات الشهادة في ضمير الاسلام	١٢١
معجزات الشهادة الاجتماعية	١٤٣
معجزات الشهادة الزمنية	١٦٩
الأسباب البعيدة للثورة	١٩٥
الأسباب القريبة للثورة	٢٠٥
في عهد يزيد	٢٢٣
الخروج	٢٣٧
آخر أقوال ومواقف سيد الشهداء	٢٥٣
مقتل الحسين	٢٥٧
الجريرة التي أسقطت أمية	٢٧٩
المسيح هل تنبأ بالحسين . . ؟	٢٩٥
كربلاء الأرض المقدسة	٣١٣
سمو الشهادة في علم الجمال	٣٢٣
ضمير الأديان أفضال وألقاب	٣٤٥
مقتطفات وآراء	٣٥٥

3481

10

VETUS & TESTA-
NOVUM MENTUM
DEI·SUB·NUMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
SEPT · OCT 1989
We're Quality Bound

(Arab)
BP193
.13
.B37
1987

(هـذا الكتاب)

عدا كتب التاريخ الصرفة ، ماضمّت أرفف المكتبات العربية ، كتاباً واحداً يعرض لملحمة كربلاء بالتحليل الجيد والعرض المتقن .

كل الكتب التى تناولت سيرة الحسين (ع) العطرة ماخرجت عن ترداد ماردّد مئات المرات ، وكأن عظمة هذه السيره تكاد تقف عند حدود هذه التعابير المعادة والمكرّرة على وتيرة واحدة .

سيرة الحسين (ع) مبادئ ، ومثل ، وثورة ، لأعظم من حصرها ضمن الأطر التى حصرت بها وعلى الفكر الانسانى عامة . لا الفكر المسلم والمسيحى فحسب .... أن يعيد تمثلها واستنباط رموزها من جديد . لانها سر سعادة البشرية وسر سؤددها .. وسر حريتها . أعظم ما عليها أمتلاكه .

كتاب واحد فحسب قرأته . فوجدت فيه ضالتى فى فهم شخصيه الحسين (ع) وثورته ألا وهو كتاب (الامام الحسين "ع") للشيخ العلامه عبد الله العلايلى . بعده لم يعد ثمة كتاب واحد يشدنى . إلى أن اطلعت على كتاب الكاتب والصحافى (أنطون بارا) الذى نحى بتحليلاته فيه منحى مبتكراً جديداً على أسلوب البحث . سواء على صعيد السيرة أو التاريخ .

ولأول مرة اكتشفت امكانية إيجاد لغة ملائمة لبحث يغوص فى موضوع دينى تاريخى . لغة لا يملّها الفكر . ويحتار فى وصفها الذوق الرفيع ، لما ملكته من رشاقة وغنّة وإيقاع سهل ممتنع ، يجمع بين إيقاع لغات الصحافة والأدب والبحث الجاد ، كان منها أن جعلت من سطور الكتاب سمفونية ، رائعة ، فيها من كلّ لون قبَس ، ومن كلّ عطرٍ اريج ، ومن كلّ صوتٍ نغمة .

كهرم قنبصل